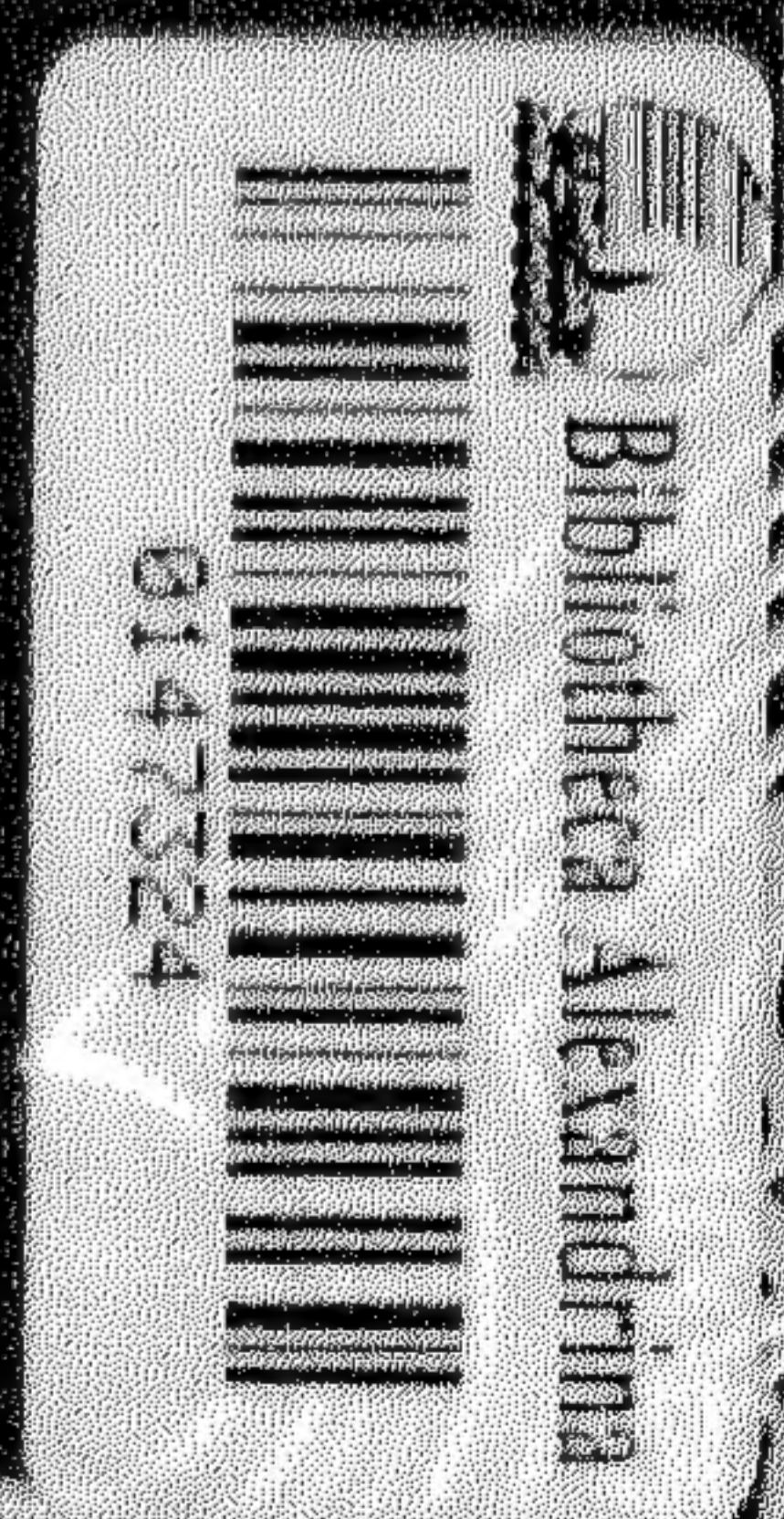


احمد رشیدی

بیت
الکتورز کی مبارک

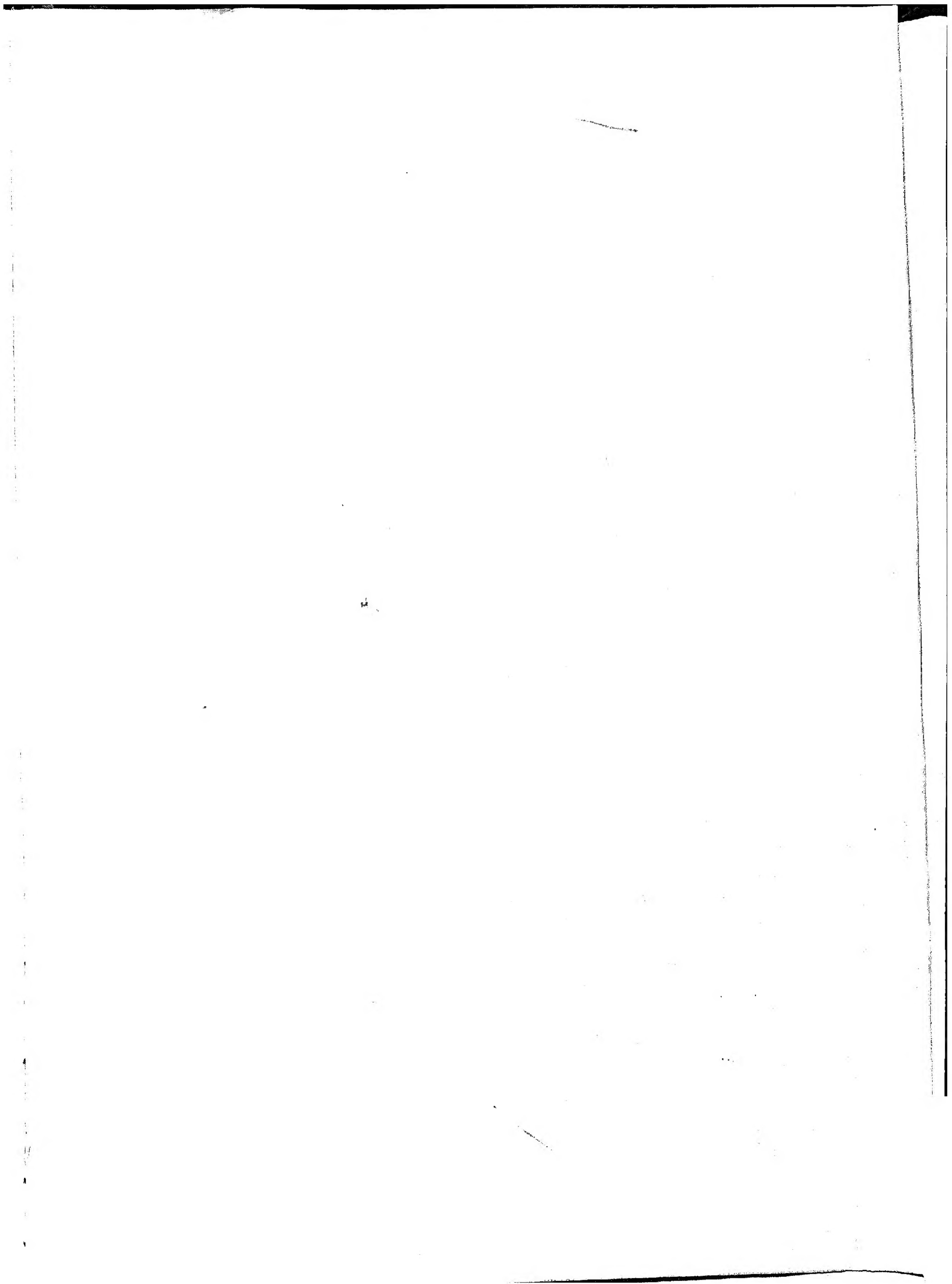
دارالبحیثہ
بیت



1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
34
35
36
37
38
39
40
41
42
43
44
45
46
47
48
49
50
51
52
53
54
55
56
57
58
59
60
61
62
63
64
65
66
67
68
69
70
71
72
73
74
75
76
77
78
79
80
81
82
83
84
85
86
87
88
89
90
91
92
93
94
95
96
97
98
99
100

100

100



892-786

٥٩
P ٤٢

احمد شوقي

General Organizing Unit of the Alexandria Library (GOAL)

بِقَلَمِ
الملك فؤاد زكي مبارك

إعداد وتقديم
كرامة زكي مبارك

الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم القصة 892.786.٥٩
٢.٥٩
رقم التسجيل: ١٠٩٩٩

دار البيل
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

ان نفسى لتطيب كلما ذكرت
انى كنت اول ناقد
انصف شوقى فى حياته

زكى مبارك

المقدمة

بقلم : كريمة زكى مبارك

شغلت من سنوات وسنوات بجمع المقالات المبعثرة فى الجرائد
والمجلات لأديب الأمة العربية الدكتور زكى مبارك، ولفت نظرى انشغال
الأديب الناقد زكى مبارك بالشاعر أحمد شوقى ، حتى ان زكى مبارك
نفسه يقول :

« للشاعر شوقى حظ عظيم من عناية المؤلف، وان نفسى لتطيب
كلما ذكرت أنى كنت أول ناقد أنصف شوقى فى حياته) ، فهل التقى
زكى مبارك بأحمد شوقى ؟

فى سنة ١٩١٤ حضر زكى مبارك الاحتفال بوضع الحجر الأساسى
للجامعة المصرية وفى تلك الحفلة ألقى قصيدة من شعر شوقى ، ولكن
زكى مبارك لم يجد من يرشده الى مكان شوقى ليسلم عليه .

وفى سنة ١٩٢٩ كان زكى مبارك رئيس تحرير جريدة الأفكار ،

وفى منزل الشيخ عبد اللطيف الصوفانى التقى زكى مبارك بأحمد شوقى لأول مرة ، فكيف كان اللقاء ؟

يقول زكى مبارك (١) : « حين عاد الشاعر شوقى من منفاه تلفت لرؤيته ، فرأيت أول مرة فى منزل المرحوم عبد اللطيف الصوفانى بك بالحمية الجديدة . »

رأيت رجلا خاليا من الأبهة والوجاهة فى ملبسه وهندامه ، رجلا قليل الكلام كثير الصمت ، لا يدل مظهره على شيء ، وإن طبقت شهرته الآفاق ، وقد قدمونى يومئذ اليه ، فأنشدته قصائد كثيرة من شعره ، وكان يأنس الى من يرددون أشعاره ويعترفون بعظمته الشعرية . . . »

وفى سنة ١٩٢٠ نظم أحمد شوقى قصيدة فى الدعوة الى قبول مشروع ملنر ، فكيف كان وقع تلك القصيدة على زكى مبارك ؟

يقول زكى مبارك (٢) : « قرأت تلك القصيدة وأنا فى غياهب الاعتقال (٣) ، فثار غضبى عليه ، وصممت على ايذائه حين أجد السبيل الى تنسم هواء الحرية ولما خرجت من الاعتقال فى خريف سنة ١٩٢٠ كان أول ما كتبت مقالة فى نقد شوقى بمناسبة قصيدته فى مشروع ملنر ونشرتها فى جريدة المحروسة (٤) ، فغضب الشاعر وأضاف اسمى الى خصومه الالقاء ، ولكن المقادير أرادت غير ما أردت وما أراد . . . واليك أسوق الحديث :

كان شوقى بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده الجياد الا فى جريدة الأهرام وكانت جريدة الأهرام تسميه « أمير الشعراء غير منازع

(١) هذا القول من حديث اذاعى القاه زكى مبارك فى الاذاعة المصرية فى أول اكتوبر ١٩٣٨ وهو منشور فى كتاب الاسمار والاحاديث للدكتور زكى مبارك صفحة ١٥٦ .

(٢) الاسمار والاحاديث صفحة ١٦٢ .

(٣) اعتقل الانجليز زكى مبارك فى ديسمبر سنة ١٩١٩ وصيره اسير حرب .

(٤) المقال على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان « مقاصد الشعراء » .

ولا مدافع ، وقد احتالت جريدة السياسة بنشر تلك القصائد الجياد فأعلنت انها تقدم خمسين جنيها الى الجمعية الخيرية الاسلامية فى كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقى .. ورأى شوقى امام هذه الحيلة البارعة ان لا مفر من ان يختص جريدة السياسة بأشعاره ، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته ، لأنها وثيقة نفيسة تشهد بعظمته الشعرية » *

ثم يقول زكى مبارك « انتقلت قصائد شوقى من الأهرام الى السياسة .. فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل ، ولم تعد تسميه « أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع » ، حين تجيء مناسبة لذكر اسمه ، وانما صارت تسميه صاحب العزة أحمد بك شوقى *

وقد تنبّهت الى هذه الظاهرة مع صديق قديم هو الدكتور سعيد عبده ، وكان يومئذ طالبا بمدرسة الطب فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها فى جريدة الصباح وقد قرأ شوقى ما كتبت وما كتب صديقى سعيد عبده فطرب ورآنا من النوابع !

وأرسل ابنه حسين الى صاحب الصباح يدعونا جميعا للغداء بكرمة ابن هانىء فى المطرية .. *

ولم يشأ أن يجشمنا مشقة الانتقال فأعطانا موعدا بأحد أندية القاهرة ، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا الى المطرية مكرمين معززين .. *

ويضيف زكى مبارك : « وكان ذلك اليوم هو بداية صداقة حقيقية بينى وبين شوقى ثم زادت الألفة فكنا نلتقى كل يوم بمكتبه فى شارع جلال » *

بعد ذلك توثقت الصلة بين زكى مبارك وأحمد شوقى فى سنة ١٩٢٥ ، وفى ذلك يقول زكى مبارك (١) : كانت الأقدار سمحت

(١) الرسالة العدد ١٩٢ *

بأن تنعقد بينى وبين شوقى مودة دامت نحو سنتين وفى تلك الأيام
عرفت من أحوال شوقى أشياء وأشياء ومن المؤكد أنه من أعظم الرجال
الذين عرفتهم فى حياتى فقد كانت أستاذيته فى نقد المجتمع مضرب
الأمثال وكان روحه من أطف الأرواح •

ثم يقول زكى مبارك (١) : « صحبنا شوقى وعاصرناه ، وهو
بحمد الله يعيش فى مدينة واحدة •• صاحب شوقى ان شئت ، فستراه
قليل الحديث ، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع ، لهذا الرجل
الصموت ، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدين ، ولكنى
وقد عرفت شوقى أحكم بأن هذا مجنون جديد من مجانين ليلى وليلاه
هى الشعر ، وهو بالشعر مجنون لا مغرم ولا مفتون ، وهو يهرب
من الناس حين يشرع فى النظم فلا تراه الا هائما على وجهه من طريق
الى طريق وفى حال تنذر بالجنون •

وكان شوقى قلما يتحدث عن شعره ، وقلما ينشده ، وانما يوكل
بانشاده من يتوسم فيه حسن الفهم ، وحسن الأداء •

وكان فكرى أباطة هو الأثير عند شوقى فى القاء شعره البليغ •
وبعد ذلك يتساءل زكى مبارك : ما شوقى وما شعره ؟ ويجيب
زكى مبارك بقوله : كان شوقى عاديا فى حديثه ، وفى مظهره ، ولكنه كان
فى شعره أعجوبة الأعاجيب وما أذكر أن حديث شوقى راعنى مرة ، أو
دلنى على أن للرجل عقلا يمتاز به على سائر عقول البشر ، ولكن هل
العبقريه لباس مهندم ولسان معسول ؟

هيهات •• لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس أن
يكون أشعر الناس فى زمانه ، لأن العبقريه سر مكنون •

ولا تسأل (٢) عن السر فى عظمة شوقى ، لأن الشعر فى أكثر

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية ص ١٢٩ •

(٢) البدائع الطبعة الثانية الجزء الاول صفحة ٤٠ •

الأحيان من النفحات الالهية التي لاتنال بالجد وعرق الجبين فليس بأعلم
معاصريه ، ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود ، وقد
أفصح هو عن ذلك أبدع افصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شأنى
أنا أسمو الى نباهة شأنه
كان بالسبق والميادين أولى
لو جرى الحظ فى سواء عنائه
انما أظهروا يد الله عندى
وأذاعوا الجميل من احسانه
ما الرحيق الذى تذوقون من كر
مى وان عشت طائفا ببدنائه
وهبونى الحمام لذة سجع
أين فضل الحمام فى تحنائه
وتر فى الهامة ما للمغنى
من يد فى صفائه وليانه

ثم يقول زكى مبارك ان شوقى كان مفطورا على الشعر ، وكانت
الحياة فى عينيه شعرية الملامح •
ويرى زكى مبارك (١) «أن من الأدباء والفنانين من تصبح آثارهم
كالدناير التى يتميز بها جيل عن جيل ولا يمكن تزييفها الا بجهل
عنيف ، وشواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم ، فشوقى ينم
شعره عليه » •

كما يرى زكى مبارك (٢) أن من البيان البسيط ذلك النوع
السهل الذى يفهمه سواد الناس كقول شوقى :
وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) عبقرية الشريف الرضى طبعة بيروت الجزء الاول صفحة ٥٤ •

(٢) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٤٨ •

ويقول زكى مبارك ان شوقى صرح بأن أعظم قصائده هي النونية
الأمونية ، وانها أعظم ما خطته يمينه (١) :

درجت على الكنز القرون وأتت على الدن السنون
أما حافظ ابراهيم فكان يرى - كما يقول زكى مبارك - ان
أعظم قصيدة نظمها شوقى هي البائية الكارنارفونية :
فى الموت ما أعيافى أسبابه كل امرئ رهن بطى كتابه
ويقول زكى مبارك انه سأل مرة الشاعر حافظ ابراهيم أتخفظ
شيئا من شعر شوقى فأجاب حافظ :

لقد قتلنى شوقى حين قال فى اللورد كارنارفون :

أفضى الى ختم الزمان ففضه

وحبا الى التاريخ فى محرابه

وطوى القرون القهقرى حتى أتى

فرعون بين طمامه وشرابه

اذن للشاعر شوقى حظ عظيم من عناية زكى مبارك المؤلف كما
رأينا وكما سنرى ..

فى سنة ١٩٢٥ كتب زكى مبارك فصولا مطولة عن شعر شوقى (٢)،
فى الطبعة الثانية من كتابه « الموازنة بين الشعراء » وازن زكى مبارك
بين الشاعر أحمد شوقى وبين الشعراء الحصرى والبحترى والبوصيرى
والبارودى وابن زيدون ؟

وفى كتاب زكى مبارك « عبقرية الشريف الرضى » (٣) يتحدث
زكى مبارك عن الشريف الرضى وعن الشعراء الوصافين فيقول :

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٢ .

(٢) وهى مقالات نشرت أول مرة فى جريدة المقطم سنة ١٩٢٥ .

(٣) طبعة بيروت الجزء الثانى صفحة ١٩٤ .

« ان شوقى شاعر وصاف وله قصيدة مشهورة فى التاريخ وهى
التي يقول فيها :

أيها المنتحى بأسوان دارا كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غضا

وفى كتاب « مدامع العشاق » (١) قال زكى مبارك ان شعراء
العصر قد أجادوا فى وصف الأرق الطويل ومن ذلك قول شوقى :

ساءلتنى عن النهار جفونى رحم الله يا جفونى النهارا
قلن نبيكه قلت هاتى دموعا قلن صبرا فقلت هاتى اصطبارا
يا ليالى كم أجذك طوالا بعد ليلى ولم أجذك قصارا
ان من يحمل الخطوب كبارا لا ييالى بحملهن صغارا
لم نلق منك يا زمان فنشكو مدمن الخمر ليس يشكو الخمارا

ثم ماذا أيضا ؟

ثم ان زكى مبارك الأديب والناقد شغل نفسه بآراء أحمد شوقى
فى كتابه أسواق الذهب فى كتاب « النثر الفنى » (٢) وفى حديث
زكى مبارك عن السجع يقول زكى مبارك من أجمل ما قرأت فى
الدفاع عن السجع قول ابن أبى الحديد فى الرد على من يرون السجع
بابا من انتكلف : « المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته للسامعين »
فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟

ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف اقامة الوزن ؟ وليس
لطاقن أن يطعن فيه بذلك ؟ •

(١) مدامع العشاق الطبعة الثانية صفحة ١٦٤ •

(٢) النثر الفنى الطبعة الثالثة الجزء الأول صفحة ١٢٣ •

ثم يقول زكى مبارك : وفى هذا المعنى قال شوقى طيب الله
ثراه : (١)

« كل موضع للشعر الرصين محل السجع ، وكل قرار لموسيقاه
قرار كذلك للسجع فانما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع
للشعر الرصين : من حكمة تخرع أو مثل يضرب أو وصف يساق
وربما وشيت فيه الطوال من رسائل الأدب الخالص ورصعت به القصار
من فقر البيان المحض ، وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعادوه
عيا فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه يوضع عنوانا
لكتاب ، أو دلالة على باب أو حشوا فى رسائل ساسية ، أو ثرثرة فى
المقالات العلمية •

فيا نشء العربية ان لغتكم سرية مثرية ، ولن يضرها عائب ينكر
حلاوة الفواصل بالكتاب الكريم ولا سجع الحمام فى الحديث الشريف
ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح »

واذا تركنا كتاب زكى مبارك النثر الفنى ، وانتقلنا الى كتابه
البدائع نجد لشوقى نصيبا كبيرا من عناية المؤلف فى هذا الكتاب ••
ففى البدائع يرى الأديب الناقد زكى مبارك أن الشاعر شوقى سلك
نفس المسلك الذى درج عليه شعراء اللغة العربية منذ القديم وهو
افتتاح القصائد بالنسيب ، وان باب النسيب هو أضعف الجوانب فى
« الشوقيات » ويعلل زكى مبارك ذلك بأن الشاعر شوقى عاش مقسم
القلب ، موزع الاحساس ، فكان ينتقل من حب الى حب ، ومن حسن
الى حسن فلم يقع لذلك على وقدة الهجر أو أسر الصدود •

ثم يضيف زكى مبارك : « انه لعزيز أن يدور شعراؤنا حول الحب
فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمون ، فحيرة الشاعر اليوم هى حيرة

(١) اسواق الذهب صفحة ١٠٩ •

أسلافه منذ قرون ، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقد • وهذا الحسن - ان لم يلفظ الله - ماض في الفتك بلقائف القلوب وقد جدت للأرواح أزومات جديدة ، ومطامع جديدة ، لم يشق بها الأولون •• فليس من المغالاة في شيء أن نصارح القراء بأن الغزل في شعر شوقي وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما في نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق أو الظمأ أو الالتياح •• وهذه المؤاخذة توجه الى الأدب في جملته لأن قراء العربية في هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم وجمدت مشاعرهم عن فهم ما في هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية ، والأذكاء منهم جناء يكتبون غير ما يشعرون ، وهذا هو السر في انحطاط الأدب العربي الحديث والا فآين في مصر الشاعر أو الكاتب الذي استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال الى هدى ، أو من هدى الى ضلال ؟ وأخيرا يقول زكي مبارك : « لعل أفظع رزء منى به الشرق هو الغفلة عن تربية المواطن وغيض الأبصار عن روائع الجمال ، ومصدر ذلك - فيما أظن - أنه يندر في الشرق أن يكون شيء من الأمر بيد الشاب فنحن نعيش في قيود وأغلال وطرق حديدية جماعة من الحمقى البلداء الذين يحقدون أشد الحقد على كل شاب قوى العقل واضح الفكر مضى الإدراك » •

ويظل زكي مبارك مشغولا بأحمد شوقي ففي كتاب « مجنون سعاد (١) » الذي صدر في مارس ١٩٧٧ عن دار الهلال يقول زكي مبارك في رسالته الواحدة والخمسين موجهة حديثه الى محبوبته سعاد :
نسيت في الرسالة الماضية أن أذكر فكرة ملأ خواطري حين حضرت الاحتفال بتكريم علي باشا إبراهيم ، فما تلك الذكرى الشعرية؟

(١) « مجنون سعاد » مقالات نشرها زكي مبارك في مجلة الصباح ابتداء من سنة

فى صباح يوم الجمعة ٢٩ فبراير ١٩٢٩ نشرت جريدة الأهرام
قصيدة غراء لأمير الشعراء شوقى فى تكريم الدكتور على ابراهيم ..
وكان مبضمه قد استأصل عاة من جسم الشاب حسين شوقى ، وكان
حسين كما وصفته جريدة «الاهرام» يومئذ زهرة بيت أمير الشعراء
النضرة الزاهية ، ثم يقول زكى مبارك عن القصيدة :

تلك قصيدة رائعة ختمها شوقى بهذه الأبيات :

يا أخى والذخر فى الدنيا أخ
حاضر الخير على الخير أعانا
لك عند ابنى ، أو عندى يد
لست ألوها ادركارا وصيانا
حسنت منى ومنه موقعا
فجعلنا حرزها الشكر الحسانا
هل ترى أنت ؟؟ فانى لم أجـد
كجميل الصنع بالشكر اقترانا
واذا الدنيا خلت من خير
وخلت من شاكر هانت هوانا
دفع الله « حسينا » فى يد
كيد الألفاف رفقا واحتضانا
لوتناولت الذى قد لمست
منه ما ردت حذارا وحنانا
جرحه كان قلبى ، يا ابا
لا أنبيه بجرحتى كيف كانا
لطف الله فعوفينا معا
وارتهدنا لك بالشكر لسانا

ثم ماذا ؟؟

ثم نرى أن للشاعر زكى مبارك قصيدة مهداة للشاعر أحمد شوقي
فى ديوان زكى مبارك الثانى ألحان الخلود قصيدة بعنوان ..
« دار الوجد والمجد »

والقصيدة طويلة يستهلها زكى مبارك بهذا البيت :

بأهل اسكندرية بعض ما بى من الأحزان للشعر المصاب
والقصيدة بتاريخ أول أغسطس ١٩٤١ ويقول زكى مبارك فى
مقدمة القصيدة :

« لو عاش شوقى الى أن شهد ما تعاني الاسكندرية من كوارث
وخطوب لواساها بأطايب الشعر البليغ فالى روحه فى دار الخلود
أهدى هذا القصيد .. »

بل أن الشاعر زكى مبارك عارض الشاعر أحمد شوقي فى
قصيدته :

مضى وليس به حراك لـكن يخف اذا رآك

وقصيدة زكى مبارك بعنوان عبادة الجبال

ويستهل الشاعر زكى مبارك قصيدته بقوله :

الشمس تشرق من ضيائك والبدر يطلع من سنائك

الى أن يقول :

ان عزنى دهرى وكادت لى الليالى فى هواك

زودتها صبر الكريم وحلمه حتى أراك

واذا قضى رب الصباة أن تصر على جفاك

وقضيت أيامي أسيرا لم أمتع بالفكاك
فالروح مرجعها إليك فهل يظللها رضاك ؟

وفى نهاية القصيدة يقول زكى مبارك : (١)

« ان هذه القصيدة من أقدم ما نظم الشاعر وقد عارض بها
قصيدة شوقي :

مضنى وليس به حراك لكن يخف اذا رآك
ومع أن شوقي لا يجارى فقد كانت هذه القصيدة فى ذلك الوقت
طرفة وتحفة لأن الشاعر كان فى بدايته الشعرية وقد عرضها على الشاعر
شوقي بعد أعوام طوال فأثنى عليها أطيّب الثناء » .

واذا انتقلنا الى كتاب آخر من كتب زكى مبارك نجد أن فى
كتاب « الأسمار والأحاديث » أحاديث وأحاديث عن الشاعر أحمد
شوقي .

يقول زكى مبارك (٢) « كان شوقي يخاف أن ينسأه أهل مصر
فهو الذى قال ان مصر بلد كل شىء فيه ينسى بعد حين فنظم شوقي
النونية المشهورة :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم فأسى لواديننا
فى هذه القصيدة كما يقول زكى مبارك مجد أحمد شوقي مصر
والنيل أعظم تمجيد اذ يقول :

« لم يجر للدهر اعذار ولا عرس
الا بأيامنا أو فى ليالينا

(١) القصيدة بتاريخ ١٩١٣ وهى منشورة فى ديوان زكى مبارك الحان الخلد
صفحة ٢٩٩ .

(٢) الأسمار والأحاديث صفحة ١٥٩ .

نحن اليواقيت خاض النار جوهرا
ولم يهن ييد التشتيت غالينا
ولا حوى السعد أطفى فى أعتته
مناجيادا ولا أرخى ميسادينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل
قبل القياصر دناها فراعيننا
ولم يضع حجرا بان على حجر
فى الأرض الا على آثار بائيننا
كان أهرام مصر حائط نهضت
به يد الدهر لا بنيان بائيننا »

والها تركنا كتب زكى مبارك المطبوعة لنعيش فى كتابات
زكى مبارك المبعثرة فى الجرائد والمجلات نجد أن زكى مبارك كتب
الكثير والكثير عن الشاعر أحمد شوقى ، فعلى صفحات مجلة أبولو
فى ديسمبر سنة ١٩٣٢ كتب زكى مبارك تحت عنوان :

« شوقى أمام التاريخ » كتب بحثا فريدا تحدث فيه عن الحكمة
المقصودة فى شعر شوقى وأيضا عن الحكمة الفطرية فى شعر شوقى .
ويرى زكى مبارك أن شوقى كان حكيما فى هذا البيت :

ان ملكت النفوس فابغ رضاها
فلها ثورة وفيها مضاء

كما يرى زكى مبارك ان شوقى فى هذا البيت :

من صعب الحياة بغير عقل
تورط فى حوادثها اندفاعا

وقع موقعا طبيعيا لم يشنه الحكمة ولا اختلاق أسباب القول
الحكيم ، وفى ديسمبر أيضا وعلى صفحات جريدة البلاغ سنة ١٩٣٢

وصف زكى مبارك الاحتفال الذى اقيم لتأبين أمير الشعراء أحمد شوقى ..

بل ان زكى مبارك كان أول من تطرق الى التربية والتعليم فى شعر شوقى ، فكتب على صفحات جريدة البلاغ فى أكتوبر سنة ١٩٣٤ يقول :

« ان شوقى كان يتطلع كثيرا الى مستقبل الأمة فى حياتها التهذيبية ، فكان يسوقه ذلك الى الحديث عن الأزهر والجامعة المصرية .. وكان له فى أكثر المواقف قصائد ومقطوعات ينحس فيها منحى الحكيم ، وان لم يقصد الى تحديد شئ من المذاهب والآراء التعليمية فكان شعره فى هذا الباب من عفو الفطرة وقد تجود الفطرة أحيانا بما تعجز عنه عقول الباحثين »

ولشوقى قصيدة مشهورة فى واجب المعلم يحفظها جميع التلاميذ لأن أساتذة اللغة العربية يسرهم جدا أن يعمل تلاميذهم بقول شوقى :

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا (١)

وفى سنة ١٩٤١ و ١٩٤٢ وعلى صفحات مجلة الرسالة نقد الشوقيات وفيها يقول زكى مبارك : ان أحمد شوقى طلب منه كتابة مقدمة للشوقيات سنة ١٩٢٥ ولكن زكى مبارك اعتذر لأنه كان يرى أن المقدمات توجب الترفق •

أما بعد ..

قلت فى حديثى ان الصلة بين زكى مبارك وشوقى توثقت عام ١٩٢٥ وقال زكى مبارك انها دامت نحو سنتين فما الذى حدث ؟

(١) ونص هذا المقال على صفحات هذا الكتاب تحت عنوان « التربية والتعليم » فى شعر شوقى •

يجيب زكى مبارك (٢) على هذا السؤال بقوله . « فسد ما بينى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات ، فانقطعت عن لقائه بمكتبه فى شارع جلال ، وانقطع هو أيضا فلم يعد يسأل عنى . . وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة فى داره ودعا إليها أساتذة الجامعة المصرية ولكنه تجاهل اسمى فلم يدعنى الى استقبال ذلك الشاعر الصناج .

وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقى :

فان تلك الهفوة لم تنقص تقديرى لشوقى . . شوقى الشاعر أما شوقى الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة ، وعدت لا أقابله حين ألقاه مصادفة الا بنفس الزاهد العيوف .

ثم يقول زكى مبارك :

لم أسىء يوما الى شوقى الشاعر ، والحمد لله ، وان كنت بعث حظى من شوقى الصديق .

وقد عانيت فى سبيل اعجابى بشعره نكبات عديدة ، فان ناسا كانوا يودون لو هدموه ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا الى هدمه شتى الشعاب وكان الرجل عظيم الشاعرية حقا وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين فعمادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان ، والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود ، وستظل الاخلاق والوطنية دعامة يستند اليها ضعفاء النفوس والعقول ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع الى أدعياء الوطنية والأخلاق . .

(١) مجلة أبولر عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ .

الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فلنترك لشوقي
أخلاقه ووطنيته ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ♦♦

وبعد ♦

ذكرتني كلمات زكى مبارك تلك بنعمة تتردد بين الحين والحين
عن المديح فى شعر شوقى ♦

وعن قصائد المديح فى شعر شوقى قال البعض : اذا رفعنا قصائد
المديح من شعر شوقى فماذا يبقى لنا ؟

ولكن لماذا نرفع قصائد المديح من شعر شوقى ؟

يقول زكى مبارك عن قصائد المديح فى اللغة العربية فى الجزء
الأول من كتابه البدائع الطبعة الثانية صفحة ٩٧ تحت عنوان « درس فى
الأدب » (١) : « انها كلمة ضخمة جدا ، كنت أحب أن أخرج منها
ولكن ما الحيلة وطلاب الأدب يحتاجون الى هذا الدرس أشد الاحتياج
وما كانوا يحتاجون اليه لو أن كتاب الصحف والمجلات لم يوحوا اليهم
بغض طائفة من الفنون الأدبية ، وكتاب الصحف يقدمون المصاعب بلا
حساب الى أساتذة المدارس الثانوية والعالية ، فمن السهل أن يتندر
كاتب بغمز العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ليصبح بغض تلك
العلوم شريعة عند الطلاب ، ومن السهل أن يعث كاتب فيزعم أن الشعر
العربى أكثره مديح ، وان المديح لم ينظم الا فى طلب المال ، لتصبح
قصائد المديح كلها لغوا عند طلبة الآداب ♦

ان أساتذة اليوم يعانون صعبا كثيرة فى توجيه الطلبة الى
الدراسات الجدية ، لأن هؤلاء الطلبة يرون الحياة الادبية تنال بأيسر
الجهد ويرون من الكتاب من يذيع صيته مع الجهل المطلق بأصول

(١) نشرت هذه الكلمة أول مرة على صفحات جريدة البلاغ ٢ نوفمبر سنة ١٩٣٤ تحت
عنوان : قصائد المديح فى اللغة العربية ♦

العربية ، ويرون من الشعراء من يهز كتفيه حين توجه اليه مؤاخذه صرفية
أو نحوية أو عروضية ، ثم يمضى مرفوع الرأس بين الناس •

لقد آن أن نعرف أن الأساتذة والصحفيين يشتركون في تكوين
الجيل الجديد ، وإن من الخير أن تقترب أوجه النظر في فهم الأصول
الأدبية ، والا فسيقع الطلبة بين تيارين متنافرين أشد التنافر وسيكون
لهذه الحيرة آصار خطيرة تصبح بعدها عقليات الطلاب موزعة بين القوة
والاحلال •

وقد يسأل القارئ عن الباعث لهذا الدرس •

وأجيب بأنى كنت أوصى فريقا من الطلبة بالمبادرة الى اقتناء
طائفة من المصنفات أعرف انها لن تطبع مرة ثانية لأن الناس هنا يغلب
عليهم الملل ، والكتاب الذى يقع فى أجزاء كثيرة يندر أن يطبع مرتين
فى جيل واحد ، والمكتبة عند الأديب كالمعمل عند العالم ، وطالب الأدب
يحتاج الى تكوين مكتبته رويدا رويدا حتى تغنيه بعض الاغناء عن
تضييع الوقت فى الاختلاف الى المكتبات العمومية ، فلما جاء اسم
(مختارات البارودى) وقف أحد الطلبة وقال « هذه المجموعة أكثرها
مديح » •

أيها القراء ، ان المديح ديوان العرب فان كنتم فى ريب من ذلك
فنأشفيكم من الشك بهذا الحديث •

لا أنكر أن كثيرا من الشعراء اتخذوا مدح الملوك والأمراء وسيلة
من وسائل العيش ، ولا أنكر أن كثيرا منهم وصل بذلك الى أسفل
درجات الاسفاف ، وأصرح بأن من النقائص النفسية أن يسخر الشعر
تسخيرا فى سبيل المنافع الزائلة ، وأعترف بأن هذه النقيصة تمس طرائف
كثيرة من شعراء اللغة العربية ، وإن كان من أسباب العزاء ان هذه
النقيصة لم يتفرد بها شعراء العرب ، فقد كان أكثر الشعراء فى

أوربا يعيشون عالة على الملوك والأمراء ولم يعرف منهم باستقلال
الشخصية الا القليل •

ولكنى - مع هذا - أقول بأن المديح ديوان العرب ، وهو الوثيقة
الباقية على ما كان فيهم من كرم الشمائل والخصال ، والمادحون قد
يكذبون ولكنهم فى كذبهم يصورون ما اصطلاح عليه معاصروهم من
ألوان المحاسن والعيوب ، فالشاعر الكاذب يقف كذبه عند حقيقة
ممدوحه ، ولكنه من الوجهة الاجتماعية صادق كل الصدق لأنه يصور
ما يشتهى ممدوحه أن يتصف به من كرائم الخلال وهل يمكن الارتياح
فى تصوير المكارم البدوية التى تمدح بها الشاعر حين قال :

ومستنجح تهوى مساقط رأسه

الى كل شخص فهو للسمع أصور (١)

يصنفه أنف من الريح بارد

ونكباء ليل من جمادى وصرصر (٢)

جيب الى كلب الكريم مناخه

بغض الى الكوماء والكلب أبصر (٣)

حضأت له نارى فأبصر ضوءها

وما كاد لولا حضأة النار يبصر (٤)

دعته بغير اسم هلم الى القرى	فأسرى يبيع الأرض والنار تزهى
فلما أضأت شخصه قلت مرحبا	هلم ، وللصالحين بالنار أبشروا
فجاء ومحمود القرى يستفزه	اليها وداعى الليل بالصبح يسفر

(١) اصور : من الصور بالتحريك وهو الميل الى الشيء بالوجه والعنق •

(٢) الأنف : من الريح أولها ، والنكباء : كل ريح تهب بين ريحين من الرياح

الأربع والصرصر : الريح القوية •

(٣) الكوماء : الناقة العظيمة السنام •

(٤) حضأ النار : أوقدها ورفها •

تأخرت حتى لم تكد تصطفى القرى
على أهله والحق لا يتأخر
وقمت بنصل السيف والبرك هاجد
بهازره والموت فى السيف ينظر (١)
فأعضضته الطولى سناما وخيرها
بلاء وخير الخير ما يتخير
فأوفضن عنها وهى ترغو حشاشة
بذى نفسها والسيف عريان أحمر (٢)
فبات رحاب جونة من لحامها
وفوها بما فى جوفها يتفرغر (٣)

وقد يمكن الشك فى هذه الصورة من حيث انطباقها على ذلك
المتمدح ، ولكن لا ريب فى أنها تمثل النبل فى الشمائل البدوية والباحث
الموفق الذى يستمد من الأدب شواهد لعلم النفس سيجد فيها صورة
صحيحة الاخلاق العربية ، وسيتمثل كيف يهيم الجائع فى الليل فيستنجح
لترد عليه الكلاب فيعرف أين يقيم الناس ، ثم يمضى حيث يرحب به
الكلب الذى ألف الضيافات ، وتنفر منه الجمال التى تعترف حتفها
بقدوم الضيف ، وسيتمثل أيضا اريحية ذلك البدوى الذى يرفع النار
ليهدى بها الضالون فى البداء ثم يتصور تلك الضجة المرحية التى
تفيض بها خيام الاعراب الاجواد وهم يستقبلون الضيف .

وأنت ، يا ابن المدينة يا مارد العصر ، ستقرأ هذا الشعر فتتمثل
فيه ألوانا من الاريحية العطرة لم يشتمل عليها اهابك فتعرف حيناً

(١) البرك بفتح البناء : الابل ، والبهازر جمع بهزرة على وزن قنطرة وهى الناقة
المطيمة .

(٢) أوفضت : تفرقت .

(٣) الرحاب الجونة : هى هنا القدور السود .

وتنكر أحيانا ، وأنت فى عرفانك وفكرانك مدين لهذا الشاعر الذى
أمتع وجدانك بهذه النفحات العطرة •

تترك البادية ، وشعر البادية، ثم تنتقل الى شعراء الحضارة وسنجد
عندهم أفانين من القول هى الصورة الباقية لما عرفوا من أزمات النفوس
والقلوب •

هل تعرفون قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية ؟

لقد حدثتكم عنها فى المذيع منذ أسابيع ، وفاتنى مع الأسف
أن أدلكم على موقف هو نموذج للتشفى ، والتشفى رذيلة خلقية
والكن ابحاث يحتاج الى شواهد للرذائل فانها تدرس كما تدرس
الفضائل ، ومن لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وبضدها تتميز الأشياء
انظروا كيف يتشفى ذلك الشاعر الفحل وقد تهدمت عمورية :

ماربع مية معمورا يطيف به	غيلان أبهى ربا من ربعا الخرب
ولا الخدود وان أدمين من خجل	أشهى الى ناظرى من خدها الترب
سماجة غنيت منا العيون بها	عن كل حسن بدا أو منظر عجب
وحسن منقلب تبدو عواقبه	جاءت بشاشته عن سوء منقلب

قد تقولون ان من القسوة أن يفرح الرجل لمدينة دكت حصونها،
وهدمت أبراجها وقوضت معالمها ، وصح فى أهلها قول ذلك الشاعر
الشامت :

لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على
بان بأهل ولم تغرب على عزب

وأجيب بأنى أستقبح من هذا ما تستقيحون ، ولكنى أقرر أن هذه
الصورة البشعة صورة الشماتة ، مما يجب تقييده ، والدلالة عليه ،
لأنها من الصور الانسانية التى يهتم بتحليلها العالم والفيلسوف وهذه

الصورة بالذات من نماذج القسوة الحربية ، والجيش الذى يهدم
مدينة معادية يقف على أطلالها وقفة الفرح والابتهاج ..

وصاحبنا أبو تمام جاء بصورة بارعة كل البراعة لشهوة الشماتة
والحققد وما ظنكم بمن يتمثل ربع مية وهو معمور يطيف به المحب
فيراه أقل جاذبية من منظر عمورية وهى خراب ، ويتمثل الخدود أدماها
الخجل فيراها أقل نضارة من خد عمورية وقد عفره التراب ..

هذا بغى فى عالم الأخلاق ، ولكنه نبل حين تذكر البطولة
والإبطال . تذكروا هذا ، ثم حدثونا : أنفعل بأية أبى تمام هذه لأنها
قصيدة مديح ؟ ان الحكمة ، وهى أنفس ما يقتنى الناس ، وقعت غير مرة
فى تلك القصيدة ، وهل يمكن فى عالم الفكر أن نستغنى عن هذين
البيتين :

عداك حر الثغور المستضامة عن برد الثغور وعن سلسالها الحصب
أجبتة معانا بالسيف منصبتا ولو أجبت بغير السيف لم تجب
وسيقول ناس من خلق الله : لقد ثقل البيت الأول بالجناس
فليعرفوا أننا نراه غاية فى خفة الروح ، وحسب الشاعر أن وفق الى
أن يقول :

(ولو أجبت بغير السيف لم تجب)

والبحترى الذى ضربت بمدائح الأمثال ، أترون تلك المدائح
مما يجب اهماله لأنها من صنوف التملق والرياء؟؟ لقد تأملت تلك
المدائح فوجدت فيها كثيرا من الصور النفسية التى يقف عندها من يهتم
بدرس دخائل النفوس ، وانظروا هذه الأبيات من داليتة فى مدح ابن
الزيات محمد بن عبد الملك :

واستوى الناس فالقريب قريب عنده والبعيد غير بعيد
لا يميل الهوى به حين يمضى الرأى بين المقلى والمودود

وسواء لديه أبناء اسما عيل في حكمه وأبناء هود
مستريح الأحشاء من كل ضغن بارد الصدر من غليل الحقود
ما رأيكم في هذا ؟ أترون سوء المنقلب في مصائر الناس يقع
الا بيلة الهوى في امضاء الرأي والتفرقة بين الأصدقاء والأعداء حين
تنصب الموازين ؟ وهل ترون متعة أفضل وأروح من راحة الأحشاء
من عنف الاضغان وبرد الصدور من غليل الأحقاد .

ان مثل هذا الشعر لا يمر بأسماع المدوحين بدون أن يترك في
نفوسهم شوقا الى العدل ، وحنينا الى سلامة الصدر من الغل فهو من
نفثات الاسلح ولو كره المتحذلقون .

وفي القصيدة نفسها قطعة وصفية ، وان كانت مدحا ، فقد وصف
« الكاتب » في شخص ابن الزيات وصفا دقيقا يعد نموذجا من نماذج
البيان . واليكم هذه الأبيات :

لتننت في الكتابة حتى	عطل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شـ	ك أمرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضـ	حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يـ	لقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطـ	س وما حملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى	عن اغاني مخارق وعقيد
حجج تخرس الالـ بالـ	ظ فرادى كالجواهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافـ	هجت شعر جرول وليد
حزن مستعمل الكلام اختيـ	وتجنبن ثلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدر	كن به غاية المراد البعيد

هذه قطعة وصفية وردت في قصيدة مدح : أترون فيها شيئا من
الفضول ؟ وكيف والبيت الأول وحده يفيدنا فائدة عظيمة ، فهو
يدلنا على أن الناس في عهد البحتری كانوا يفهمون أن هناك فنا انشائيا

اسمه « فن عبد الحميد » وفى ذلك رد على جماعة من المستشرقين كانوا يرون عبد الحميد من الشخصيات الخرافية وتبعهم فى ذلك أحد ادباء مصر فى العهد الحديث * ولكم أن تقولوا ان فى بعض هذه القطعة ما يجرى فى طريق المنح الفضفاض ، غير انكم لا تستطيعون أن تنكروا دقة الوصف فى هذين البيتين :

حزن مستعمل الكلام اختيارا وتجنبين ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدركـن به غاية المراد البعيد
ففيهما دستور لنظام الكلام البليغ ، وهما يصلحان للتمثيل فى أكثر مقامات الافصاح *

أما بعد .. فهذه اشارات تنفع من يدرس الأدب ليستخلص منه الحقائق النفسية والاجتماعية ، وسنتبعها بأمثالها ان اقتضى المقام ليعلم شباب هذا الجيل أن أسلافهم لم يكونوا عابثين وأن من الهزل نفسه ما يكشف عن مواطن هى عند الباحث جد صراح *

وبعد ، وقد أتعبتني أما بعد لقد نقلت كلمة زكى مبارك بكاملها عن قصائد المديح فى اللغة العربية لسبيين :

السبب الأول أنها رد مقنع وصائب يفهم كل من يحاول النيل من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى ، خاصة ان معظم الذين ينتقدون شعر شوقى الآن يهاجمون قصائد المديح فى شعر شوقى *

والسبب الثانى أن رأى زكى مبارك فى قصائد المديح فى اللغة العربية بدأ يتردد الآن على ألسنة البعض ، وكل منهم ينسبه الى نفسه ..

خبر اسود
خبر اسود
خبر اسود

ومعذرة فقد تعودت أن أهتف بهذه العبارة كما يهتف زكى مبارك حين ينزعج ، وقد كان زكى مبارك يقول انه يهتف كما يهتف الفلاح المصرى حين ينزعج • وان عبارات الفلاحين تسبق الى لسانه حين يشور غضبه •• وهل أنا الا فلاحه من سنتريس أثارتها السرقات الأدبية فهتفت : خير اسود ؟؟

بقيت كلمة • ، فكما تثار هذه الأيام المناقشات حول قصائد المديح فى شعر شوقى تثار أيضا قضية اماره الشعر ، ومن يخلف شوقى ؟؟

هذه القضية أثرت أيضا أيام زكى مبارك ؟؟ ففى الاحتفال الذى أقيم فى دار الاوبرا فى ديسمبر ١٩٣٢ لتأبين الشاعر أحمد شوقى كان من بين الحاضرين الشاعر فؤاد باشا الخطيب ، يقول زكى مبارك ان الخطيب سأل عنم يخلف شوقى فى اماره الشعر ؟

ويقول زكى مبارك : ان حياة شوقى كانت من أسباب خمول الشعراء المعاصرين ، فان شوقى فعل ما فعل أبو تمام الذى أحمل ثلثمائة شاعر فى حياته ، فلننتظر حتى يستبق الشعراء فى ميادين المجد من جديد ثم ننظر لمن يكون السبق ؟ ثم يستطرد زكى مبارك فيقول : على أن الخلافة فى الشعر أصبحت سنة لا تلائم سنن العصر الحديث فليظل كل شاعر خليفة نفسه ان شاء ، الى أن يوجد بينهم من يملك ما كان يملك شوقى من المال والفراغ والعبقريه ، فان هذه الثلاثة مجتمعة هى التى تمكن الشاعر من الامارة ، أما الشعراء الصعاليك (والصعلوك كلمة مدح وهى تقابل مانسميه اليوم باللص الشريف) هؤلاء الصعاليك الذين يجمعون بين الفقر والشرف ليس لهم ان يتساموا الى اماره الشعر لأن غنى القلوب أضعف من فقر الجيوب •• وكيف تنتظر ان يصير الشاعر أميرا فى أمته وهو ليس بأمير فى بيته ؟؟

ثم يقول زكى مبارك : ان أكثر شعرائنا يكدحون ليعيشوا فهم بالطبع أعجز من أن ينهضوا بتكاليف المجد المجلوب ••

ولامارة الشعر تكاليف أهمها ترضية النقاد وكبح أقلام المتحاملين
منهم ببعض الهدايا والولائم على نحو ما كان يفعل شوقي رحمه الله .
وهذه أثقال تقصم ظهور كثير من شعرائنا الفقراء الذين يفنون
أطيب أوقاتهم للسعى في طلب الرزق ، فليتغنوا ان شاءوا بما تغنى
به حافظ ابراهيم في ليالى سطيح ..

نيس الخمول بعار وتلك خير الليالى
قليلة القدر تخفى على امرىء ذى جلال

والآن .. بعد هذه المقدمة التى أرجو أن يكون الله قد وفقنى
فيها آن للقلم أن يستريح ولكن بعد أن يكتب التاريخ قبل أن يضيع
التاريخ ، ان زكى مبارك الذى كان أول من أنصف أحمد شوقي يبحث
عن ينصفه . يقول زكى مبارك : « حالى فى مصر حال عجيب فقد
عشت دهرى مظلوما ، وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أكافح فى بحر
الظلمات فما رحمنى راحم ولا أغاتنى مغيث

أنا محزون ، محزون ، محزون ..

كيف فاتنى ان انافق فى زمن لا يسود فيه غير أهل النفاق ؟؟
ويأس زكى مبارك من رحمة الناس فيطلب رحمة الله :
يا خائق النخيل والاعناب ، كيف سكبت الصهباء فى روحى ؟؟
ويا فاطر السموات كيف ترى حالى ؟ كيف علمتنى وعلمت
الحمائم النواح ؟
وبما الذى اعددت لتكريمى يوم القاك وقد سبحت بحمدك فوق
أفنان الجمال ؟ »

والآن رب فنان يرى الحقيقة فينصف زكى مبارك ..
أو رب مظلوم يرى نفسه فى زكى مبارك فينصف زكى مبارك ..
وليسترح القلم ، فله الأمر من قبل ومن بعد .. !!

كرامة زكى مبارك

	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32	33	34	35	36	37	38	39	40	41	42	43	44	45	46	47	48	49	50	51	52	53	54	55	56	57	58	59	60	61	62	63	64	65	66	67	68	69	70	71	72	73	74	75	76	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98	99	100
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23	24	25	26	27	28	29	30	31	32	33	34	35	36	37	38	39	40	41	42	43	44	45	46	47	48	49	50	51	52	53	54	55	56	57	58	59	60	61	62	63	64	65	66	67	68	69	70	71	72	73	74	75	76	77	78	79	80	81	82	83	84	85	86	87	88	89	90	91	92	93	94	95	96	97	98	99	100	

مقدمة الشوقيات

طلب أحمد شوقي من زكى مبارك مقدمة للشوقيات ، واعتذر
زكى مبارك عن كتابة المقدمة لأن المقدمات يراعى فيها التلطف كما قال
زكى مبارك •

ويقول زكى مبارك انه التقى بعد ذلك بالدكتور طه حسين وكان
جاره فى مصر الجديدة وقص عليه ما دار بينه وبين شوقي فقال طه
حسين : لو طلب شوقي منى ما طلب منك -- وأنا خصمه -- لا ستجبت
بلا تردد ، فشوقي فى رأى هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد
المتنبى فقلت « انى أرى أنه أشعر من المتنبى » •

فكان الدكتور طه : ما دام هذا رأيك فما الذى يمنع من أن تكتب
المقدمة ؟؟

فقلت : لأحتفظ بحقى فى نقده حين يخطئ

فقال الدكتور طه : شوقي لا يخطئ ••

فقلت (١) : اسمع يا سيدى الدكتور هذا البيت وهو من قصيدة
قالها شوقى بعد العودة من منفاه ♦

وكل مسافر سيؤوب يوما
إذا رزق السلامة والايابا

فقال الدكتور طه : هذا بيت جميل ♦

فقلت : ان سيدى الدكتور من ذرية الرسول، عليه الصلاة والسلام،
وفيه قال الله فى كتابه العزيز «وما علمناه الشعر وما ينبغي له» فالمفروض
يا سيدى الدكتور ان المسافر سيؤوب اذا رزق السلامة والاياب ، فليس
فى البيت معنى جديد فضحك الدكتور طه حسين ♦

وبعد .. متى نقد زكى مبارك الشوقيات ؟

كانت الجامعة المصرية أيام زكى مبارك تعد مسابقة للادب العربى
بالاشتراك مع وزارة المعارف أى وزارة التربية والتعليم ، لطلبة السنة
التوجيهية أى السنة النهائية بالمدارس الثانوية ♦

وفى هذه الدراسة قدمت مؤلفات لزكى مبارك وأحمد حسن
الزيات وجبران خليل جبران وغيرهم وكان زكى مبارك يدرس هذه
المؤلفات .. وينقدها على صفحات مجلة الرسالة ♦

كان ضمن المقرر على الطلبة فى المسابقة « الشوقيات » ويومها
نقد زكى مبارك الشوقيات فى مجلة الرسالة قائلا : ان الغرض من هذه
الدراسة توجيه لطلبة السنة النهائية بالمدارس الثانوية على أن يكون
مفهوما أنها موجهة أيضا الى جميع القراء ♦

وفى دراسته يقول زكى مبارك ان فى مكتبته نسخة نفيسة جدا
من الشوقيات لأنها مصححة بقلم « شوقى » فى مواضع كثيرة ♦ وهذه
النسخة موجودة عندى ..، والآن مع زكى مبارك والشوقيات ♦

الشوقيات

الجزء الأول

يبدأ الجزء الأول من « الشوقيات » وبه مقدمة الدكتور هيكل، وكان في النية أن أنظر في تلك المقدمة نظرة نقدية ، على نحو ما صنعت بالمقدمة التي صدر بها ديوان البارودي ، ولكنني لم أجد المقدمة المنشودة في النسخة التي بين يدي ، فأين ذهبت ؟؟ وكيف رضيت أن تظل نسختي عاطلة من تلك المقدمة العصماء ؟؟

لذلك تاريخ يجب تسجيله قبل أن يضع ، فقد تأتي أيام نجهل فيها مآثر الشوقيات وما مر بها من ظروف ، وللتاريخ الأدبي علينا حقوق ، فما ذلك التاريخ ؟

النسخة التي بين يدي ناقصة ، ولكنها نفيسة جدا لأنها على نقصها مصححة بقلم « شوقي » في مواضع كثيرة ، وليس ذلك بالمغرم القليل وأواجه ذلك التاريخ فأقول :

* في كتاب « زكي مبارك ونقد الشعر » وهو تحت الطبع الآن نقد زكي مبارك ديوان البارودي كما نقد أيضا مقدمة ديوان البارودي .

« كانت الصلة قوية بينى وبين « شوقي » فى سنة ١٩٢٥ وكان
شرع فى طبع «الشوقيات» فشاء لطفه وكرمه أن يدعونى لكتابة المقدمة
بعبارة لا أزال أذكر نصها بالحرف :

« سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة
أدبية » (١) ..

وبعد أيام تلتطف فأهدى ما طبع من الجزء الأول مصححا بخطه
الجميل ، لأكتب تقديمه ما أريد ..

ورجعت الى نفسى فتذكرت ان المقدمات يلتزم فيها الترفق ، وذلك
ما يجعل بكاتب مشغول بالنقد الأدبى مع شاعر لا يزال فى الميدان،
وأسرعت فكتبت اليه خطابا قلت فيه :

انى لا أستطيع كتابة المقدمة التى ينتظرها أمير الشعراء ، لأنى
أخشى أن أقول فيها كلاما يصدنى عن نقده ان رأيت فى أشعاره المقبلة
ما يوجب الانتقاد وهو - بارك الله فى عمره - لا يكف عن مساورة
الشعر والخيال فى صباح أو مساء وفى عصرية اليوم الذى كتبت فيه
ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع ، فغضب أشد
الغضب وقال : « ليتك استشرتني قبل أن تصنع ما صنعت .. ألا تعرف
أنك أضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ؟؟ لو طلب «شوقي»
منى ما طلب منك - وانا خصمه - لاستجبت بلا تردد ، فشوقي فى رأى
هو أعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبى » .

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من « الشوقيات » وبه مقدمة

(١) الرسالة : ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤١ العدد ٤٤٣ .

الدكتور هيكل ونادى المنادى بوجود الاحتفال بتكريم أمير الشعراء
احتفالاً يشترك فيه من يستطيع من ادباء الأمة العربية ، وبرعاية الزعيم
سعد زغلول •

ثم يقام الحفل بدار الأوبرا الملكية فى التاسع والعشرين من نيسان
١٩٢٧ ويقول الشعراء والخطباء فى « شوقى » ما يقولون باطناب
ويلتفت الدكتور هيكل كاتب مقدمة (الشوقيات) فىرى من الواجب
اصدار عدد خاص من (السياسة الاسبوعية) لتكريم شوقى • ويدعى
للاشتراك فى تحرير ذلك العدد الخاص رجال كان فيهم كاتب هذا
الحديث • ويرى « شوقى » من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد
فيشير بحذف مقالات كان فيها مقالى • • ألم أستكبر عليه فأرفض كتابة
مقدمة « للشوقيات »

« كانت السياسة الاسبوعية » فى تلك الأيام توجه التيار الادبى
فى مصر وفى سائر البلاد العربية وكان اصدار عدد خاص عن شاعر
من مثل تلك المجلة يعد تزكية ادبية تفوق الوصف ، ولكن « شوقى »
لم يرتح كل الارتياح الى ذلك العدد الخاص ، فقد ظهرت عبارات
تغض كثيرا أو قليلا من أمير الشعراء •

اخلاق شاعر الأخلاق (١) :

غضب شوقى على ذلك العدد من السياسة الاسبوعية وكان شوقى
إذا غضب غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب ، فمضى أولئك المرتزقة
يقولون فى الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الورقات المتسمة زورا
بوسم الجرائد والمجلات فكتب الدكتور هيكل فى « السياسة الاسبوعية »
مقاله المأثور :

« أخلاق شاعر الأخلاق » وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين

(١) عنوان مقال الدكتور هيكل باشا •

« شوقى » وتوعده توعدا أليما ، فقد نص على أن « شوقى » لن يظفر منه مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال ..

ورأيت أن أرجع الى الدكتور طه أستفتيه ، فابتسم وقال : كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكल نو كتبت مقدمة « الشوقيات » ثم ماذا ؟؟ ثم ذهب « شوقى » الذى قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق ان ينصب لها ميزان ، وبقي « شوقى » الشاعر الذى رثاه المازنى يوم مات ، بعد أن قال فيه ما قال ..

دسائس صحفية :

فسد ما بينى وبين شوقى بعد اعتذارى عن كتابة مقدمة الشوقيات فانقطعت عن لقائه بمكتبه فى شارع جلال ، وانقطع هو أيضا فلم يعد يسأل عنى .. وجاء طاغور أمير شعراء الهند فأقام له حفلة فى داره دعا إليها أساتذة الجامعة المصرية ، ولكنه تجاهل اسمى فلم يدعنى الى استقبال ذلك الشاعر الصناج .. وسمع بذلك الحوادث جماعة من الصحفيين فحرضونى على ايداء شوقى بمقال أو مقالين ، وزعموا ان مال شوقى لا ينال بغير الهجاء ..

وما لى أنا ومال شوقى أو غير شوقى ؟؟

هل منحنا الله نعمة القلم الصوال .. لنبتز الأموال ؟؟

ان شوقى حرمنى فرصة التمتع بصوت طاغور وما صوت طاغور بالقياس الى الموسيقى الشوقية ؟ شوقى شاعر مصر ، وهو على حجوده انسان واستاذ الأساتذة فى ميدان القصيدة فمن الواجب أن أحتفظ عهده الى أن يموت ، وقد مات قبل أن يسمع كلمة نائية من قلمى أو لسانى ..

فعليك يا شاعرنا العظيم ألف تحية وألف سلام وحفظ الله عهدك بين أقطاب الأدب الرفيع .

كيف يدرس شعر شوقي :

الغرض من هذه الدراسة هو توجيه من سيتبارون فى مسابقة
الأدب العربى ، فماذا نقول فى توجيه أولئك الشبان ؟؟

أهم قصيدة فى الجزء الاول من الشوقيات هى قصيدة « نهج
البردة » ولهذه القصيدة تاريخ يجدونه فى الطبعة الثانية من كتاب
« الموازنة بين الشعراء » وما أريد أن أغتنم الفرصة فأعلن عن كتابى
فى مجلة الرسالة بالمجان وانما هى فرصة للدارسين الأعزاء فان درسوا
ما كتبت عن تلك القصيدة فى ذلك الكتاب فسيقرءون أبحاثا تجوز
بهم الصراط فى أمان ..

وهناك مرجع ينفعهم فى هذا الموضوع الدقيق وهو كتاب المدائح
النبوية فى الأدب العربى وفى ذلك الكتاب تفصيل واف لتطور
المدائح النبوية من عهد حسان الى عهد شوقي ..

فقد بدأ من « التشيع » ثم صار بلاغيا يسجل فنون « علم
البديع » ثم عاد مدحا صرفا على لسان البارودى وشوقى والحملوى ،
ومع تفاوت فى أسلوب الأداء (١) .

أما القصيدة الثانية فهى الاندلس الجديدة ويجب حفظها عن ظهر
قلب ، لأنها فيما نعتقد أعظم قصيدة جاد بها الشعر الحديث فى تصوير
التعاطف بين الأمم الاسلامية :

مقدونيا - والمسلمون عشيرة كيف الخؤولة فيك والأعمام
أترينهم هانوا ، وكان بعزمهم وعلوهم يتخايل الاسلام
اذ أنت ناب الليث كل كتيبة طلعت عليك فريسة وطعام

وقد سما شوقى بهذه القصيدة سمو لا يدرك مداه غير من يعرف
أسرار الشعر وسرائر القلوب . ولهذه القصيدة أهمية فى تاريخ شاعرية

(١) انظر همزية شوقى فى مدح الرسول ولاحظ تأثره بهمزية البوصيرى .

شوقي ، فقد كادت آراء النقاد تجمع على أن عبقرية شوقي لم تنفتح
الا بعد نفيه في أيام الحرب الماضية ، وهو قد نظم هذه القصيدة في عام
١٩١٢ قبل النفي بأعوام ..

ثم تجيء قصيدة « انتحار طالب » وهي قصيدة طوقت بها وزارة
المعارف بأطواق من حديد ، فالطالب المنتحر :

ناشئ في الورد من أيامه حبه الله أبالورد عشر ؟؟
سدد السهم الى صدر الصبا ورماه في حواشيه الفرر
يند لا تعرف الشر ولا .. خلقت الا لتلهو بالأكـر
ولكن كيف صنع الطالب بنفسه ذلك الصنيع الممقوت ؟؟

قال ناس : صرعة من قدر وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب : بل من جنة ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون : جفاء راعه من أب أغلظ قلبا من حجر
وامتحان صعبته وطأة شدها في العلم أستاذ نكر
لا أرى الا نظاما فاسدا فكك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياه - وما أكثرها ذلك الكاره في غض العسر

وتلك قصيدة نادرة ، فليتفهمها الطلبة وليحفظوها عن ظهر قلب
.. فموضوعها يكاد يتجدد في كل يوم وهي تنهى عن آفة من آفات
الضعف في هذا الجيل .

التفنى بالآثار المصرية :

فاتحة الشوقيات هي قصيدة شوقي عن كبار الحوادث في وادي
النيل . هذه القصيدة تصحح غلطة وقع فيها صاحب « الموازنة بين
الشعراء » فقد نص على أن اسماعيل صبرى هو أول شاعر سن مذاهب
القول في وصف آثار الفراعنة بعد أن ثار الجدل بينه وبين خليل
مطران في سنة ١٩٠٤ ، ثم تشاء المقادير أن يعرف المؤلف أن «شوقي»

سبق صبرى فى التنفى بتلك الآثار الخوالد فى القصيد الذى التاه
فى مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٩٤ •

فما ذلك القصيد ؟؟ هو قصيد طويل سجل به الشاعر ما كان لمصر
من تحليق واسفاف فى أعوام تزيد على خمسة آلاف ••

وهنا يظهر العجب العجاب فقد كان شوقى ناشئا يوم نظم فى ذلك
التاريخ ولكنه مع ذلك عرف كيف يهتف :

قل لبان بنى فساد فعالى لم يجز مصر فى الزمان بناء
ليس فى الممكنات أن تنقل الجبال شاما وأن تنال السماء
أجفل الجن عن عزائم فرعو ن ودانت لبأسها الاناء
شاد ما لم يشهد زمان ولا أنشأ عصر ولا بنى بناء
هيكل تنثر الديانات فيه فهى والناس والقرون هباء
وقبور تحط فيها الليالى ويوارى الاصباح والامساء

وهذه الباكورة كانت البشير بأن ستكون لشوقى مكانة فى وصف
آثار الفراعين ••

لقد طوفت بأقطار كثيرة من الشرق والغرب فما رأت عيني مثل
ما ترك الفراعين بوادى النيل •

الحرب العثمانية اليونانية :

هى حرب وقعت فى عهد السلطان عبد الحميد ولم يذكر الديوان
تاريخها بالضبط •• ولا اتسع وقتى لتحقيق ذلك التاريخ ، وأين من
يصدق أنى أكتب هذه الصفحات وأنا فى قطار الصعيد ؟؟

وهى احدى قصيدتين اعترف بهما حافظ بشاعرية شوقى ، ولم
يكن حافظ يعترف لشوقى بشيء ولا كان شوقى يعترف لحافظ بشيء
•• وآه ثم آه من تحاسد النظراء ، اعترف حافظ بقيمة البائية :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله إيان تضرب
اعترف حافظ بقيمة هذه البائية فى كتاب ليالى سطيح ولا أعرف
الآن موقع هذا الاعتراف من ذلك الكتاب فعهدى بقراءته يرجع الى
زمن بعيد •

أما القصيدة الثانية فهى بائية شوقى فى «توت عنخ آمون» وكان
حافظ يحفظ هذه البائية وقد انشدها مرات ، وكان له فى
انشادها ترجيع معروف ••

كانت البائية الأولى فتنة العصر الذى ظهرت فيه ، وكان جمهور
الأدباء يحفظها عن ظهر قلب ، وراويها فى هذا اليوم هو الاستاذ محمد
سعيد لطفى ، وله بها هيام وغرام ، فهو لينشدها كلما لاحت فرصة
الحديث عن شوقى ••

اقرأوا هذه البائية « يا شبا باليوم » لتعرفوا كيف نستهن بما
ينظم الأطفال من الشعر فى هذه السنين العجاف ••

اقرأوا هذه البائية واحفظوها ، فهى من آيات الشعر الحديث ••
وما السيف الا آية الملك فى السورى

وما الأمر الا للذى يتغلب
فأدب به القوم الطعان فانه

لنعم المربى للطفاة المؤدب
تمام خطوب الملك ان بات ساهرا

وان هو نام استيقظت تتألب

تكيل انقرة وعزل الاستانه :

تلك قصيدة كافية تسجل انحسار الخلافة عن استامبول ، بعد
حوادث تشيب ناصية التاريخ وتصور عزة الترك بانقرة فى عهدهم
الجديد •

وفى هذه القصيدة توجع شوقى لعزل استامبول واعتذر عن
أبنائها الأماجد ، فما نقلوا مركز الملك الى انقره الا رعاية لخطه من
خطط الدفاع عن البلاد ..

لو أن سلطان الجمال مخلص	لمليحه لعذت من عذلك
خلعوك من سلطانهم فسلبيهم	أمن القلوب وملكها خلعوك
لا يحزنك من حماك خطة	كانت هي المثلى وان ساءوك
أيقال فتیان الحمى بك قصرُوا	أم ضيعوا الحرمات أم خانوك؟
وهم الخفاف اليك كالانصار اذ	قل التصير وعز من يفديك
المشترك بما لهم ودمائهم	حين الشيوخ بجبة باعوك
هدروا دماء الذائدين عن الحمى	بلسان مفتى النار لا مفتيك
شربوا على سر العدو وغردوا	كالبوم خلف جداول المدكوك
لو كنت (مكة) عندهم لرأيتهم	كمحمد ورفيقه هجروك

وهو يشير فى هذه الأبيات الى ما وقع من رجال الدين فى
استامبول ، فقد أفتوا بوجوب مقاتلة الكمالين طاعة للحلفاء ، وكانوا
احتلوا استامبول ولم يجلوا عنها بعد ذلك طائعين وانما أكرهتهم
السيوف الكمالية على الجلاء ..

والشاعر يجعل انتقال اتاتورك ورفاقه من استامبول الى انقره
شبيها بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقه من مكة الى المدينة
.. وهو تشبيه على جانب من الجمال ..

انتصار الاتراك فى الحرب السياسية :

ثم ياتفت القارئ مرة ثانية فيرى شوقى يرجع الى تمجيد اتاتورك
من جديد بقصيدة بائية على غرار بائية ابن تمام فى فتح عمورية ، وقد
تلاعب فيها بالمعانى وجمال فى فنون القول كل مجال ..

كان عصمت باشا مندوب الاتراك فى مؤتمر لوزان ، وكان رجلا
ضعيف السمع لا يصل اليه الصوت الا بالصياح ، فجعله شوقى :
أصم يسمع سر الكائدين له ولا يضيق بجهر المحقق الصخب
والذى يقرأ أخبار الحرب فى هذه الأيام يرى الانسحاب يوصف
بالجمال وقد سبق شوقى كفه هذه الأيام فقال فى انسحاب اليونان :
جد الفرار فألقى كل معتقل قناته وتخلّى كل محتقب
يا حسن ما انسحبوا فى منطق عجب
تدعى الهزيمة فيه حسن منسحب

وكان ساسة اليونان منوا شعبهم بمملكة جديدة فى بلاد الترك
فقال شوقى :

هم حسنوا للسواد البله مملكة من لبدة الليث أو من غيلة الأشب
وانشأوا نزهة للجيش قاتلة ومن تنزه فى الآجام لم يؤب
وكان الدكتور طه حسين كتب مقالا فى جريدة الاتحاد اراد من
المقال التهوين من شأن هذه البائية ، فهل ينظر فيها من جديد ليعرف
أنه كان من المخطئين ؟؟

رحالة الشرق :

وهذه قصيدة عينية قالها شوقى فى تكريم الرحالة محمد حسنين
باشا . كان استكشف واحتين فى الصحراء اللوية ، ويضيق المقام
عن شرح ما فى هذه القصيدة من أغراض ، ومع هذا لا يفوتنى أن أدل
الدارس على سجية شوقى فى الجنوح الى التأمل العميق من حين الى
حين وهل وازن أحد بين الصحراء والحياة على نحو ما وازن شوقى
بينهما اذ يقول .

كم فى الحياة من الصحراء من شبه
كلتاها فى مفاجاة الفتى شرع
وراء كل سبيل فيهما قدر
لا تعلم النفس ما يأتى وما يدع
فلست تدري وان كنت الحريص متى
تهب ريحاها أو يطلع السبع
ولست تأنس عند الصحو فاجئة
من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدري وان قدرت مجتهدا
متى تحط رحالا أو متى تضع
ولست تملك من أمر الدليل سوى
أن الدليل وان أرداك متبسم

والبيت الأخير من وثبات الخيال ♦

أما بعد فهذه كلمات سريعة بددت بها ساعات من الطريق بين
القاهرة والمنيا ولن أنظر فيها بعد ذلك ♦ فليبلغها القارئ على هواه
بالحمد أو باللام وهل يكلف الله نفسا الا وسعها ؟
أثيت على شوقى مرات وأنا أراجع الشوقيات ثم لته مرة أو
مرتين ♦♦

لقد أشرف بنفسه على طبع الجزء الأول والثانى فما كان ضره لو
أرخ جميع القصائد ونص على جميع المناسبات ليتمثل القارئ صور
البواعث الروحية والسياسية ؟؟

قصائد شوقى تمثل معضلات عصره أصدق تمثيل ، ولكن القراء
لن يروها خليفة بهذا الوصف الا اذا شرحت مناسباتها بأسهاب فأين
من ينهض بهذا الواجب قبل أن تنسى تلك المناسبات ؟؟

ثم أقول ان الشوقيات زادت اينانى بمجد بلادى فقد امتطيت
القطار وأنا متخوف من ضجر الطريق ، وما هى الا لحظة حتى كانت
الشوقيات وحيا يهتف بأن كل بقعة من أرض مصر معهد مجد أو
محراب فنون ..

ليت شعرى والدهر حرب بينه وأياديه عندهم أفياء
مالذى داخل الليالى منا فى صبانا وليالى دهاء

فى هذه اللحظة أشعر بالندم على أنى ركبتم القطار السريع ، ولم
أركب القطار القشاش وهو القطار الذى يقف على جميع المحطات ،
ويباع فيه القصص والبرتقال بسخاء ؟؟ وما أسعد من يمر بالقطار
على جميع المحطات المصرية وقد بلغ عندها (٥٣٣) .

يمر القطار السريع على قرى الصعيد مرور الطيف فلا يكاد المسافر
يتذكر أن كل قرية من تلك القرى فيها أرواح وقلوب ولأهلها تاريخ
وتواريخ .

هذه منارة تدل على مسجد ، فأين من يذكر ان مساجد الصعيد
كانت لها أياد بيض فى حفظ العلوم الانسانية ؟؟

ذلك فلاح ينجى الأرض مناجاة الحبيب للحبيب .. فأين من
يذكر أن الفلاح المصرى قد يكون أقرب الناس من الله ، ثم لا تمنعه
تقواه من انتهاب شبر أو فتر من أرض الجيران ؟؟

وهل يستطيع أحد أن يقنع الفلاح المصرى بأن الجنة أجمل
من أرضه العالية ؟؟

ذنبك مغفور — أيها الفلاح — فاعص الله كيف شئت فى انتهاب
أرض جيرانك فذلك شاهد بانك تقدر نعمة الله على أهل هذه
البلاد .

نم ماذا ؟ ثم أذكر ان هذا الكلام يخرج عن موضوع هذا
المقال . واني سأطيل وسوف أصل الى المنيا بعد لحظات وان التماذي
في الثرثرة أمر غير مقبول :

وما ذنبي اذا فتننتي بلادي ؟؟

أمن الأثم هتافي بالجمال في بلاد كل ما فيها جميل
لو بعيني نظر اللاحى وجمال. لراى الفتننة في كل سبيل

حار الناس في تعليل التفاوت بين شوقي وحافظ ، لعرفانهم بأن
«حافظ» كان أذكى من شوقي بمراحل طوال ، فهل آن لهم أن يعرفوا ان
«شوقي» تقدم لأنه كان من أكابر الملاك في هذه البلاد ، وان حافظا
تخلف لأنه بشهادة نفسه لم يملك من أرض مصر نصف فدان ؟؟

ما أنا وما هذا الكلام ؟؟ هي ثرثرة لاتليق برجل من الله عليه
بركوب قطار الصعيد وهو قطار يساير نهرا بين جبلين ..

وتلك حال توحى باعزاز السرعة والقسوة واللين ، ومن هذه
العناصر الثلاثة يتكون جسر الخلاص ؟؟

أحبك - يا وطنى - أحبك أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى
كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ..

لم يعان أحد من الظلم في وطنه مثل ما عانيت فما زادنى ذلك
الظلم الا عرفانا بجمال وطنى ، وهل رأيتم جيلا غير ظلام ؟؟

قطار الصعيد في ١٧/١٢/١٩٤١

زكى مبارك

الشوقيات

الجزء الثاني

ومن أهم أبواب هذا الجزء باب النسيب ، ومن أهم قصائده قصيدة (يانائع الطلح) ولن أتكلم عن هذه القصيدة (١) ولا عن ذلك الباب لأنى أكره أن أنشر بحثا نشرته من قبل وأنا تكلمت بالتفصيل عن نونية شوقى فى الطبعة الثانية من كتاب «الموازنة بين الشعراء» (٢) وتكلمت عن غزليات شوقى (٣) بالتفصيل فى الطبعة الثانية من كتاب (البدائع)

تاريخ القصائد :

شوقى لم يؤرخ قصائده جميعا ولو أنه فعل لأغفى النقد الأدبى من التعب فى تعقب أسباب الضعف والقوة فى شاعريته العصماء .. والظاهر أن وضوح التواريخ أمام عينيه أفهمه أن الناس لن يحتاجوا عند النظر فى قصائده الى تاريخ والأمر كان كذلك بالفعل فقد كنت

(١) الرسالة الأعداد ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٤٢ .

(٢) الكلام عن قصيدة يانائع الطلح فى هذا الكتاب .

(٣) الكلام عن غزليات شوقى فى هذا الكتاب

أعرف المناسبات التي قيلت فيها تلك القصائد ثم طغت الشواغل فأنستني
ما لم أكن أحب أن أنساه ، ولعل أبناء شوقي يلاحظون هذا المعنى
فيذكرون جميع التواريخ في الطبعة الثانية ..

أقدم القصائد المؤرخة قصيدة (طابع البريد) في العاشر من
سبتمبر سنة ١٩٠٠ وتليها أبياته في وصف معرض الأزهار والثمار في
باريس سنة ١٩٠١ ثم وصف المرقص الذي أقيم في قصر عابدين
سنة ١٩٠٣ والمرقص الذي تلاه في سنة ١٩٠٤ .

وهذه القصائد لا ترتقى الى منزلة القصائد التي نظمها بعد أن
استحصدت قواه الشعرية ولكنها مع ذلك تشهد بأن «شوقي» فطر منذ
البداية على اجادة الغناء .

من كل فاكهة زوجان :

في هذا الجزء نرى قصائد فرنسية وقصائد تركية ومصرية وقصائد
سورية ولبنانية قصائد وصف بها عواطفه الصحاح نحو فرنسا وتركيا
ومصر وسورية ولبنان قصائد تقيم أصح البراهين على أن «شوقي» أحب
جميع ما عرف من الناس ، وهناك ظاهرة يجب النص على تفسيرها
الصحيح وهي افراط شوقي في أخريات أيامه على الاشادة بمحاسن
الشام ولبنان فما تفسير هذه الظاهرة النفسية ؟؟

كان شوقي لا يحب الا من يروى شعره وكان هواه مقصورا
على من يؤمن بأنه أشعر الناس ، وقد وجد في سورية ولبنان جماعات
كثيرة تعرف من سرائر شعره أكثر مما يعرف ؟ وتذهب في تمجيده الى
آفاق لا يطيف بها الخيال ..

وهل أسرف اذا قلت ان تلتطف شوقي في الحديث عن المسيحية
يرجع الى مراعاة عشاق شعره من النصارى العرب ؟؟

الاسلام يحكم بكفر من يتناول على المسيح ولكنه لا يفرض
على المسلم أن يتغنى بمجد المسيح فكيف جاز لشوقي أن يجعل الثناء
على المسيحية من أغراضه الشعرية ؟؟

السبب هو ما أقول ، هو ان شوقي وجد في نصارى لبنان
رجالا يؤمنون بأدبه الرفيع فجازاهم وفاء بوفاء ، وقال في المسيح
كلما يقره أدب القرآن ، وهل وصف المسيح بأفضل مما وصفه
القرآن ؟

كان شوقي ينعطف من لبنان الى سورية بروحانية قليلة الأمثال:

خلفت لبنان جنات النعيم وما	نبئت ان طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت الى فيحاء وارقة	فيها الندى وبها «طى» «وشيان»
نزلت فيها بفتيان جحاجة	آباؤهم في شباب الدهر غسان
بيض الأسرة ياق فيهم صيد	من «عيدشمس» وان لم تبق تيجان
يا فتية الشام شكرا لا انقضاء له	لو أن احسانكم يجزيه شكران
ما فوق راحتكم يوم السماح يد	ولا كأوطانكم في البشر أوطان

فما هو الكرم الذي أضفاه الشاميون على شوقي وكان أغنى
الناس عن سخاء الأسخياء ؟؟ هو الكرم الذي وصفه في قصيدة ثانية
حين قال :

رواة قصائدى فاعجب لشعر بكل محلة يرويه خلق
والواضح مما قرأت وما سمعت ان «شوقي» لم يذق طعم النعيم
الا في سورية ولبنان فقد كان في أبناء تلك البلاد الجميلة من يسمع
شوقي آلاف الأبيات من شعره في اليوم الواحد ، وكان فيهم من
يسمعه قصائد غابت عن وعيه الدقيق ، وكان شوقي يتلقى تلك التحيات
بالبكاء ..

ولبكائه هنالك صورة يتحدث عنها الشاعر أمين نخله ان صحت
رواية الأستاذ صلاح الاسير

وحب شوقي للشام هو الذى جعل قوافله أموية :

بنو أمية للأنباء ما فتحوا	وللاحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم	فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس فى أطراف دولتها	فى كل ناحية ملك وسلطان
يا ويح قلبى مهما اتاب أرسهم	سرى به الهم أوعادته أشجان
بالأمس قمت على الزهراء أندبهم	واليوم دمعى على الفيحاء هتان
فى الأرض منهم سماوات وألوية	ونيرات « وأنواء » وعقبان
معادن العز قد مال الرغام بهم	لوهان فى تربه الابريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت طليطلة	ولازمت بينى العباس بفدان
مررت بالمسجد المحزون أسأله	هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت	على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان فى منارته	إذا تعالى ولا الأذان أذان

ومع هذا لم ينس شوقي حق العلويين فتحدث عنهم فى مواطن
كثيرة أشهرها الموطن الذى اختلقه اختلاقا فى مسرحية مجنون ليلى
ان صدقنا افتراض الدكتور طه حسين •

وخلاصة القول ان عواطف شوقي متنوعة الأصول والفروع فقد
سما بنفسه عن الشعوية ورأى أن يكون شعره ميراث الشرق على ما فيه
من اختلاف النوازع والميول :

كان شعري الغناء فى فرح الشر	ق وكان العزاء فى أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر	ح وأن تلتقى على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح	لمس الشرق جنبه فى عمانه
وعلينا كما عليكم حديد	تتنزى الليوث فى قضبانه
نحن فى الفقه بالديار سواء	كلنا مشفق على أوطانه

مصرية شوقى :

وبرغم التنوع فى العواطف كان شوقى شاعر القومية المصرية
ولعله أول شاعر جعل من همه وصف مصر فى أحلامها وأهوائها
وأمانيتها بما هى له أهل وأول شاعر ذاق ما فى مصر من قرارة النعيم
والبؤس وان كان شفى ما فى نفسه حين قال فى غمز الحكومة التى
سمحت بنفيه فى أوائل الحرب الماضية •

« وطن توالى عليه حكومات وحكومات تقول فتجد وتعمل
فتهزل ولا تحسن من ضروب الإصلاح الا أن تولى وتعزل » •

حكاية المستر روزفلت :

هو رئيس أسبق للولايات المتحدة وكان قد زار مصر فى سنة
١٩١١ أو قريبا من ذلك فما يتسع وقتى لتحديد التاريخ •

والظاهر أن روزفلت السابق فاه عند زيارته للسودان بكلام لا
يرتضيه المصريون فرد عليه الشيخ على يوسف فى جريدة المؤيد بمقال
كان آية فى البيان ثم اندفع شوقى فحاوره بأسلوب غير ذلك الأسلوب،
اندفع فحدثه عن عظمة مصر المثلة فى قصر أنس الوجود ••

أيها المنتهى بأسوان دارا
كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع
لا تحاول من آية الدهر غضا

وهى قصيدة نفسية المعانى وهى من عيون الشوقيات •

قصيدة النيل :

هى قافية فى ١٥٣ بيتا أرسلها المستشرق مرجسوليوت مع
مقدمة ثرية قلقة الاسجاع ، قصيدة يرجع عهدها فيما افترض الى

أيام حرب البلقان فهي اذن من غرر شعره القديم ، وليس من العدل أن نجارى الأستاذ المازنى فى القول بأن شاعرية شوقى لم تتفتح الا بعد النفى فأنا أرى أن قصيدة الأندلس الجديدة التى قالها بمناسبة سقوط ادرنه فى سنة ١٩١٢ لا تقل جودة عن أبرع ما جاد به خاطره فى النفى وبعد النفى، والحق أن «شوقى» نضج فى وقت مبكر فقصيدته التى قالها فى المؤتمر الشرقى بمدينة جنيف سنة ١٨٩٤ تعد من القصائد الجياد وهى الباكورة التى بشرت بأن سيكون له مقام بين شعراء القصص التاريخى ..

ونرجع الى قصيدة النيل فنقول :

أراد شوقى بهذه القصيدة تجسيد العنصرية المصرية ممثلة فى النيل السعيد ، وقد رحب الشاعر بالألفاظ الجارية على ألسنة الفلاحين فى أعمال لسقى والغرس والحصاد وطاف به الخيال حول عهدود التاريخ فشرح ما مر بهذه البلاد من عقائد وديانات شرحها برفق لأنه لم يرد النقد وانما أراد التسجيل •

ولو شئت لقلت انه اعتذر عن ظلم الفراعين فقد عد ارهاقهم للشعب فى بناء الهياكل بابا من المجد المرموق •

هى من بناء الظلم الا أنه يبيض وجه الظلم منه ويشرق لم يرهق الامم الملوك بمثلها مجدا لهم يبقى وذكرى يعبق

ويرى الشاعر ان الأرض والسماء لا تبيدان الا برجفة القيامة، أما قيامة مصر فهي جفاف النيل الذى خاطبه الشاعر فقال :

من أى عهد فى القرى تتدفق	وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من	عليا الجنان جداولاً تترقق
وبأى عين أم بآية مزنة	أم أى طوفان تفيض وتفهق
وبأى نول أنت ناسج بردة	للضفتين جديدها لا يخلق

تسود ديباجا اذا فارقتها
فى كل آونة تبدل صبيغة
أتت الدهور عليك مهلك مترع
تسقى وتطعم لا اناؤك ضائق
والماء تسكبه فيسبك عسجدا
والأرض تفرقها فيحيا المفرق

ونظر الشاعر فرأى الوثنية المصرية تأمر بعبادة النيل فشاء
له الأدب أن يوجه تلك العبادة توجيهها يرفع عنها اصر الشرك بواجب
الوجود :

دين الأوائل فيك دين مروءة
لو أن مخلوقا يؤله لم تكن
جعلوا الهوى لك والوقار عبادة
لم لا يؤله من يقوت ويرزق
لسواك مرتبة الالوهة تخلق
ان العبادة خشية وتعلق

ثم نظر الشاعر فرأى ان المصريين القدماء كانوا يهتمون ببناء
القبور اضعاف ما يهتمون ببناء البيوت فاتخذ من ذلك دليلا على
حبهم للخلود :

بلغوا الحقيقة من حياة علمها
وتبينوا معنى الوجود فلم يروا
ينون للدنيا كما تبنى لهم
فقصورهم كوخ وبيت بدواة
حجب مكثفة وسر مغلق
دون الخلود سعادة تتحقق
خربا غراب البين فيها ينعق
وقبورهم صرح أشم وجوسق

ولم ينكر الشاعر فى تفنيد خرافة « عروس النيل » وانما جعلها
حقيقة شرعية حين قال :

ونجبية بين الطفولة والصبأ
كان الزفاف اليك غاية حظها
لاقت أعراسا ولاقت ماتما
عذراء تشربها القلوب وتعلق
والحظ ان بلغ النهاية موبق
كالشيخ نعم بالفتاة وتزهق

الى آخر ما قال فى هذا المعنى الدقيق • وقد اعتذر عن اسطورة
« ابيس » فجعلها نوعا من الوفاء للدين :

قوم وقار الدين فى أخلاقهم والشعب ما يعتاد أو يتخلق

ولم يفت الشاعر أن يسجل فى أبيات كريمة أن مصر التى كانت
موئلا للديانة الفرعونية هى مصر التى آوت الديانة الموسوية والديانة
اليعسوية والديانة المحمدية ولم يفته أيضا أن ينص على عدالة
عمر بن الخطاب الذى ضرب ابن عمرو بن العاص بالسوط حين سمع أنه
أهان أحد الأقباط وقال فى ذلك كلمته التاريخية « متى استعبدتم
الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » •

ثم ماذا ؟؟

ثم يختتم شوقى قصيدة النيل بأبيات تفسر معنى الوطنية فالناس
عنده يحبون الوطن لأنه مصدر سعادتهم لأنه المستقر الأمين
لأبنائهم :

مما يحملنا الهوى لك أفرخ سنطير عنها وهى عندك ترزق
تهفو اليهم فى التراب قلوبنا وتكاد فيه بغير عرق تخفق
ترجى لهم ، والله جل جلاله منا ومنك بهم أبر وأرفق

مصاير الايام :

هذا عنوان قصيدة صور بها شوقى صروف الحياة من عهد
الطفولة الى عهد المشيب ابتداء الشاعر بحياة الطفل فى المكتب
والمكتب كلمة جديدة يراد بها المدرسة الأولية وهى كذلك فى عرف
المعارف فهى تقول المكاتب العامة بعد أن كانت تقول المدارس الأولية
وكان العرف المدرسى قبل سنين يعم كلمة المكتب بحيث تشمل حجرة
الدرس ولو كانت فى مدرسة عالية •

وشوقى فى هذه القصيدة يتمثل حياة الأطفال ويحسها أصدق
احساس .

ألا حبذا صحبة المكتب وأحب بأيامها أحب
ويا حبذا صبية يلعبون نعان الحياة عليهم صبي
كأنهمو بسمات الحياة وأنفاس ريحانها الطيب

وعبارة « نعان الحياة عليهم صبي » عبارة طريفة والمراد بصبا
العنان هو الرقة واللين ثم يلتفت الشاعر فيرى أن الأطفال لا يفرحون
بالمكتب كل الفرح ولا يرتاحون اليه كل الارتياح وكيف والأمر كما
قال :

يراح وينغدى بهم كالقطيع على مشرق الشمس والمغرب
الى مرتع ألفوا غيره وراع غرب العصا أجنبى
وهذان البيتان من أروع ما صورت به حياة الأطفال فى رعاية
المعلمين .

وصور اختلاف قواهم باختلاف أسنانهم فقال :

فـراخ بأيك فمن ناهض يروض الجناح ومن أزغب
وصور غفلتهم عن المصير المرتقب فقال :

مقاعدهم من جناح الزما ن وما علموا خطر المركب
وقد جاد الوحي على شوقى بيتين فى غاية من العذوبة والصدق
أما البيت الأول فهو قوله فى تلوين حيوية الأطفال :

عصافير عند تهجى الدرو س مهار عرايبه فى الملعب
وأما البيت الثانى فهو قوله فى اختلاف الاحساس باختلاف
أوقات الجرس :

لهم جرس مطرب فى السـرا ح وليس اذا جـد بالمطرب

وهل ينسى المدرسون لا التلاميذ أن جرس الانصراف محبوب
الرنين ، وان جرس الدرس بغض الضجيج ؟

وأذكر من باب الفكاهة أنى كنت أشرح لأحد نظار المدارس
قيمة الطرافة فى هذا البيت فقال ان شوقى نسى جرس الغداء .

ثم قال شوقى :

جنون الحداثة من حولهم تضيق به سعة المذهب
عدا فاستبد بعقل الصبى وأعدى المؤدب حتى صبى
والغرض قد التوى على شوقى فى هذين البيتين بعض الالتواء لأنه
ساوى بين الجنونين : جنون الأطفال وجنون المعلمين .

وأخطأ شوقى فى اختيار كلمة (المؤدب) والصواب أن يقول
« المعلم » فهناك فرق بين التأديب والتعليم فالتأديب هو التشقيف
والتعليم هو الترتيب وفى كلام الجاحظ عبارة تفصح عن الفرق بين
المؤدب والمعلم وتدل بوضوح على أن المؤدبين أكبر من المعلمين .

ثم نقل شوقى تلاميذه من المكتب الى المدرسة ثم الى الحياة
فقال :

فيا ويحهم هل أحسوا الحيا	ة لقد لعبوا وهى لم تلعب
تجرب فيهم وما يعلمون	كتجربة الطب فى الأرنب
سقتهم بسم جرى فى الأصول	وروى الفروع ولم ينضب
ودار الزمان فدا ل الصبا	وشب الصغار عن المكتب
وجد الطلاب وكد الشبا	ب وأوغل فى الصعب فالأصعب
وعادت نواعم أيامه	ستين من الدأب المنصب
وعذب بالعلم طلابه	وغصوا بمنهله الأعذب

والمجال يضيق عن تشريح هذه القصيدة التى قال فيها شوقى :
وكم منجب فى تلقى الدروس تلقى الحياة فلم ينبج

فأرجو أن يلتفت اليها المتسابقون لأنها من غرر الشوقيات ..

قصائد سورية :

في المقال السالف نصصنا على السر في اهتمام شوقي بأخبار سورية ولبنان ، فلنذكر اليوم أن الشاعر تحدث عن سورية في قصائد جياذ ، منها القصيدة التي تحدث فيها عن الشهداء في سبيل الاستقلال ؟

بنى سورية اطرحوا الأماني	خرجتم تطلبون به النزالا
سلوا الحرية الزهراء عنا	وعنكم هل أذاقتنا الوصالا
وهل نلنا كلانا اليوم الا	عرايب المواعد والمطالا
عرفتم مهرها فبهرتمسوها	دما صبغ السباب والذغالا
وقمت دونها حتى خضبتهم	هوادجها الشريفة والحجالا
دعوا في الناس مفتونا جيانا	يقول : الحرب قد كانت وبالا
أيطلب حقهم بالروح قوم	فتسمع قائلا ركبوا الضلالا

ومنها القصيدة الأموية وقد أشرنا اليها في المقالة الماضية ومنها القصيد الذي لا يطاوله قصيد فما نظم شاعر أروع مما نظم شوقي في نكبة دمشق ولا ارتاع شاعر كما ارتاع شوقي لنكبة دمشق :

لحماها الله أنباء توات	على سمع الولي بما يشق
يفصلها الى الدنيا بريد	ويحملها الى الآفاق برق
تكاد لروعة الأحداث فيها	تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل معالم التاريخ دكت	وقيل أصابها تلف وحررق
أست دمشق للاسلام ظئرا	ومرضعة الأبوة لا تمق

وفي هذه القصيدة يقول شوقي في وصف ما صنعت النكبة

بنساء دمشق :

برزن وفي نواحي الأيك نار	وخلف الأيك أفراخ تبزق
إذا رمن السلامة من طريق	أتت من دونه للبوت طرق

يليل للقدائف والمنسايا وراء سمائه خطف وصبق
إذا عصف الحديد احمر أفق على جنباته واسود أفق

ثم توحى اليه ملائكة الشعر أن يقول :

بنى سورية اطرحوا الأمانى	وألقوا عنكم الأحلام ألقوا
فمن خدع السياسة أن تفروا	بالقصاب الامارة وهى رق
وكم صيد بدالك من ذليل	كما مالت من المصلوب عنق
نصحت ونحن مختلفون دارا	ولكن كلنا فى الهم شرق
ويجمعنا اذا اختلفت بلاد	بيان غير مختلف ونطق
وقفتم بين موت أو حياة	فان رمتهم نعيم الدهر فاشقوا
ومن يسقى ويشرب بالمنسايا	اذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا
ففى القتلى لأجيال حياة	وفى الأسرى فدى لهم وعق
وللحرية الحمراء باب	بكل يد مزرعة يسدق

هل يحتاج هذا الشعر الى شرح ؟ هيهات !

قصائد لبنانية :

المذاق يختلف بعض الاختلاف أو كل الاختلاف بين قصائد شوقى
السورية وقصائده اللبنانية فهو فى الشام يعانى نارين : الذكريات
للامجاد الاموية ونار الحق على الاستعمار الفرنسى وقد جاهد
السوريون أصدق الجهاد وعانوا فى دفعه مكاره لا تطاق .

ولا كذلك حال شوقى فى لبنان فهو هنالك شاعر يصدق فوق
أفنان انجمال ، ولا يرى ما يسوءه من الاضطهاد لأن الظواهر كانت
تزعم أن الفرنسيين واللبنانيين على وفاق .

كان لبنان لعهد زيارات شوقى وطن الشعر والجمال والأمان
والرخاء وكان اللبنانيون على فطرتهم الاصيله من الترحيب الصادق بكل

من يزور وطنهم الجميل فأنس بهم شوقي كل الأنس واطمأن اليهم كل
الاطمئنان •

أيام شوقي في سورية كانت أيام جهاد أما أيامه في لبنان فكانت
أيام شهاد •

كان شوقي يكره أن يقول ان شبابه الى أفول وان جاوز
الستين ثم شاء شيطانه أن ينقله الى زحلة وطن الرحيق ومعه المحامي
فكرى أباطة والموسيقار محمد عبد الوهاب •

وفي لحظة من لحظات الصراع بين العيون والقلوب هان عليه أن
يبكى الشباب الذاهب فيقول :

شيعت أحلامي بقلب باك	ولمت من طرق الملاح شباكى (١)
ورجعت أدراج الشباب وورده	أمشى مكانهما على الأشواك
وبجانبي واه كأن خفوقه	لا تلفت جهشة المتباكى
شاكى السلاح اذا خلا بضلوعه	فاذا أهيب به فليس بشاك
قد راعه أنى طويت حبائلى	من بعد طول تناول وفكاك
ويح ابن جنبى ، كل غاية لذة	بعد الشباب عزيزة الادراك
لم تبق منا يا فؤاد بقيّة	لفتوة أو فضلة لمراك
كنا اذا صفقت نستبق الهوى	ونشد شد العصبه الفتاك
واليوم تبعث فى حين تهزنى	ما يبعث الناقوس فى النساءك

وكان الرأى أن تلقى هذه القصيدة فى حفلة أعدها أهل زحلة
لتكريم شوقي وكان الأستاذ فكرى أباطة هو الأثير عند شوقي حينذاك
فى القاء شعره البليغ فاعترض للموسيقار عبد الوهاب قائلاً ان هذه
القصيدة للغناء ، وليست للالقاء ، ثم صدح بصوته الرنان :

(١) فى الديوان لمحت وهى غلطة مطبعية لم ينتبه لها أكثر من نقلوا هذه القصيدة
من الديوان •

يا جارة الوادى طسرت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت فى الذكرى هو الكوفى الكرى والذكريات صدى السنين الحاكى
لم أدر ما طيب العناق على الهوى حتى ترفق ساعدى فطسواك
لا أمس من عمر الزمان ولا غد جمع الزمان فكان يوم لقاك (١)

وفى هذه القصيدة يقول شوقى على عادته فى التخسوف من
محجب الغيوب :

لبنان ردتى اليك من النوى أقدار سير للحياة دراك
نمشى عليها فوق كل فجاءة كالطير فوق مكان من الاشراك
مصرع شوقى :

فى مكتبة الدكتور طه بك حسين ظرف مختوم كتب عليه «مصرع
شوقى» فما الذى يحتويه الظرف المختوم ؟

فى احدى العصريات من صيف سنة ١٩٢٥ أو سنة ١٩٢٦ حدثنى
الدكتور طه حسين أن « شوقى » أسف أبشع الأسف بقصيدة نشرتها
جريدة المقطم عن هوى شوقى فى لبنان .

واعترف انى كنت أرى ما يرى الدكتور طه حسين فى تلك
القصيدة يومذاك فقد نشرت فى المقطم على أسوأ حال من التحريف .
ثم دارت الأيام وعرفنا انها أجود مما كنا نتوهم وانها فى كل خاطر
وعلى كل لسان فى لبنان ثم دارت الأيام مرة ثانية فعرفنا أن الاريحية
اللبنانية سمحت بأن يكتر من يقولون ان شوقى عناهم بذلك القصيد ،
الذى يهتف :

وأغن أكحل من مها (بكفية) علقت محاجر دمي وعلقتـه
لبنان دارته وفيه كناسه بين القنا الخطار خط نجته

(١) هذه القطعة مشهورة جدا ، ولها ترتيب غير هذا الترتيب .

السلسيل من الجداول ورده
دخل الكنيسة فارتقت فلم يطل
فازور غضابانا وأعرض نافرا
فصرفت تلعبابى الى أترابه
فمشى الى وليس أول جؤذر
قد جاء من سحر الجفون فصادنى
لما ظفرت به على حرم الهدى
الى آخر القصيدة ..

والآس من خضر الخمائل قوته
فأتيت دون طريقه فزحمته
حال من الغيد الملاح عرفته
وزعمتهن لباتى فأغرته
وقعت عليه حبائلى فقنصته
وأئتيت من سحر البيان فصدته
لابن البتول وللصلاة وهبته

شعور شوقى بالوجود :

بين قصائد شوقى فى سورية ولبنان وقصائده فى البلاد التركية
والفرنسية آماد طوال ومع هذا نجد أن احساسه بالوجود على اختلاف
الأزمان غاية فى القوة والبريق وهل تنسى أن الجرائد المصرية لم تجد
عند مصرع باريس فى الحرب الحاضرة غير ما توجع به شوقى لباريس
فى الحرب الماضية ؟

ولقد أقول وأدمى منهلة باريس لم يعرفك من يغزوك
زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة يا افك ما زعموك
ان كنت للشهوات ريا فالعلا شهواتهن مرويأت فيك
ومن هذا الكلام نعرف أن للعلا شهوات أعنف من شهوات
الأهواء ..

وقصيدة شوقى فى غاية بولونيا قديمة العهد وهى مع ذلك لطيفة
النفس ذكية الروح .. وأبياته فى « شبه أمينة » أبيات لطاف ، وقد
رأيت بعينى صورة « أمينة » فى غرف كثيرة من دار شوقى بدون استثناء
لحجرة الاستقبال وهى البنية التى قال فيها ذلك الأب الحنان :

وكم قد خلت من أيبك الجيوب وليست جيوبك بالخاليه

ثم ماذا ؟

ثم يبقى الحديث عن القصيدة التي حفظها حافظ ابراهيم مع تفاصيل يوجبها التاريخ لمعرفة سرائر هذين الشاعرين ..

توت عنخ آمون :

فى الجزء الثانى من الشوقيات قصيدتان فى توت عنخ آمون ، ولهاتين القصيدتين قيمة عظيمة فقد صرح شوقى نفسه أن أعظم قصائده هى النونية الآمونية :

درجت على الكنز القرون وأتت على الدن السنون
أما حافظ ابراهيم فكان يرى أن أعظم قصيدة نظمها شوقى هى البائية الكارنارفونية :

فى الموت ما أعيأ وفى أسبابه كل امرئ رهن بطن كتابه
فما حديث هذه القصائد الجياد ؟

كان اللورد كارنارفون من المولعين بالآثار المصرية ، وقد سمح له غناه أن ينفق على الحفريات بسخاء فكلف المستر كارتير أن يحفر فى وادى الملوك بالأقصر عساه يهتدى الى مقبرة لم يهتد اليها للصمصوس فى العصور الخوالى ..

وبعد متاعب كادت تودى بمصير اللورد كارنارفون عشر المستر كارتير على مقبرة توت عنخ آمون فى سنة ١٩٢٢ •

وقد التفت الباحثون من الأوربيين والأمريكيين الى هذا الكشف أعظم التفات وقدمت التهانى الى كارتير و كارنارفون من الهيئات العلمية فى الغرب والشرق ودعيت الصحافة الى معاينة ذلك الكشف الخطير فذهب لمعاينته ثلاثة من الصحفيين : زكى مبارك مندوبا عن جريدة الأفكار والدكتور هيكل مندوبا عن جريدة السياسة والأستاذ المازنى

مندوبا عن جريدة الاخبار ، ولن انسى ان المستر كارتر حدثنا عن السبب
فى نقص بعض محتويات المقبرة وكان رأى عنده أن أيدى اللصوص
قد امتدت اليها فى عهد الأسرة العشرين • فكتبت فى الأفكار أقول :
انى أرجح أنها سرقت فى القرن العشرين ولم يفت مراسل التيمس أن
يبرق الى جريدته بهذا التلميح فنشرته بدون تسويق ، لتداعب به
اللورد كارنارفون وكانت النتيجة أن يمتنع المستر كارتر عن السماح
للصحفيين بزيارة المقبرة ولهذا الامتناع صدى فى شعر شوقى سنشير
اليه قبل ختام هذا الحديث •

لعنة الفراعنة :

هنالك خرافة تقول بأن الفراعنة يلعنون من ينبش قبورهم بعد
الموت • ولهذه الخرافة أصل فقد وجد على كثير من القبور المصرية
والكادانية دعوات حرار على من ينبشون قبور الملوك وفى القبور
المصرية ما يسمى الرصد وهو تمثال يقام فى مدخل القبر لتخويف
اللصوص وهو حقا مخيف لأن القدماء كانوا يتوهمون أنه مزود بالسلاح
والروح ، وانه يقتل من يدخل القبر بدون استئذان ، وهل يستأذن
اللصوص ؟ فماذا صنعت لعنة الفراعنة باللورد كارنارفون ؟ أبرق اليه
المستر كارتر فحضر على عجل ليشهد الكشف الجديد وبعد أيام لسعته
بعوضة وهو نائم فى خيمة بجوار المقبرة فمات •

حقيقة اغرب من الخيال :

كان اللورد كارنارفون اهدى الى بنت ملك الانجليز عقدا من
العقود المصرية القديمة فقرحت به فرحا عظيما واثابت مهديه أجزل
الثواب فلما سمعت أن بعوضة لسعته فمات نزعته العقد من جيدها
لئلا تاجقها لعنة الفراعين •

وفى قصة البعوضة يقول شوقى :

صادت بقارعة الصعيد بعوضة في الجو صائد يازه وعقابه
وأصاب خرطوم الذبابة صفحة خلقت لسيف الهند أو لذبابه
طارت بخافية القضاء ورأرات بكريمته ولا مست بلعابه

ثم يعلل شوقي تلك الحادثة تعليلا علميا فيذكر أنها من نتائج
الوهم الذي يضعف الأعصاب ؟

لا تسمعن لعصبة الأرواح ما قالوا بباطل علمهم وكذابه
الروح للرحمن جل جلاله هي من ضغائن علمه وغيابه
غلبوا على أعصابهم فتوهموا أوهام مغلوب على أعصابه

بين حافظ وشوقي :

كان التنافس بين حافظ وشوقي قد وصل الى أبعد الحدود ،
وزاد في خطر ذلك التنافس أن حافظا كان رجلا عذب الروح وكانت
له مع الصحفيين صلات يؤرث بها أحقادهم على شوقي حين يشاء ..

وما أذكر غلبة شوقي على حافظ الا تعجبت ، فقد كان حافظ غاية
في الذكاء واللوزعية وكان علمه بتاريخ العرب وآدابهم علما يفوق
الوصف وكان فهمه لدقائق الحياة المصرية اعجوبة الأعاجيب فكيف تفرق
عليه شوقي وكان رجلا يدل مظهره وحديثه على أنه فرد من سواد
الناس لا يمتاز بعبقريه ولا نبوغ ؟

اكاد أجزم بأن « شهوة الحديث » هي التي اضعفت شاعرية حافظ.
فقط كان كثير الحديث وبالحديث وصل الى ألوف القلوب وبالحديث
ضاع ، لأن الحديث يأخذ من القوى النفسية طاقات لا تصلح بعدها
للغناء .

لو أن أحاديث حافظ دونت لكان فيها ثروة فكرية تفوق ما ترك
شوقي من الثروة الشعرية ولكان من الممكن أن بعد من أقطاب التاريخ

الأدبي في هذا الباب ولكن هذا الزمن لا تتسع تقاليده الأدبية لمثل ما كانت تحرص عليه عناية القدماء في أمثال هذه الشئون •

أما شوقي فكان يؤثر الصمت ليحتفظ بالمدخر من قواه النفسية وليلقى الناس بالقصيد لا بالحديث فظفرت جهوده بالخلود ••

كان حافظ يحدث من يلقاه باطناب واسهاب فلا ينقضي اليوم الا وهو متهالك من فرط الاعياء ، وكان شوقي يهرب من الناس حين يشرع في النظم فلا تراه الا هائما على وجهه من طريق الى طريق وفي حال تنذر بالجنون •

كان حافظ يطيل محاورتي حين كنت موظفا بدار الكتب المصرية في سنة ١٩٢٥ فبدا للمرحوم أحمد نسيم أن يدلني على أحد مقاتله النفسية فحدثني أن أعظم ما يغيظ حافظا أن تخبره انك رأيت شوقي ينتقل من ترام الى ترام وفي يده سيجارة وعلى وجهه امارات الدهول • وحملني النزق على تجربة هذه الوصية فأخبرت حافظا اني رأيت «شوقي» كثير التنقل في الشوارع وفي حال يغلب عليه الانفعال فصرخ حافظ • في أي غرض يعالج الشعر هذا المخبول انه يكره أن يقترب من اسمي باسمه ، مع ان الناس ظلوا يقولون في أكثر من عشرين سنة ، شوقي وحافظ كما يقولون بيض وسميط ••

بين الظلم والعدل :

كأت الأقدار سمحت بأن تنعقد بيني وبين شوقي مودة دامت نحو سنتين وفي تلك الأيام عرفت من أحوال شوقي أشياء ومن المؤكد انه من أعظم الرجال الذين عرفتهم في حياتي فقد كانت استاذيته في نقد المجتمع مضرب الأمثال وكان روحه من ألطف الارواح وفي لحظة من لحظات الحوار حول مقاصد الشعراء سألته عن قصيدة حافظ في مجاوبته وهو منفي بالأندلس فأجاب وقد تربد وجهه بالغيظ أنا لا أروى غير شعري ••

فقلت : ومن الوفاء للادب أن تروى شعر من يناجيك وانت
غريب ..

وفى اليوم التالى لقيت حافظا فسألته برفق أتحفظ شيئا من شعر
شوقى فأجاب لقد قتلنى شوقى حين قال فى اللورد كارنارفون :

أفضى الى ختم الزمان ففضه وحبا الى التاريخ فى محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

احفاد المبقرين :

ومع هذا فأحقاد المبقرين كأحقاد الأطفال تذوب بعد ليال ففى
سنة ١٩٢٧ أقيمت حفلة عربية لتكريم شوقى فأشدد حافظ قصيدا
جاء فيه :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فدعاه شوقى وقبل جبينه والدمع فى عينيه .. ثم شاء القدر
أن يموت حافظ قبل شوقى بأسابيع فقال شوقى يبيكه ؟

يا منصف الموتى من الأحياء	قد كنت أوثر أن تقول رثائى
قدر وكل منية بقضاء	لكن سبقت وكل طول سلامة
والكاذبون المرجفون فدائى	وزدت لو أنى فداك من الردى
الموغرو الموتى على الأحياء	الناطقون عن الضعينة والهوى
بكرائم الانقراض والأشلاء	من كل هدام ويبنى مجسده
من ذا يحطم رفرف الجوزاء	ما حطموك وإنما بك حطموا
فى الشرق واسمك أرفع الأسماء	انظر فانت كامس شأنك باذخ
غراء تحفظ كاليد البيضاء	بالامس قد حاييتنى بقصيدة
وكما علمت مودتى ووفائى	غيظ الحسود لها وقمت بشكرها

وهي أعظم قصيدة قالها شوقي قبيل الموت • ولعلها خير ما جاد
به خاطره برفق وحنان (١) •

الاعيب الحظوظ :

مان حافظ وشوقي في موسم واحد هو صيف سنة ١٩٣٢ ••
فارتجت الأقطار العربية لموت شاعرين كانت اليهما قيثاره الفناء في
أعوام تزيد على الثلاثين •

وفي خريف تلك السنة بدا لاحدى شركات السجائر أن تخرج
علبة باسم شوقي وعلبة باسم حافظ فجعلت ثمن العلبة الأولى خمسة
قروش وثمن العلبة الثانية أربعة قروش • وسعيد الدنيا سعيد الآخرة
كما يقولون •

توضيح :

لهذا الاستطراد غاية هي خلق جو يفسر ما كان بين شوقي وحافظ
وما يليق بأديب أن يجهل ما كان بين حافظ وشوقي من مصاولات عادت
على الشعر بأطيب الثمرات •

النونية الامونية :

مراجعة هذه القصيدة بتأمل وتدقيق ترينا كيف قال شوقي انها
أعظم ما خطته يمينه فقد حاور الحياة وحاور الوجود بأسلوب الأديب
الفيلسوف وزعم خياله أن الموتى لو شعروا بما في قبر ذلك الملك

(١) كان شوقي في أخريات أيامه مصابا برعشة عنيفة تتمثل في اضطراب يديه بدون
انقطاع ، ومع هذا فقصيدته في رثاء حافظ لا تدل على تعب أو إعياء ، أما آخر قصيدة
نظمها فهي قصيدته في افتتاح مصنع مشروع القرش ، وبعد أن صلق المحتفلون وأطالوا
التصديق لقصيدة شوقي كان زادهم عند الانصراف أن يتلقوا ملحقا لجريدة الجهاد تنمى
به شوقي ، فعرفوا أن تصليقتهم كان تعبها تلقاها الشاعر وهو على سرير الموت •• يرحمك
الله يا شوقي •

لنبشوه بدون استحياء ثم مضى فصور حياة ذلك الفرعون فى حدود
التصاوير المرسومة بجدران قبره المظموس ♦♦

والتلطف مع شوقى لا ينسينى واجب النقد الأدبى وهذا الواجب
يدعونى الى النص على أن «شوقى أسرف» فى وصف مقبرة توت عنخ
آمون فقد ذكر لها خصائص غير حقيقية ، خصائص لم ترها عيناي حين
زرتها قبل عشرين عاما ولعل شوقى لم يرها بعينه قبل نظم هذا القصيد
وانما تمثل ما رآه فى بعض المقابر الفرعونية فقال ما قال بلا تحفظ ولا
احتراش ♦♦

ثورة الجيل :

فى هذه النونية تحدث شوقى عن عصر توت عنخ آمون وعده
عهد الفرد اللعين ليجوز له فى قصيدة ثانية أن يقول ان الدستور جعل
عصره دون عصر فؤاد ♦♦

والقصيدة الثانية تحفة أدبية تخيل فيها الشاعر أن توت عنخ
آمون :

سافر أربعين قرنا عندها	حتى أتى الدار فألقى عندها
انجلترا وجيشها ولوردها	مسلولة الهندي تحمى عندها
قامت على السودان تحمى سدها	وركزت دون القناة بندها
فقال والحسرة ما أشدها	ليت جدار القصر ما تدهدها
وليت عيني لم تفارق رقددها	قم نبني يا بنتثور ما دها
مصر فتاتي لم توقر جددها	دقت وراء مضجعي جازبندها
وخلطت ظباءها وأسدها	وسكب الساقى الطلا وبدها
قد سحبت على جلالى بردها	ليت جلال الموت كان صدها

وهذا شعر يفسده الشرح وهو أيضا شعر لا يقوله غير شوقى

امام الصياغة الشعرية وأصدق من تغنى بأمجاد النيل وفى هذه
القصيدة نص شوقى على أن :

مصر الفتاة بلغت أشدها وأثبت الدم الزكى رشدها
ولعبت على الحبال وحدها وجربت أرخاءها وشدها
فأرسلت دهاتها ولدها فى الغرب سدوا عنده مسدها
وبعثت للبرلمان جندها وحشدت للمهرجان حشدها

ثم أشار الى معارضة المستر كارتر فى زيارة المقبرة فقال يخاطب
الفرعون :

لحدك ودته النجوم لحدها أريتنا الدنيا به وجدها
سلطانها وعزها ورغدها وكيف يعطى المتقون خلدها
أبوابك الالائى قصدنا قصدها كارتر فى وجه الوفود ردها
لولا جهود لا نريد جدها وحرمة من قربك استمددها
قلت لك اضرب يده وقدها وابعث له من البعوض نكدها

والقارىء يفهم انه يشير الى البعوض الذى صرع اللورد كارنارفون
وهو بعوض ظالم فقد حدثنا شوقى فى البائية أن اللورد كارنارفون
أهدى الى توت عنخ آمون هدية أعظم من الهيرمين ، لأنه عرف به
أما لم يعرفها عصر الفراعين • ألم تكتب فيه عشرات البحوث فى بلاد
الأمريكان ؟

خلاصة البحث :

قد فرغت من الكلام عن عيون الجزء الثانى أيضا من الشوقيات
فى الحدود التى يسمح بها الوقت وقد سكت عن سينية شوقى (١)

(١) الموازنة بين سينية شوقى فى معارضة سينية البحرى فى هذا الكتاب •

فى معارضة سينية اللى تحترى لآنى تحدثت عنها باطناب فى كتاب (الموازنة
بين الشعراء) وانا أكره الحديث المعاد ..

أما بعد فما خلاصة هذا البحث ؟

هو اشارة ورموز لا ينتفع بها غير من يقرأ الشوقيات بامعان ،
والنقد الأدبى توجيه لا تلخيص ، والله ولى التوفيق .

نقد باب النسيب

على صفحات جريدة البلاغ بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧
وتحت عنوان « أحمد شوقي أمير الشعراء » كتب زكي مبارك يقول:
« كنت أرسل الى البلاغ مقالات من باريس فأرسلت ثلاث
مقالات في نقد الجزء الثاني من الشوقيات، وكان الدكتور زكي حسن
قدمه الى لأطلع عليه ، فلم يعجبني باب النسيب فكتبت تلك
المقالات .. »

ويمضي زكي مبارك فيقول : ولكن خطابا يصل بالبريد الجوي
بخط الاستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول :

أن « شوقي » مريض ونقد شعره من كاتب في مثل منزلتك
الأدبية يؤذيه وحين يعافيه الله من المرض سأنشر هذه المقالات
بنصها الاصيل »

وبعد ذلك نشرت تلك المقالات في جريدة البلاغ عن « الغزل
في شعر شوقي » في شهرى يوليه وأغسطس سنة ١٩٣١ ، والشاعر
شوقي مازال على قيد الحياة .. وهذه الصفحات نجدتها في الطبعة
الثانية من كتاب زكي مبارك « البدائع » .

والآن مع زكي مبارك ونقد باب النسيب في الشوقيات ..

الغزل في شعر شوقي

وسائل ثلاث في نقد الغزل في شعر
شوقي كتبها المؤلف في باريس في
شهر مارس ١٩٣١

— ١ —

تفضل أحد الأصدقاء المقيمين في باريس نأعارني الجزء الثاني
من الشوقيات ، فرأيت أن أنقد منه باب النسيب ، وانما اقتصرت على
هذا الباب لأن أحد الكتاب كان وعد بنقد ذلك الديوان ، فمن
الخير اذن ألا يتكرر ما يكتب ، وان كان لكل منا مذهبه الخاص .

ولأقيد أولا أن «شوقي» مسئول عن ذلك الشرح الموجز الذي
ذيلت به الشوقيات ، فهو في أغلب الأحيان شرح ضعيف وقد يتعدى
الضعف أحيانا الى الغلط الشنيع . ومن أمثلة ذلك التعليق على
قوله :

لو جلوا حبسك أو غنوا به للبيد في الثمانين صبا

فقد جاء في الشرح ما نصه : هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي
قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة :

ان الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعى الى ترجمان
وهذا خطأ يؤخذ به أمير الشعراء الذى ظل يراجع هذا الجزء
من ديوانه نحو خمسة أعوام أو تزيد ، فليس هذا البيت من شعر ليبيد
وانما هو من قصيدة لأبى محلم الشيبانى - ان لم تخنى الذاكرة -
والقصيدة برمتها مثبتة فى الجزء الاول من أمالى القالى

ان شوقى يعرف رأى فى شعره ، وقد آكون أول من أنصفه بين
النقاد المعاصرين ، فهو اذن خليق بأن يفترض انى لا أتعامل عليه ان
قلت ان أضعف الجوانب فى ديوانه هو باب النسيب •

لقد عتب على مرة لأنى لم اختر من شعره فى كتاب « مدام
العشاق » غير أربعة أبيات ، ولعله يفهم أن عذرى فى ذلك مقبول
لأن شعره فى الغزل أضعف من أن يمس القلوب ، فضلا عن أن يفصح
عن مدام العشاق •

ان النسيب فى جملته يرجع الى عنصرين : الأول وصف ما يجد
المحب من لوعة الشوق ، والثانى وصف ما فى المحبوب من الملاحظة
والجمال ، ويمكن أن يقال ان شعر شوقى خال من أوصاف الوجد
المبرح لأنه عاش مقسم القلب ، موزع الاحساس • فكان ينتقل من
حب الى حب ، ومن حسن الى حسن ، فلم يقع لذلك فى وقدة
الهجر أو أسر الصدود •

ذلك اعتذارنا عنه ، لأننا نؤثر الفرق بشاعرنا المجيد ، ولو
آثرنا الصدق لصارحنا أمير الشعراء بأنه لم يكن من رقة القلب
ودقة الاحساس بحيث تتنزى كبده من الشغف المهلك بما رأت عينه
من أسراب الملاح •

انها لفكرة ساذجة أن يظن أن الوجد المبرح لا يقع الا لمن يحبون في قصد وفي عفاف ، هي فكرة ساذجة دافعت عنها فيما سلف . أما الواقع فهو أن الشاعر المرهف الاحساس يتزايد بلاؤه وشقاؤه كلما طال عهده بمواجهة الضباحة ومطالعة الجمال .

الشاعر أشقى الناس بشاعريته ، لأنه أعرفهم بخطر ما تبذل الطبيعة من أسباب الحسن والفتون ، وقد أتيح لشوقي أن يشهد من روعة الجمال ما يندر أن يتاح نظيره لرجل سواه ، ولكنه لم يقل شيئا عن القلوب التي أشقتها السعادة في الحب ، ولم يتحدث عن آلام السعداء الأشقياء الذين يحترقون وهم في كوثر الوصال .

انه لعزيز ان يدور شعراؤنا حول الحسن فلا يرون منه غير ما كان يرى الأقدمين : فحيرة الشاعر اليوم هي حيرة أسلافه منذ قرون ، مع أن النفوس قد تعقدت أشد التعقيد . وهذا الحسن — ان لم يلفظ الله — ماض في الفتك بلقائف القلوب ، وقد جدت للارواح أزمات جديدة ، ومطامح جديدة ، لم يشق بها الأولون فليس من المغالاة في شيء أن نصارح القراء بأن الغزل في شعر شوقي وأضرابه من المعاصرين أصبح أعجز ما يكون عن وصف ما في نفوسنا وأرواحنا وقلوبنا من ألوان القلق والظما والالتياح .

وهذه المؤاخذة توجه الى الأدب في جملته ، لأن قراء العربية في هذا العهد هم ضحايا الشعراء والكتاب والمؤلفين الذين عميت عيونهم وصمت آذانهم ، وجمدت مشاعرهم ، عن فهم ما في هذا العصر من شتى الانقلابات الأدبية والعقلية والروحية ، والاذكياء منهم جبناء يكتبون غير ما يشعرون ، وهذا هو السر في انحطاط الادب العربي الحديث . . والا فآين في مصر الشاعر أو الكاتب الذي استطاع بقوة روحه أن ينقل قراءه من ضلال الى هدى ، أو من هدى الى ضلال .

أكثر الشعراء والكتاب ينظمون ويكتبون للعوام وأشباہهم
من أدعياء الخواص ، وقد وقفت مطامح كثير من حملة الأقلام
عند تلك الغايات الصغيرة ، وبذلك ظلت عقول الصفوة المختارة من
مفكرى القراء فى حيرة داجية سوداء ، حيث لا يجدون من يترجم
عن ظناً أرواحهم ، وهيام قلوبهم ، وقلق نفوسهم ، وكان الظن بمن
أغناهم الله وأراحهم من تكاليف العيش أن يقدموا الى الجمهور
غذاءه الروحى والعقلى فى صورة أخاذة تلقى شيئاً من النور فى طريق
الأرواح الحائرة ، أو تلقى قبساً من الثورة فى أنفـس من تغشاهم
الخمود .

ولعل أفطح رزء منى به الشرق هو الغفلة عن تربية العواطف
وغض الأبصار عن روائع الجمال ، ومصدر ذلك — فيما أظن — أنه
يندر فى الشرق أن يكون شىء من الامر بيد الشباب : فنحن نعيش
فى قيود وأغلال طرق حديدھا جماعة من الحمقى البلقاء الذين يحقدون
أشد الحقد على كل شاب قوى العقل واضح الفكر مضىء الادراك .

لنترك هذه الخواطر التى تقض بعض المضاجع ، ولنأخذ فى الكلام
عن غزل شوقى :

لاحظت أن «شوقى» حين جمع ديوانه لم تسمح نفسه باغفال شىء
من شعره القديم ، فتجاور فى ديوانه التليد والطريف ، والغث
والسمين ، وأنا لا أكتم القراء أن هذه آفة الشعراء والكتاب جميعا
فمن العسير على الشاعر أو الكاتب أن يتناسى شيئاً من منظومه أو
منشوره ، وكل رجل منا حين يعود الى آثاره يقنع صريع الفتنة
والاعجاب ، وأكثر الذين جمعوا قصائدهم ورسائلهم قد تسامحوا مع
أنفسهم : فقد يتفق أن يسوء رأى المرء فى احدى قصائده أو رسائله
ولكنه مع ذلك يضعف فىرى فيها جوانب من الحسن تستحق الخلود .
وقد كانت لبشار بن برد مقطوعات سخيفة فسأله بعض أصدقائه

أن يهبها للنسيان ، فرفض ذلك محتجا بأن قصائد الشاعر كأبنائه
يتساوى حظهم عنده من البر والاشفاق .

وقد أحرق البحترى جملة من أهاجيه حتى لا تكون بابا من الشر
لابنه من بعده ، وعندى أن تلك جرأة عظيمة أن يتلف الرجل بعض
آثاره مراعاة لمصالح الأهل والأقرباء وفى ظنى أن ذلك ما كان يقع
لو قيل للبحترى : أحرق هذه الأهاجى لأنها ضعيفة لا تستحق البقاء .

وانما أثبتنا هذه الملاحظة لنعتذر بها عن شوقى فهو فى رأينا
أبعد نظرا من أن يخفى عليه ضعف الآيات الآتية :

لا والقوام الذى والأعين اللاتى ما خنت رب القنا والمشرقيات
ولا سلوت ولم أهمم ولا خطرت بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنى كل حاجاتى

فليس فى هذه الآيات من سمات الشعر غير الوزن والقافية
ولكنه أثبتها فى الديوان لأنه قالها ، وكلام أمير الشعر يجب أن يظل
عنى أى حال أمير الكلام ؛ والا فما هو القوام الذى ، وما هى الأعين
اللاتى ؟ اللهم الا أن أن يريد أن يأتى بشاهد جديد لحذف صلة
الموصول !

ثم ما معنى قوله :

وخاتم الملك للحاجات مطلب وثغرك المتمنى كل حاجاتى
وكيف غابت عليه تفاهة كلمة « حاجات » فى مقام التشبيب
ومن الغزل البارع جدا قول شوقى :

يا ناعما رقدت جفونه مضناك لا تهدا شجونه
حمل الهوى لك كله ان لم تعنه فمن يعينه
عد منعما أو لا تعد أودعت سرك من يصونه
بينى وبينك فى الهوى سبب سيجمعنا متينه

رشأ يعاب الساحرو ن وسحرهم الا جفونه
الروح ملك يمينه يفسديه ما ملكت يمينه
ما البان الا قبه لوتيمت قلبا غصونه
هذه قطعة جميلة ، لم يضعف منها الا قوله :

رشأ يعاب الساحرو ن وسحرهم الا جفونه
لأنه لا يكفى أن يقال : « السحر معيب ، ولكن سحر هذه
الجفون لا عيب فيه » والشاعر يعلم أن سحر العيون أسمى وأعز من
أن ينزل الى توافه المشكلات * فهل يدري القارئ ماذا أضاف شوقي
الى هذه النقطة الجيدة ؟ لننظر كيف يقول :

ويزين كل يتيمة فمه وتحسبها تزيه

فما معنى هذا ؟ معناه أن ثنايا المحبوب تزين اللالىء ، على حين
يظن أن اللالىء تزينها * * وما نطن شوقى يقدر أن هذا معنى جميل *
والخطأ وقع له من اختلاس قول بعض الأقدمين ولعله الحسين بن
مطير *

منعمة الأطراف زانت عقودها بأجمل مما زينتها عقودها
فان هذا الشاعر وقع على المعنى المقبول : لأن النحور قد تكون
أجمل وأروع من نفائس العقود * أما أن تكون الثنايا أجمل من اللالىء
التي تزدان بها فذلك خيال مقلوب *

ثم ما معنى قوله بعد ذلك :

ما العسر الا ليلة كان الصباح لها جينه
وهناك أبيات كثيرة كان يستطيع شوقى اسقاطها من الديوان
ولكنه كما أشرت ضعف عن ذلك كأكثر الكتاب والشعراء وسترى
فى الأبحاث الآتية مبلغ ما وصل اليه فى فن النسيب *

بين العاطفة والذكاء

لقد درج شعراء اللغة العربية منذ الزمن القديم على افتتاح القصائد بالنسيب ، وتلك طريقة لها محاسن ولها عيوب : فمن محاسنها أنها تمهد للشاعر طريق الكلام ، وهى بذلك أشبه بالموسيقى تتقدم الغناء ليثور قلب المغنى ويرهف احساسه للتلحين والتطريب ، ومن مساوئها أنها تفرض على الشاعر ما لا قبل له باحتماله من التغنى بعواطف قد تكون خمدت فى صدره منذ أزمان • على أن الشعراء الأقدمين قد التزموا هذه القاعدة حتى وصلت ببعضهم الى الاسفاف وحسب القارئ أن أذكر له أن من الشعراء الماضين من كان يفتح قصائد الرثاء بالنسيب وذلك أغرب ألوان الشذوذ ، وقد أحصيت من هذا النوع عشرين شاهدا هى فى مذكراتى بمصر ، فليعذرنى القارئ ان اكتفيت بالإشارة اليها فى هذا الحديث •

وقد سلك شوقي هذا المسلك ، فباب النسيب فى ديوانه أخذ أغلبه من طلائع مدائحه القديمة ، فهو فى جملة نسيب مصنوع غابت عنه العاطفة وصاغه الذكاء • وهو فى هذا يشارك جمهور شعراء اللغة العربية الذين اتخذوا النسيب حلية للقصائد بدون أن يفهموا أن الجمال من النفحات السماوية التى لا ينبغى أن يشرك الشاعر بها أحدا من الناس •

الجمال أعز وأسمى وأروع من أن يتخذه الشاعر وسيلة لقصائد المديح ، ولئن اغتفر للشعراء الأولين أن يتناسوا عظمة الجمال ويبتذلوه فى غير اشفاق فانه لا يغتفر لشوقي وقد درس ميسيه ولا مرتين وفرلين أن لا يتقى الله فى لغته ويرحمها من ذلك الجذب الموحش الذى ابتليت به يوم كان الشعراء يتورعون فى جبن وغفلة وجمود عن التسبيح بحمد الجمال •

ومع هذا فلشوقي مقطوعات وأغان قليلة وهبها للحسن وحده
وسنعود إليها في الرسالة الآتية ، ولكنها لقلتها لا تسمو به الى منزلة
معاصريه في الأمم الاوربية ، ولا تلحقه بمن أجاد التشبيب من أسلافه
كعمر بن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف وأبي نواس وابن زيدون .

وقد عرض شوقي لتشطير بعض أبيات النسيب ، والتشطير
والتخميس من الفنون المستحدثة في الشعر العربي ، وهو عمل فني
لا أثر فيه للعاطفة وانما يرجع الى الذكاء . فلننظر كيف صنع شوقي
مثلا في قول أبي نواس :

يا ويح أهلى يرونى بين أعينهم على الفراش ولا يدرون ما دائى
والقارىء فى غنى عن يرشده الى روعة هذا البيت الجليل
وقد حوله شوقي الى الصورة الآتية :

يا ويح أهلى أبلى بين أعينهم
ويدرج الموت فى جسمى وأعضائى
وينظرون لجنب لا هدوء له
على الفراش ولا يدرون ما دائى

فان هذا التشطير لم يستقم لشوقي الا بحذف كلمة « يرونى »
ووضع كلمة « أبلى » مكانها . ثم عاد فأتى بكلمة « وينظرون » فى
البيت الثانى ليستقيم له الشطر الأخير وقد عاد المعنى مغلقا بعض الشيء
حين تدخل شوقي لاتسامه ، وكان قبل ذلك غاية فى الرقة والوضوح .
ولشوقي بيت سائر وهو قوله :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وهو بيت يعجب به الناس ، وقد أشرت مرة الى أنه عرض فيه
حوادث الحب على الطريقة السينمائية ، وهو فوق ذلك لا يمثل الحرائر

من الحسان ، وانما يمثل الساقطات اللائى تنبو عنهن العيون فى الحانات
وما أظن شوقى ظفر بتلك السعادة مع فتاة نبيلة اللهم الا ان زعم أنه
كان (ايروس) العصر والأوان ؛

وقد فتن شوقى بالسلاسة التى كانت فى نصيب ذلك البيت فأراد
أن يضيف اليه بيتا ثانيا لتتم بهما صور العشق فقال :

ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء

فأين هذا من ذاك ؟ ذاك بيت ألفت به السليقة فجاء غاية فى
الاستواء ، أما البيت الثانى فهو من آثار التكلف ، لأن الشاعر
توهم أن الصورة تتم به ، وكانت النتيجة ما نراه من تنافر الأخوين .
فان كان شوقى فى ريب من صدق هذه الملاحظة فليحدثنا كيف
صح له أن يقول بعد ذلك :

يوم كنا ولا تسل كيف كنا تنهادى فى الهوى ما نشاء
فان ذلك وقع بالطبع بعد السلام والكلام وقبل الفراق ؛
وجاء فى الديوان ما نصه :

وقال مشطرا حيث اجتمع بعض الأدباء فى مجلس فذكر أحدهم
بيتا للبهاء زهير وهو :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف
فقال :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى
لعل الذى لا يعرف الحب يعرف
فقلت لقد ذقت الهوى ثم ذقت
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف

وكان على شوقي أن يلاحظ أن بيت البهاء زهير هذا ليس من
الجودة بحيث يستحق هذه العناية ، فإن من السذاجة أن يتوجه الناس
الى المحب قائلين : نسمع أنك تحب ، فهل لك أن تقول لنا ما طعم
الحب وما لونه ؟ وأغرب من هذا وأدخل فى السذاجة أن يعلن شوقي
وجاهة السؤال بقوله :

لعل الذى لا يعرف الحب يعرف

فهل من الحق أنه لو أمكن وصف الحب للناس أصبحوا محبين
أم الأمر لا يخرج عن عبث الالفاظ ؟

وهناك قصيدة صنعها شوقي ليدل بها على ذكائه وانقياد النظم
اليه ، فقد تال البارودى :

أتغابنى ذات الدلال على صبرى ؟

ثم سكت * فرأى شوقي أن يكمل البيت هكذا :

اذن أنا أولى بالقناع وبالخدر

ثم مضى فأنشأ قصيدة طويلة من الوزن والقافية

وقبل نقد هذه القصيدة نسأل شوقي : هل كل مغلوب على

صبره فى الحب خلى بالخدر والقناع ؟

لا أظن ! والا فهناك قصائد صرح فيها شوقي بأنه يائس مغلوب ؟

والى القارئ القطعة الآتية :

وليل كأن الحشر مطلع فجره	ترأت دموعى فيه سابقة الفجر
سريت به طيفاً الى من أحبها	وهل بالسهى فى حلة السقم من نكر
طرقت حماها بعد ما هب أهلها	أخوض غمار الظن والنظر الشزر
فما راعنى الا نساء لقينى	يبالغن فى زجرى ويسرفن فى نهري
يقلن لمن أهوى وآسن ريبة	نرى حالة بين الصباة والسحر

اليكن جارات الحمى عن ملامتى وذرون قضاء الله فى خلقه يجرى
وأخرجنى دمعى فلما زجرته رددت قلوب العاذلات الى العذر
فساءلتها ما اسمى فسمت فجئتنى يقلن أمانا للعدارى من الشعر

فقلت أخاف الله فيكن اننى
وجدت مقال الهجر يزرى بأن يزرى
أخذت بحظ من هواها وبينها
ومن يهو يعدل فى الوصال وفى الهجر
هذه أبيات فى غاية الانسجام ، ولأجل هذا أثبتتها شوقى فى
الدوان ، ولكن ما معناها ؟

الشاعر يذكر أنه كان يحب فتاة ، قاهرة بالطبع ، لأن هذا من
شعره القديم ، وللقاهرىات تقاليد فى الصيانة والعفاف . ومع هذا
طرق حماها بالليل فهب أهلها مذعورين ، وأحاط به النساء يزجرنه
وينهرنه ، ثم توجه أولئك النساء الى محبوبته يسألنها ما شأن هذا
الزائر ؟ وهنا أجهش الشاعر فى البكاء فخدمت حمية النساء وسألن
الفتاة عن اسمه فقالت شوقى ! ولم تكذ تلفظ هذا الاسم الكريم حتى
تساقت النساء متخاذلات واهنات يطلبن من الشعر الأمان ! وفى هذا
الموقف كان الشاعر كريما ، فقد طمأنهن قائلا انه يخاف فيهن الله !!
ان هذه الصورة المنكرة لا تقع فى حى وضع الا موسومة
بسقم الذوق ، فكيف صح وقوعها فى مدينة القاهرة قبل ثلاثين
عاما !!

كل هذا لم يكن ، ولكن شوقى أراد أن يتكلم ، ، فليكن ما أراد
لأنه يقول للشعر كن فيكون .

وعلى القارىء أن يروض نفسه على الاقتناع بأن نساء القاهرة
كانت شمائلهن من هذا الطراز : ولو فى خيال أمير الشعراء !!

نجوى القلب

شوقى شاعر محسود ، فقد ملأ جميع الأسماع وأشجى كثيرا من
القلوب ، وقد أتيح له أن يظل زعيم الشعراء أكثر من أربعين عاما ، وهى
زعامة حقة لا يمتري فيها الا المكابرون • وكم شقى خصومه فى هدمه
وهو على الزمن لا يصنع فيه النقد المفرض الا كما يصنع المطر من متين
الحصون ، لا تسأل عن السر فى عظمة شوقى لأن الشعر فى أكثر الاحيان
من النفحات الالهية التى لا تنال بالجد وعرق الجبين ، فليس هو بأعلم
معاصريه ولا أذكاهم ولا أعرفهم بطبائع الحياة وسنن الوجود وقد
أفصح عن ذلك أبدع افصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شأنى	أنا أسمو الى نباهة شأنه
كان بالسبق والميادين أولى	لو جرى الحظ فى سواء عنائه
انما أظهروا يد الله عندى	وأزاعوا الجميل من احسانه
ما الرحيق الذى تذوقون من كر	مى وان عشت طائفا بدنانه
وهبوني الحمام لذة سجع	أين فضل الحمام فى تحنانه
وتر فى اللهامة ما للمغنى	من يد فى صفائه وليانه

وكذلك يجيد شوقى حين يسلم خياله الى فطرته الجيدة ، ويسف
حين يتكاف ويتصنع ، لأنه لا يتقن الصنعة الا الشعراء المحرومون
من هبات الروح •

وقد راجعت ما قال شوقى فى النسيب فكان أكثر ما شاقنى
عنده نجواه لقلبه وقد ودع أحلام الشباب ، وكلمة الشباب لها فى
شعر شوقى وفى حياته معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم الا من عاشوا
كما عاش ، أو رزقوا من رقة الحس ما يتوهمون به كيف كانت حياة
مثله بين فتن المال والجمال والشباب •

وشوقى رجل ألقى فى غيابات الماضى أطيب الأحلام والأوهام

فهو اليوم يعيش تحت أثقال السنين ، ولكن كاهله لا يزال قويا ولا يزال يقول : هات ما عندك يا زمان ؛ ولا يزال فى ذلك الجسم قلب حساس يفيض بأقوى العواطف والمشاعر والأحاسيس .

غير أن «شوقى» أذكى من ذلك ، فهو يعلم علم اليقين أنه لا يأسر الجمال بصباه كما كان يفعل فى أيامه الخوالى ، وإنما ينقاد الجمال إليه لأن شهرته طبقت آفاق الأقطار العربية ، وطبعت اسمه فى صدور الناطقين بالضاد . كل هذا جعل شوقى من أشعر الناس حين يتحدث عن هزيمته فى الحب ، وكان لا يعرف الهزائم فى ذلك الميدان فيأرحمة الله لقائد قضى عمره بين أكاليل النصر ، ثم كتب عليه أن يشهد فى آخر أيامه وقائع الاخفاق ؛

والى القارئ نجوى شوقى لقلبه وقد تقطعت حباله فى أودية الجمال :

ولمت من طرق الملاح شباكى	شيعت أحلامى بقلب باك
أمشى مكانهما على الاشواك	ورجعت أدراج الشباب وورده
لما تلفت جهشة المتباكى	وبجانبي واه كأن خفوقه
فاذا أهيب به فليس بشاك	شاكى السلاح اذا خلا بضلوعه
من بعد طول تناول وفكاك	قد راعه أنى طويت حبايلى
بعد الشباب عزيزة الادراك	ويح ابن جنبى كل غاية لذة
لفتوة أو فضلة لعراك	لم تبق منا يا فؤاد بقية
ونشد شد العصبة الفتاك	كنا اذا صفتت نستبق الهوى
ما يبعث الناقوس فى النساك	واليوم تبعث فى حين تهزنى

والى القارئ قوله يخاطب قلبه من كلمة ثانية :

يجاذبنى فى الفيد رث عنانى	صحا القلب الا من خمار أمانى
وهل للفتى بالمستحيل يدان	حنانيك قلبى هل أعيد لك الصبا
وهل أنت الا من دم وحنان	تحن الى ذاك الزمان وطيبه

إذا لم تصن عهدا ولم ترع ذمة
أتذكر إذ نعطى الصبابة حقها
وأنت خفوق والحبيب مباعد
وأيام لا آلو رهانا مع الهوى
لقد كنت أشكو من خفوقك دائما
مقالك التصابي بعد ما علك الصبا
وما زلت في ريع الشباب وأنا
ولا أكذب أنبارى بنى الله هيكلى
أدين إذا اقتاد الجمال أزمى

ولم تذكر ألفا فليست جنائى
ونشرب من صرف الهوى بدنان
وأنت خفوق والحبيب مدان
وأنت فؤادى عند كل رهان
فولى فيالهفى على الخفقان
فكيف ترى كأسين تختلفان
يشيب الفتى فى مصر قبل أوان
صنيعة احسان ورق حسان
وأغنوا إذا اقتاد الجمال عنانى

والفرق بين القطعتين واضح ، فالأولى قوية تزخر بالحياة لأن
الشاعر ألقى بها وهو واجد محزون ، أما الثانية فوسط بين الجيد
والرديء لأن الشاعر قالها وهو شاب يتكلف سامة الشيوخ ليثبت
أن الفتى يشيب فى مصر قبل أوان المشيب والضعف ظاهر فى قوله:
أتذكر إذ نعطى الصبابة حقها ونشرب من صرف الهوى بدنان
وقوله :

وأيام لا آلو رهانا مع الهوى وأنت فؤادى عند كل رهان
والفتور ملموس فى قوله :

وأنت خفوق والحبيب مباعد وأنت خفوق والحبيب مدان
على أنه اختلس هذا المعنى من قول بعض الأقدمين :

وما فى الأرض أشقى من محب ولو وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل حال مخافة فرقة أو لاشتياق
فيكى ان نأوا شوقا اليهم ويبكى ان دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التئامى وتسخن عينه عند التلاقى

وفى القطعة الثانية عيب آخر وهو التناقض فى عرض نفسية

الشاعر، فهو يحدثنا أولاً أنه ودع عهد الشباب ويذكر أن رد الصبا من المستحيل ، ثم يعود فيذكر أنه لا يزال في ريع الشباب وإن الله بنى هيكله صنعة احسان ورق حسان ، فهو في أول القطعة يندب شبابه، وهو في آخرها يتغزل في نفسه فيذكر أن قوامه كالغصن الرطيب ؛ وفي هذه الحيرة الفنية دليل على أن الشاعر لا يعنى ما يقول

ولنتظر كيف يخاطب قلبه من كلمة ثالثة :

أرقت وعادتني لذكرى أحبتى شجون قيام بالضلوع قعود

ومن يحمل الأشواق يتعب ويختلف

عليه قديم في الهوى وجديد

لقيت الذى لم يلق قلب من الهوى

لك الله يا قلبى أنت حديد

وهذا شعر لا بأس به ولكن ما معنى قوله :

لك الله يا قلبى أنت حديد ؟

انا نظن أن هذا التعبير لا يخلو من ابتذال

ومن الانصاف أن نذكر أننا نستجيد من هذه القصيدة القطعة

الآتية :

وروض كما شاء المحبون ظلّه	لهم ولأسرار الغرام مديد
تظللنا والطير فى جنباته	غصون قيام للنسيم سجود
تميل الى مضنى الغرام وتارة	يعارضها مضنى الصبا فتجيد
مشى فى حواشيها الأصيل فذهبت	وماس عليها الحلوى وهى تميد
وقامت لديها الطير شتى : فآنس	بأهل ومفقود الأليف وحيد
وباك ولا دمع وشاك ولا جوى	وجذلان يشدو فى الربى ويشيد
وذو كبرة لم يعط بالدهر خبرة	وعريان كاس تزدهيه مهود
غشيناه والأيام تندى شبيبة	ويقطر منها العيش وهو رغيد
رأت شفقا ينعى النهار مضرجا	فقلت لها حتى النهار شهيد

فقلت وما بالطير ؟ قلت سكينه
أحل لنا صيدان : يوم الهوى مها
يحطم رمح دوننا ومهند
ونحكم حتى يقبل الدهر حكمنا
فما هي مما نبتغي ونصيد
ويوم تسل المرهفات أسود
ويقتلنا لحظ ويأسر جيد
ونحن لسلطان الغرام عبيد

وهذا من الشعر البارع الجيد السبك وان كنا ننكر عليه البيتين
الأخيرين ، لأن شوقي لم يكن يوما من رجال السيف ، حتى يصطاد
المها في يوم الهوى ويصطاد الاسود في يوم الجلال ، وهو قد سرق هذا
المعنى من عبد الله بن طاهر اذ يقول :

نحن قوم تديننا الأعين النجـ ل على أننا نذيب الحديد
وترانا عند الكريهة أحرا رأ وعند الغواني عبيدا

وعبد الله بن طاهر يقول ويفعل : لأنه كان من كبار القواد ومن
أقدر الناس على مقارعة الهيجاء ، في حين أن شوقي حدثنا في مقدمته
القديمة للشوقيات أنه كان يجتاز ميدان عابدين على ظهر أتان !

الجزل والرقيق :

شوقي يؤثر الرقيق على الجزل في الغزل والنسيب ، ولا عيب فيه
إلا أنه كما قيل يسيل رقة حتى يصل الى النعومة واللين ، والى القارىء
هذه الأبيات :

يا حسنه بين الحسنان	في شكله ان قيل بان
كالبدر تأخذه العيو	ن وما لهن به يدان
ملك الجوانج والفؤا	د ففى يديه الخافقان
ومناى منه نظرة	فعسى يشير الحاجبان
فعسى يزكى حسنه	من لا له فى الحسن ثان
فدعوه يعدل أو يجو	ر فانه ملك العنان
حق الدلال لمن له	فى كل جارحة مكان

والتعبير عن ذلك المحبوب بأنه « حسن فى شكله » من التعابير
العامية ، ولكن لا بأس فلعل ذلك الطبقى كان يلعب فى الحارة حينذاك .
وزكاة الحسن ما موضعها هنا ؟ ان الشاعر يجارى بعض المتقدمين
فى هذا المعنى ، وكان ينبغى أن يلحظ أن هذا من أخيلة الفقهاء .

ونشوقى قطعة رقيقة قالها فى بعض الناس ووهبها للغناء ، وهى

منك يا هـاجر دائى	وبكفىـك دوائى
يا منى روحى ودنيا	ى وسؤلى ورجائى
أنت ان شئت نعيمى	واذا شئت شـقائى
ليس من عمري يوم	لا ترى فيه لقائى
وحياتى فى التـدانى	ومماتى فى التـنائى
نم على نسيان سهدى	فيك واضحك من بكائى
كل ما ترضاه يا مولا	ى يرضاهـه ولائى
وكما تعلم حـبى	وكما تدرى وفائى
فيك يا راحة روحى	طال بالواشى عنائى
وتواريت بـدمعى	من عيون الرقباء
أنا أهـواك ولا أر	ضى الهوى من شركائى
غرت حتى لتـرى أر	ضى غيرى من سمائى
ليتنى كنت رداء	لك أو كنت ردائى
ليتنى ماؤك فى الغـ	ة أو ليتـك مائى

وهذا شعر مقبول ، ولكن هل يستطيع شوقى أن يدلنا على بيت
واحد فيه شىء من الابداع ؟ وما باله يرضى بأن يقدم للغناء هذه المعانى
التي ردها مئات الشعراء ؟

وهناك قصيدة أجزل من هذا وهى التى يقول فيها :

وقالوا فى البديل رضا وروح لقد رمت البديل فرمت صعبا
وراجعت الرشاد عساي أسلو فما بالى مع السلوان أصبى
إذا ما الكأس لم تذهب همومى فقد تبت يد الساقى وتبا
على أنى أعف من احتساها وأكرم من عذارى الدير شربا

وهى قصيدة أكثرها مستجاد ، وإنما نقلنا هذه الأبيات لنسأل شوقى
عن معنى قوله :

إذا ما الكأس لم تذهب همومى فقد تبت يد الساقى وتبا

لأننا لا نفهم موجب هذه الدعوة البشعة فى الشطر الاخير وما ذنب
الساقى إذا تحجرت نفس الشارب فى حضرة الصهباء ؟ وقد نفهم أن
يكون شوقى أعف من احتسى الراح ، ان كانت تبقى على عفاف ، ولكننا
لا ندرى كيف رأى أن يحدثنا أنه أكرم من عذارى الدير شربا !! لقد
كان أولى للشاعر أن يذكر أنه أقسى الشاربين فتكا ، لا أنه أكرم شربا
من العذارى المتبتلات ، فان الراح لا تثير معانى الحنان الا فى النفوس
الضعاف !

ثم ما قيمة قوله فى كلمة أخرى :

حبتك ذات الخال، والحب حالة إذا عرضت للمرء لم يدر ماهيا
وانك دنيا القلب مهما غدرته أتى لك مملوءا من الوجد واقيا
وبين الهوى والعذل للقلب موقف كحالك بين السيف والنار ثاويا
وبين المنى واليأس للصبر هزة كخصرك بين النهد والردف واهيا

ويا ليت الشاعر أسقط أمثال هذه الأبيات من الديوان

وما قيمة قوله أيضا يستعطف محبوبته :

فحسب خدى من عيني ما شربا فمثل ما قد جرى لم تلق عيناى

وآين وجه الحسن فى قوله :

يا من هجرت الى الأوطان رؤيتها فرحت أشوق مشتاق لأوطان
أتذكرين حنيني في الزمان لها وسكبي الدمع من تذكراها قاني
وغبطي الطير ألقاه أصبح به ليت الكريم الذي أعطاك أعطاني

وبعد فقد كانت هذه الرسائل الثلاث تذكرة للقارىء بما في
باب النسيب من مواطن القوة والضعف ، أردنا بها توجيه الأنظار الى
الجزء الثاني من الشوقيات ، ونحن أبعد الناس عن التحامل على بلبل
النيل الذي يقول :

وقلت له صبرا فكل أخى هوى على يد من يهوى غدا سيتوب

أحمد شوقي

والموازنة بينه وبين بعض الشعراء

عرفنا أن للشاعر أحمد شوقي حظ عظيم من عناية زكى مبارك،
وان الصلة التي توطدت بين الاثنين فى يوم من الايام وفترت بعد
ذلك ، لم تمنع زكى مبارك من ان يظل مشغولا بأحمد شوقي ، فنقد
الشوقيات وكتب عن الغزل فى شعر شوقي ♦

ويقول زكى مبارك : « شوقي معروف فى مصر والشرق ، وهو
خير بأسرار اللغة العربية ، وبصير بشئون الحياة ، وله كلف بمعارضة
المقدماء » ولهذا فقد رأينا زكى مبارك يوازن بين الشاعر شوقي وبين
الشعراء الحصرى والبحترى والبوصيرى ، والبارودى ، وابن زيدون ♦

ونحن نرى أن شوقي عارض الحصرى فى قصيدته الدالية :

يا ليل الصب متى غده ؟

حين نظم شوقي داليتيه :

« مضناك جفاه مرقده ♦

وان شوقي حين نظم قصيدته السينية فى وصف قصر الحمراء
كان يعارض بها سينية البحترى فى وصف ايوان كسرى ♦

يقول البحتري :

صنت نفسي عما يدينس نفسي
وترفعت عن ندي كل جيس

ويقول شوقي :

اختلاف النهار والليل ينسى
اذكروا لي الصبا وأيام أنسى
وللبوصيري قصيدته المشهورة « البردة » والتي يستهلها
بقوله :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دما جرى من مقلة بدم
ويعارضها شوقي بقصيدته المشهورة أيضا « نهج البردة »
فيقول :

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم
(وللبارودي قصيدة اسمها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة »
يقول البارودي في مطلعها :

يا رائد البرق يمم داره العلم
واحد الغمام الى حي بذي سلم
والقصيدة طويلة وفيها أيضا وصف للبارودي للغار الذي أوى
اليه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق ، فيقول البارودي بين
ما يقول :

وجاءه الوحي ايدانا بهجبرته
فيمم الغار بالصديق في الغمم

والتي عارضها البوصيري :
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم
ويعارضها شوقي في ميمته قائلا :
سل عصبة الشرك حول الغار حائمة
لولا مطاردة المختار لم تحم
ثم هناك نونية ابن زيدون المشهورة :
أضحى التنائي بدلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
وهناك معارضة شوقي لابن زيدون في قصيدته النونية المشهورة
أيضا :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجي لواديك أم نأسى لوادينا
والآن مع زكي مبارك ونقده الممتع في الموازنة بين الشاعر أحمد
شوقي والشعراء الذين عارضهم الشاعر أحمد شوقي •

الحصرى وشوقي

ندخل فى بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل : وهو الموازنة بين القصائد المشهورة التى جرت مجرى المعارضة والمماثلة ، كما فعل ابن المعتز فى معارضة الحسين بن الضحاك وابن عبد ربه فى معارضة مسلم بن الوليد وابن دراج فى معارضة أبى نواس ، والبارودى فى معارضة أبى فراس ، الخ ..

ولهذا البحث أهمية كبيرة ، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة وسيرينا كيف تتناول العقول ، وكيف تتسابق القرائح ، اذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعا من السباق فى عالم البيان •

ولنبداً بالموازنة بين دالية الحصرى (١) « ياليل النصب متى غده » ودالية شوقى « مضناك نجفاه مرقده » فان لهاتين القصيدتين أثرا فى أندية الأدب ومجالس الغناء ، ومن الخير أن نبيط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن ، ومظان الضعف ، وان نبين : أى الشاعرين أبرع لفظا وأشرف معنى واسمى خيالا •

والحصرى (٢) — بضم الحاء المهملة ، وسكون الصاد المهملة :

(١) الموازنة بين الشعراء للدكتور زكى مبارك الطبعة الثانية صفحة ١٠٩ •

وبعدها راء مهملة هو أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى المقرئ
الضرير القيروانى ، وهو ابن خالة ابى اسحاق الحصرى صاحب كتاب
زهر الآداب ، وقد ذكر ابن بسام فى الذخيرة ان ابا الحسن الحصرى
كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، وانه طرأ على الأندلس
منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والأدب
بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق معمور الطريق فتهاداه ملوك الطوائف
تهادى الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالانس المقيم .
ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك فاحتل على مضض بين زمانه
وبعد قطرة ، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف
وتوفى بها رحمه الله سنة ٤٨٨ .

وله قصيدة طويلة فى قراءات نافع ، وله ديوان شعر (٣) وهو
القال :

أقول له وقد جيا بكأس لها من مسك رفته ختام
أمن خديك تعصر قال كلا متى عصرت من الورد المدام

ويقول ابن بسام فى وصفه « على انه كان فيما بلغنى من ضيق
العطن ، ومشهور اللسن ، يتلفت الى الهجاء تلفت الظمان الى الماء »
وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا
الشاعر المجيد ، فان كلمة ابن بسام لا تفيد غير الظن ، وأين الظن من
اليقين .

ويمكن الحكم بأنه كان خيرا باسرار اللغة العربية ، فان التأليف
فى علم القراءات يدل على ذلك ، ويمكن الحكم أيضا بأنه كان بصيرا

(٢) ذكر ابن خلكان انه منسوب الى الحصر التى تفرش وقد حدثنا السيد حسنى
عبد الوهاب انه منسوب الى الحصر وهى قرية قديمة بالقرب من القيروان .
(٣) راجع وفيات الأعيان .

شؤون الحياة فان فى الاغتراب وصحبة الملوك عونا على فهم دقائق
الوجود .

أما شوقى فشاعر معروف فى مصر والشرق وله كلف بعارضة
القدماء وهو كذلك خير بأسرار اللغة العربية وبصير بشؤون الحياة
وهو كالحصرى افتتح قصيدته بالنسيب واختتمها بالمديح ولكنى
سأقتصر فى الموازنة على صدر القصيدتين ، اذ كان النسيب هو السبب
فيما يرجى لهما من الخلود ، ان كان لهذا العالم حظ فى الخلود :

قصيدة الحصرى

يا ليل الصب متى غده	أقيام الساعة موعده
رقد السمار وأرقبه	أسف للبين يمرده
فبكاه النجم ورق له	مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذى هيف	خوف النواشين يشرده
نصبت عيناي له شـركا	فى النوم فعز تصيده
وكفى عجباً أنى قنص	للسرب سبائى أغيده
صنم للفتنة منتصب	أهواه ولا أتعبده (١)
صاح والخمر جنى فمه	سكران اللحظ معربده
ينضو من مقلته سيفاً	وكان نعاساً يغمدده
فبريق دم العشاق به	والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت	عيناه ولم تقتل يده
يا من جحدت عيناه دمي	وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمي	فعلام جفونك تجحده
انى لأعيذك من قتلى	وأظنك لا تتعمده

(١) الصنم هو التمثال ولا تزال هذه الكلمة على السنة أمل المغرب وان كانت فر
مصر مما ينكر الدوق .

بالله هب المشتاق كرى	فلعل خيالك يسعده
ما ضرك لو داويت ضنى	صب يدنيك وتبعده
لم يبق هواك له رمقا	قليبك عليه عوده
وغدا يقضى أو بعد غد	هل من نظر يتزوده
يا أهل الشوق لنا شرق	بالدمع يفيض مسوده
بهوى المشتاق لقاءكم	وصروف الدهر تبعده

ما أحلى الوصل وأعذبه	لولا الأيام تنكده
بالبن وبالهجران فيا	لفؤادى كيف تجلده

قصيدة شوقى

مضناك جفاه مرقده	وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه	مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الا رمقا	يقيه عليك وتنفاه
يستهوى الورق تأوّهه	ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه	ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة	شجنا فى الدوح ترددده
كم مد لطيفك من شرك	وتأدب لا يتصيده
ففساك بغمض مسعفه	ولعل خيالك مسعده
الحسن حلفت بيوسفه	والسورة أنك مفرده
قد ود جمالك أو قبسا	حوراء الخلد وأمرده
وتمنت كل مقطعة	يدها لو تبعث تشهده
جحدت عيناك زكى دمي	أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودى اذ رمتا	فاشرت لخدك أشهده
وهمت بجيدك أشركه	فأبى واستكبر أصيده

وهزرت قوامك أعطفه	فنبأ وتمنّع أملده
سبب لرضاك أمهده	ما بال الخصم يعقده
يبنى فى الحب وبينك ما	لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى	باب السلوان وأوصده
ويقول تكاد تجن به	فأقول وأوشك أعبدده
مولاي وروحي فى يده	عد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدق له	وحنايا الأضلع معبدده
حسادى فيه أعذرهم	وأحق بعذرى حسده
قسما بثنايا لؤلؤها	قسم اليساقت منضده
ورضاب يوعده كثره	مقتول العشق ومشده
وبخال كاد يحج له	لو كان يقبل أسوده
وقوام يروى الغصن له	نسبا والرمح يفضده
وبخصر أوهن من جلدى	وعوادى الهجر تبده
ما خنت هواك ولا خطرت	سلوى بالقلب تبرده

الموازنة

ولنذكر أولا ما فى القصيدتين من الأغراض ، وانا لنجد الحصرى
تكلم عن طول الليل • وطيف الخيال وخمر الرضاب ، وسيف المقلّة ،
وجناية العين ، وحمرة الخد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء المحب ،
ونجد شوقى تكلم عن لوعة المضنى ، وطيف الخيال • وجمال المحبوب
وجناية العين ، وحسن القد والجيد ، ودقة الخصر ، والصبر على الوشاة
وتفدية الحبيب ، والرفق بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة
من السلوان ، فقصيدة شوقى اذن أحفل بالأغراض •

مواطن الحسن

ولنوازن بين المطالع ، وانا لنجد الحصرى يقول :

يا ليل الصب متى غده	أقيام انساعة موعده
رقد السمار وأرقه	أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له	مما يرعاه ويرصده

ونجد شوقي يقول :

مضناك جفاه مرقده	وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبه	مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الا رمقا	يقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوّهه	ويذيب الصخر تنهده
ويناجى النجم ويتبعه	ويقيم الليل ويقعده
ويعلم كل مطوقة	شجنا فى الدوح ترددده

والمطلع فى رأينا هو أول صورة شعرية لا أول بيت ، ومطلع شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصرى وخطاب الحبيب فى قول شوقي .

مضناك جفاه مرقده وبكاه ورحم عوده
أرق من خطاب الليل فى قول الحصرى .

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده
وقول الشاعر شوقي فى حيرة الحب وعذابه وفنائه :

حيران القلب معذبه	مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الا رمقا	يقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوّهه	ويذيب الصخر تنهده

هذه الأبيات أوفى وأمتع من قول الحصرى :

رقد السمار وأرقه أسف للبين يردده

وقول شوقى :

ويناجى النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعده
أقرب فى صدره الى الواقع من قول الحصرى .
فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده
وقول الحصرى فى تصيد الطيف :

نصبت عيناي له شركا فى النوم فعز تصيده
وكفى عجباً أنى قنص للسر سباني أغيده
أبرع من قول شوقى :

كم مد لطيفك من شرك وتأدب لا يتصيده
فعساك بغمض مسعفه ولعل خيالك يسعده
لأن الحصرى حدثنا عن حقيقة صادقة وهى تمنع الطيف - فليس
فى طوق المحب أن يظفر بطيف حبيه كلما مد له الأشراك ..

ولا يعجبني تأدب شوقى فى قوله :

كم مد لطيفك من شرك وتأدب لا يتصيده
لأن التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيده لحمدنا
له هيبة الحسن وان الحسن لمهيب الجناح (١) *

ويروئنى قول شوقى :

مولاي وروحى فى يده قد ضيعها سلمت يده
ناقوس القلب يدق له وحنايا الأضلع معبده
حسادى فيه أعذرهم وأحق بعذرى حسده

(١) هذه اللفظة تذكر بقول الشاعر :

حمى نفسه الحسن أضعاف ما حمى نفسه الجبر لما التهب

فإن فيه صورة للوعة المحب يشفق بمحبوبه ويحنو عليه • في
ظلمه وعدوانه ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، وأخلاق
بهذه الأبيات أن تكون صلاة للحسن ، إن قضى الله أن نصلى له ، كما
يصلى فريق للشمس عند الشروق ، والهوى - كما قيل - اله معبوده .
وما أرفق شوقي وأرقه حين يقول :

قد ود جمالك أو قبسا حوراء الخلد وأمرده
فإن الحسن لا يعبد بأرق من هذا الوصف ، وهل العبادة إلا
وصف المعبود بالتفرد والجلال •

وقول الحصرى :

صاح والحر جنى فمه سكران اللحظ معربده

أروع وأبدع من قول شوقي

ورضاب يوعد كوثره مقتول العشق ومشهده

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين ، فإن بيت الحصرى
بيت نادر المثال ، وفيه وحده صورة شعرية رائعة • وما رددته إلا
فتنت به فتنة جديدة وظهر لى منه معنى جديد كالوجه المشرق لا نهاية
لحسنه • ولا حد لقدرته على تصريف القلوب •

ولك أن تتأمل كلمة « جنى » فى قوله :

صاح والخير جنى فمه سكران اللحظ معربده

وما هذه العريضة يا صاح ؟ إنها الاشرار التى يقيدك بها اللحظ ؛
وأنت تنهل من ورده العذب الجميل ••

وقول شوقي :

جحدت عيناك زكى دمي أكذلك خدك يجحده
قد عز شهودى اذ رمتا فأشرت بخدك أشهده

أرق من قول الحصرى :

يا من جحدت عيناه دمي وعلى خديه تورده
خداك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تججده
لأن الاستفهام فى قول شوقى أعطى المعنى شيئا من الحسن .
وزاده تمكينا فى النفس . على ما فيه من الابتذال .
وقد أجاد الحصرى فى استعطاف الحبيب اذ يقول :

لم يبق هواك له رمقا فليبك عليه عوده
وغدا يتضى أو بعد غد هل من نظر يتزوده
ولا نجد هذه النعمة المحزنة فى قصيدة شوقى وانها لتذكرنا بهذا
البيت الحزين :

وأرى الأيام لا تدنى الذى أرتجى منك وتدنى أجلى

مفان الضعف

وانى لاستثقل الصنم المنتصب فى قول الحصرى :
صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبده
لأن كلمة « الصنم » كلمة غير شعرية والعرب تستملح
« الدمية » فى وصف المرأة الجميلة والدمية هى الصورة المنشقة
من الرخام والجمع دمي ، قال بعض الأعراب :
وانى لأهدى بالأوانس كالدمى وانى بأطراف القنا للعبوب
وانى على ما كان من عنجهيتى ولوثة أعرائيتى لأديب
وكذلك استضعف قول الحصرى .

ما أحلى الوصل وأعذبه لولا الأيام تنكده
بالبن وبالهجران فيا لفؤادى كيف تجملده

وأضعف منه قول شوقي :

بينى فى الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده
ما بال العاذل يفتح لى باب السلوان وأوصده
ولا أدرى ما قيمة التعجب فى البيت الثانى من هذين البيتين .
وهو لا يزيد شيئاً عن صوت العامى المشهور « كيد العواذل كايدينى
بس اسمع شوف »

وكذلك لا قيمة لقوله :

وبخصر أوهن من جلدى وعوادى الهجر تبده
وهى مبالغة مردودة لأن الذى يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه
أن يكون أوهن من صبر المحب تعدو عليه عوادى الصدور •
وقد ظلم شوقي نفسه حين قال :

وقوام يروى العصرن له نسيباً والرمح يفسده
كما أساء الحصرى الى شعره اذ قال :
انى لأعيذك من قتلى وأظنك لا تتعمده
فان هذا خيال فقهاء لا خيال شعراء ••

روعة الخيال

وإنه ليكمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصرى وشوقي
من الخيال الرائع وأنا لنستعيد قول الحصرى :

ينضو من مقتله سيفاً وكأن ناعساً يغمده
فبريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتل عينا ولم تقتل يده

وان البيت الأول لمن وثبات الخيال ، وفى البيت الثانى ضعف ،
والثالث مع ضعفه مستملح مقبول ••
ونستجيد كذلك قول شوقى :

ناقوس القلب يصدق له وحنايا الأضلع معبده

والمقارىء أن يلومنا فى استجادة هذا البيت ، وان يذكر أن هذا
أيضا خيال فقهاء ، لا خيال شعراء ، ولنا ان نذكر القارىء بأن المعابد
والتواقيس من الألفاظ التى استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها
الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو وملاعب الشباب ، ولهم فى الأديار
شعر ممتع عنيت بتفصيله فى غير هذا الحديث وكذلك ظرف شوقى
حين تحدث عن المعبد والناقوس وكان خياله قريبا من الحسن من خيال
الحصرى ، اذ توهم للحظ سيفا يكاد يغمده النعاس ، وانى لمفتون
بهذا الخيال •

البراعة فى تناول المعانى

وانا لنرى شوقى أبرع من الحصرى فى تناول المعانى ، ومن السهل
أن نعلل هذا •• فان الحصرى لم يجر فى قصيدته الا على الفطرة
وكان من ذلك أن رضى بغفو خاطر أما شوقى فمعارض من همه أن
يظفر بالسبق • وكان من ذلك أن عنى بترتيب المعانى واختيار الالفاظ
وتنوع الاغراض • على أن هذا التكلف لم يمض بلا عيوب فانه
لا معنى لقول الشاعر شوقى :

وبخال كاد يحج له لو كان يقبل أسوده

ولا رونق لقوله :

وقمت كل مقطعة يدها لو تبث تشهده

الحكم

وللقارىء - ان شاء الحكم - أن يرجع الى ما أسلفنا القول عنه من مواطن الحسن ومظان الضعف • ومواقع الخيال : ليرى أى الشعارين أوفى بالسبق ، وأيهما أرجح فى الميزان • وحسبه أن دللناه على ما فى القصيدتين من المحاسن والعيوب • فأننا لا نعنى بالأشخاص وإنما يعيننا أن ندرس الشعر • وأن نقف على ما فيه من القوة والضعف والحسن والقبح • وكذلك ندرس البيان • ونحن نوازن بين الشعراء •

البحترى وشوقى

قلنا ان لشوقى كلفا بمعارضة المتقدمين من الشعراء ووازننا بين داليتيه ودالية الحصرى فى الكلمة السابقة ، والآن نوازن بينه وبين البحترى فقد عارض سينيته فى وصف ايوان كسرى بقصيدة سينبة وصف بها قصر الحمراء • ولهاتين القصيدتين قيمة كبيرة ، ومن الخير أن نوازن بينهما موازنة دقيقة ، ليقف القارئ على ما فيهما من براعة الوصف وحسن البيان •

ولنذكر أولا أن شوقى يتأثر بالبحترى منذ زمن بعيد • ويود لو ظفر شعره بتلك الديباجة البحترية ، التى ضربت بها الأمثال •

ولننظر كيف يقول فى خطاب « أم المحسنين »

النيل فجر مشرعين وعيلما	وتفجرت يملك خمسة أبحر
أحييت فى فضل الملوك وعزهم	ما مات من أم الخليفة جعفر
ان الذى قد ردها وأعادها	فى بردتيك أعاد فى البحترى

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء :

وعظ البحترى ايوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

حياة البحتري

ولد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٢٠٦ هـ بسنج بين حلب والفرات • ومنبع - بالفتح ، ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم - بلد قديم طيب الهواء • ولد فيه جماعة من فرسان البلاغة منهم : البحتري وأبو فراس • ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد لما دخل منبع : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك • ولي بك يا أمير المؤمنين قال : كيف بناؤه ؟ قال : دون منازل أهلى ، وفوق منازل الناس •

قال وكيف ذلك ، وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال : ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به وأقفو أثره وأحذو حذوه •

قال : فكيف طيب منبع ؟ قال عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الأدوية • قال : فكيف ليلها ؟

قال : سحر كله !

وفي التشويق الى منبع يقول ابراهيم بن المدبر • وقد خلى بها شعبة من قواده :

وليلة عين المرج زار خياله	فهيج بى شوقا وجدد أحزاني
فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحا	بألمح آفاق وأنظر انسان
لعل أرى أبيات منبع رؤية	تسكن من وجدى وتكشف أشجاني
فقصر طرفى واستهل بعبرة	وفديت من لو كان يدرى لفداني
ومثله شوقى اليه مقابلى	وناجاه عنى بالضمير وناجاني

وانما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منبع لتدرك بعض السر فى رقة البحتري وجمال شعره فان للبلد الطيب الهواء ، العذب الماء ، القليل الأدوية ، أثرا كبيرا فى تكوين نفس الشاعر ، والكاتب ،

والخطيب (١) ولان البحترى كان كثير الحنين الى منبج ، وكان كثيرا ما يشيد بها في شعره . وانظر كيف يقول في خطاب أبى جعفر محمد بن حميد الطوسي :

لا أنسين زما لديك مهذبا وظلال عيش كان عندك سحسج
فى نعمة أوطنتها وسكنت فى أفيائها فكأننى فى منبج

بداية حياته

شب البحترى وترعرع فى منبج . وكان يسدح بها فيما يقولون أصحاب البصل والباذنجان قالوا وكان منه ما كان فى علوة التى شرب بها فى كثير من أشعاره ، وهى بنت زريقة الحلبية وزريقة أمها ويظهر من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة لها شأن فى عالم الجمال وأن البحترى حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده الا بين يدي فتاة لعوب ، نشأت فى عهد المرح وتقلبت فوق أعطاف الدلال . . ولو أن العرب لم ينصرفوا عن التصوير لخلفوا لنا دمية لعلوة . وأرونا كيف كانت هذه الفتاة التى أضرمت نار الوجد فى صدر الوليد . وعلمته كيف تكون الشكوى . وكيف يكون الأنين . . وان الشعر لمدين لهذه الالهة التى أوحى الى البحترى أن يقول بعد أن خلاها بالشام وسكن العراق :

أعبدى فى نظرة مستثيب	توخى الأجر أو كره الأثاما
ترى كبدا محرقة وعينا	مؤرقة وقلبا مستهاما
ألام على هوائك وليس عدلا	إذا أحبيت مثلك أن ألاما
لقد حرمت من وصلى حلالا	وقد حلت من هجرى حراما
تناعت دار علوة بعد قرب	فهل ركب يبلغها السلاما

(١) انظر تفصيل هذا المعنى فى الكلام عن أبى الحسن الجرجاني فى الجزء الثانى من كتاب « النشر الفنى » .

وجدد طيفها عتبا علينا فما يعتبادنا الا لماما
وربت ليلة قد بت أسقى بعينها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا وأفنيناه ضما والتزاما
نحن أضحت محلتنا عرافا مشرقة وحلتها شاما
فلم أحدث لها الا ودادا ولم أزد بها الا غراما

وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحتري سلطان * ومن
الوقار ان لا تعرض لها في هذا الحديث وقد بسطنا عنها القول في
كتاب « مدامع العشاق » ويكفى أن نذكر أنموذجا من شعره في وصف
تلك النفس وانه ليقول :

هل لي سبيل الى الظهران من حلب ونشوة بين ذاك الورد والآس
أمد كفى لأخذ الكأس من رشأ وحاجتي كلها في حامل الكاس
بقرب أنفاسه أشفى الغليل اذا دنا فقربها من حر أنفاسي

اتصاله بابي تمام

ولعل، أظهر حادث نقل البحتري من عهد الى عهد هو اتصاله
بابي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين ، فقد صار اليه وهو بحمص
وعرض عليه شعره * وكان أبو تمام يجلس فلا يبقى شاعر الا قصده
وعرض عليه شعره * فلما سمع شعر البحتري أقبل عليه وترك سائر
الناس فلما تفرقوا قال له أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟
فشكا اليه خلة ، فكتب الى أهل معرة النعمان يشهد له بالحق
ويوضيهم باكرامه * قال البحتري « فأكرموني بكتابه ، ووظفوا لي
أربعة آلاف درهم * فكانت أول مال أصبته » وقال البحتري : أنشدت
أبا تمام شيئا من شعري فأنشدني بيت أوس ن حجر :

إذا مقرر من ذرى حد ناب تخمط فينا ناب آخر مقرر (١)

وقال : نعت الى نفسى •• فقلت : أعيدك بالله من هذا ! فقال
ان عمرى نيس يطول وقد نشأ لطيباً مثلك • أما علمت أن خالد بن
صفوان المنقرى رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم وهو من رهطه فقال
يا بنى : نعى نفسى الى احسانك فى كلامك ، لأنا أهل بيت ما نشأ
فينا خطيب الا مات من قبله •

قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا •

وهذه بالطبع وسوسة من أبى تمام ، ولكنها شاهد على حسن
رأيه فى شعر البحتري ، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر
حتى قالوا انه فى اختياره أبلغ منه فى شعره •

وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شعرا لى فى بعض بنى حميد
وصلت به الى مال له خطر فقال لى « أحسنت • أنت أمير الشعراء
بعدي » فكان قوله أحب الى من جميع ما حووته ••

ولا يفوتنا أن نذكر وصية أبى تمام للبحتري فقد نوه بها ابن
رشيقي وساقها صاحب زهر الآداب وهى تدلنا على رأى أبى تمام
فى نظم الشعر وذوقه فى اختيار الأوقات ، وتدلنا على أسلوب البحتري
فى حياته الأدبية فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه وفيها أيضا
نوع من التربية نحب أن نسجله فى هذا الحديث •

قال البحتري : كنت فى حدائنى أروم الشعر وكنت أرجع فيه
الى طبعى ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصصت

(١) الفحل المقرر هو الذى أقرمه صاحبه : تركه عن الركوب والعمل وودعه
للفحلة والقرمة •

وتخمط الفحل : هدر • ومن المجاز : تخمط الرجل : تفضى وثار ، والمراد هنا من
تخمط الناب ظهوره وارتفاعه •

أبا تمام وانقطعت فيه اليه • واتكلت في تعريفه عليه • فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخير الأوقات وأنت قليل الهموم • صـفـرا من الغموم واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الانسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا • والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بيان الصياغة وتوقع الكتابة وقلق الاشواق • • ولوعة الفراق ، فإذا أخذت في مديح سيد ذى اباد ، فاشهر مناقبه واطهر مناسبه، وأبن معاملة وشرف مقامه، ونضد المعاني، واحذر المجهول منها وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه • فإن الشهوة نعم المعين • وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله •

قال البحترى : فأعلمت نفسى فيما قال فوقفت على السياسة (١)

ولهذه الوصية أغراض • • يرجع بعضها الى رياضة النفس تأهبا للقريض ويرجع بعضها الى جوهر الفن ، أما فيما يرجع الى رياضة النفس فأبو تمام مسبق بطائفة من الشعراء والخطباء أوصوا باختيار الأوقات التى تصفو فيها النفس ويلطف الحس • ويستيقظ الوجدان ومنهم من دعا الى الاستنجاد بالمياه الجارية والرباض الحالية • والأماكن الخالية إلا أن أبا تمام • مع أنه — مسبق — وفق كل التوفيق حين قال « واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه فإن الشهوة نعم المعين ، وهذه الكلمة فاصلة فى حياة الفنانين على الإطلاق سواء أكانوا شعراء أم كتابا ، أم مصورين ، أم مثالين ، لأن الاجادة فى الفنون تتوقف على

(١) السياسة هنا حسن التدبير •

الشهوة • ، وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد الا ان كان له
من فنه معبود جديد •

وأما فيما يرجع الى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية
بالنسيب والمديح وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء
فلم يتكلم عن الرثاء ولا الهجاء ولا الفخر ولا الوصف • مع أن الوصف
من أهم ما يعنى به الشعراء ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق
على كل موضوع اذ قال : « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير
الأجساد » وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال ••

ولا يحسبن القارىء أن فى اقبال البحتري على ما أوصاه به
أستاذه دليلاً على أن شعر أبى تمام وشعر البحتري من نمط واحد ••
كلا فان أبا تمام فى وصيته يمثل الأستاذ ولا يقبل أن يمثل الشاعر
لأننا لو حاكمنا شعره الى وصيته لراعنا ما بين المنزعين من الفرق البعيد
ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب • فان أبا تمام لم يتغن بالحسن الا قليلا
وحظه من صدق اللوعة ضئيل •

شخصية شوقى

ومهما يكن من شىء ، فان فى عناية البحتري بوصية أستاذه بيانا
لأسلوبه فى رياضة نفسه وتهذيب شعره فلننظر بهذه المناسبة كيف
يروض شوقى نفسه وكيف يهذب شعره وكيف يتناول ما يقصده الى
نظمه من شتى الأغراض فقد صحبنا شوقى وعاصرناه وهو بحمد الله
يعيش معنا فى مدينة واحدة وقد نقرأ عليه سينيته فى قصر الحمراء قبل
أن نضعها فى الميزان • وأنا لنزن بالقسطاس المستقيم ••

صاحب شوقى ان شئت فستراه قليل الحديث وستعجب كيف
يكون هذا الصيت الذائع لهذا الرجل الصموت • وقد تصفه

بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدين ولكنى وقد عرفت شوقى
أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلى • وليلاه هى الشعر
وهو بالشعر مجنون لا مغرم ولا مفتون فان الغرام والفتنة من أيسر
ما يعرض لأرباب القلوب يحدثك شوقى حديثا عاديا لا روعة له ولكنه
لا ينفك يدور بنظرته الحائرة وكأنه يبحث عن شىء فى لفائف قلبه •
وحنايا نفسه • وأعمى ضميره - دخلت عليه وهو يتأهب لرثاء
عبد اللطيف الصوفانى • فأخذ يحدثنى عن الجامعة المصرية ونظامها
الجديد • ثم بغتنى بهذه الكلمة « الصوفانى بك معضلة من المعضلات
هو تمثال اخلاص • ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء » ؟؟ فعرفت أن
الرجل فى واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية وان قلبه ونفسه
وحسه ووجدانه فى شغل بما يعده لرثاء الصوفانى « تمثال الاخلاص »
وعرفت انه لا بد أن يقول شيئا فى تحديد تلك الشخصية ثم انتظرت
يوم التأين • فاذا هو يقول عن أثر الفقيه فى المجالس النيابية :

ما كان قسا ولا زيادا ولا بسحر البيان جاء
لكن اذا قام قال صدقا وجانب الزور والرياء

وقد وصفه الأستاذ خليل مطران وصفا صادقا حين قال :

« ينظم بين أصحابه فيكون معهم • وليس معهم • وينظم فى
المركبة وفى السكة الحديدية وفى المجتمع الرسمى وحين يشاء وحين
يشاء ولا يعرف جليسه انه ينظم الا اذا سمع منه بادىء غمغمة النفس
الصادر من غور بعيد ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة
المحجرين ثم بصر به وقد رفع يده الى جبينه وأمرها عليه امرارا خفيفا
هنيهة بعد هنيهة فاذا قوطع فى خلال النظم انتقل الى أى بحث يباحث
فيه حاضر الذهن صافيه جميل البادرة كعاداته فى الحديث • ثم اذا
استأنف ذلك المنظوم ولو بعد أيام طوال عاد اليه كأنه لم ينقطع عنه

مستظهرا ما تم منه حافظا لبقية المعنى الذى يضمه يكتب القصيدة بعد
تمامها وربما تمت ونسيها شهرا ، ثم ذكرها فكتبها فى جلسة واحدة —
يكلف أحيانا بمعارضة المتقدمين ، ولا يندر عليه أن ييزهم — لا يجهد
فكره ولا يكده فى معنى أو مبنى فأما المعنى فيجئ على مرامه أو
على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء
ومعارف جامعة الى أفانين الآداب فى لغات الافرنج والأعراب ، وفلسفة
الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التى يحفظ منها غير يسير
الى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استقاها من مطالعته فى صنوف
الكتب ، واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق
والغرب . وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدد مقامات القول : ترى
فيه من نسج البحترى ومن صياغة أبى تمام ومن وثبات المتنبى ومن
مفاجآت الشريف ومن مسلسلات مهيار وفى المجموع تجد صفة
عامة المنظم وهى أنه نظم شوقى : ذلك شعر العبقرية والتفوق » .

ملامح وصفية

واذا ذكرنا عادة البحترى وشوقى فى قرض الشعر فلنذكر كذلك
أنهما يشتركان فى العناية بالآداب العربية فقد ترك البحترى كتابا سماه
«معانى الشعر» (١) وترك كتابا آخر فى الحماسة كالذى تركه أبو تمام
ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات وشوقى وإن لم
يصنف كتابا فى الآداب — يقرأ ويدرس بشراهة تفوق الوصف، ويتعقب
الحركة الأدبية بنشاط عجيب . ويختلفان فى انشاد الشعر والاشادة
به فقد كان البحترى يحتفى بانشاد شعره ويسلك فى ذلك مسلك
التلحين والتطريب ، كان يطيل النظر فى وجوه الحاضرين ليرى مبلغ
اعجابهم به واكبارهم له . حتى تفر الناس منه وعبت أهل السفه به ،

(١) قد يظن أن هذا كتاب فى النقد ولكننا نرجح أنه كان مجموعة من المختارات المرتبة
على حسب المعانى .

وأصحاب المجون • أما شوقي : فقلما يتحدث عن شعره وقلما ينشده
وانما يوكل بانشاده من يتوسم فيه حسن الفهم ، وحسن الاداء ، وهذا
المسلك ، مع ما فيه من دلائل الحياء أو الشمم غير مأمون العواقب
وكثيرا ما آذى الشاعر ، وعاد عليه بالضرر البليغ •

وفاء البحتري وشوقي

ولقد كانت الشاعرية ، ولا تزال ، دالة على سمو النفس ، وبقظة
الوجدان والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس ، وقد وقع للبحتري
وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه مالهما من قوة النفس ومثانة الخلق
وكرم العنصر ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي فلنكتف بهذا
التلميح ولنذكر ما ضير البحتري مثلا في الوفاء •

كان المتوكل — كما ذكر صاحب زهر الآداب — عقد لولده المنتصر
والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، ثم تغير على المنتصر دون أخويه ، وكان
يسميه المنتظر ، ويقول له : أنت تتمنى موتى وتنتظر وقتى ويأمر الندماء
أن يعبثوا به الى أن أوغر صدره وأقل صبره فلما كانت ليلة الاربعاء
لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين كان المتوكل يشرب
مع الفتح في قصره المعروف بالجعفرى ومعه جماعة من الندماء والمغنين
وكان المنتصر معهم فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل ، قال لزرافة
التركى : ألا تسمعنى ساعة حتى أشكو اليك ما يمر بى ؟ قال بلى ،
وجعل يماطله ويمطاوله وغلق بعا الشرابى الأبواب كلها الا باب الماء
ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل وقد ضربوه ضربة قطع بها حبل
عاتقه وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه فقتلا جميعا وبويع المنتصر من
ساعته • قال الحصرى « وكانت مدة المنتصر فى الخلافة مدة شيرويه
ابن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر » — وللظالم الويل ، كانت هذه
القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين • • وكان هذا

الخليفة ولي نعمة البحتري • وكان استبداد المنتصر اذ ذاك كافيا في ردعه عن رثاء مولاه ، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله : ما قيلت هاشمية أحسن منها وقد صرح فيها تصريح من أذهلته المصائب عن تخوف العواقب » وفيها يقول :

تغير حسن الجعفري وانسه	وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه	فأضت سواء دوره ومقابره
ولم أر مثل القصر اذ ريع سربه	واذ ذعرت اطلاؤه وجأذره
واذ صيح فيه بالرحيل فهتكت	على عجل أستاره وستأثره
اذا نحن زرناه أجـد لنا الأسى	وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
فأين عميد الناس في كل نوبة	تنوب وناهى الدهر فيهم وآمره
تخفى له مغتاله تحت غرة	وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
صرع تقاضاه السيوف حشاشه	يجود بها والموت حمر أظافره
حرام على الراح بعدك أو أرى	دما بدم يجرى على الأرض مائره
وهل يرتجى أن يطلب الدم طالب	مدى الدهر والموتور بالدم واطره
فلا ملى الباقي تراث الذى مضى	ولا حملت ذاك الدماء منابره

ونظرة واحدة الى ما كان يجرى فى تلك العصور من الظلم والاضطهاد تريك أن البحتري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة ، انه لم يقف عند هذا الحد ، بل كان يرتاح فى كثير من شعره الى ذكر المتوكل بن خاقان وانظر كيف يفض شعره بالأسى وهو يقول لبعض من يملحه :

تداركنى الاحسان منك ونالنى	على فاقة ذاك الندى والتطول
ودافعت غنى حين لا الفتح يرتجى	لدفع الأذى عنى ولا المتوكل

وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية :

مضى جعفر والفتح بين موسى وبين قاتل فى الدماء مخرج

أأطلب أنصبارا على الدهر بعدما
ثوى منهما فى الترب أوسى وخزرجى
وانظر كيف يقول وقد بان بعض من يهوى :

عسى آيس من رجعة الوصل يوصل	ودهر تولى بالأحبة يقبيل
أيا سكنا فات الفراق بنفسه	وحال التعادى دونه والتزيل
أتعجب لما لم يفعل جسمى الضنى	ولم يخترم نفسى الحمام المعجل
فقبلك بان الفتح عنى مودعا	وفارقنى شفعا له المتوكل
فما بلغ الدمع الذى كنت أرتجى	ولا فعل الوجد الذى خلت يفعل
وما كل نيران الجوى تقتل الحشا	وما كل أدواء الصباة تقتل

تلك هى نفس البحترى الذى عذبتة علوة فى بداية حياته وصهره
الحزن على المتوكل فى أخريات أيامه وقد عرف القارىء عنه شيئا فيه
بعض الغناء وعرف كذلك ما بينه وبين شوقى من الاختلاف والائتلاف .
ومن الواجب أن يعرف منهج هذين الشاعرين فى بكاء الممالك والتفجع
لنكبات الشعوب قبل أن يرى كيف وصف البحترى ايوان كسرى
وكيف وصف شوقى قصر الحمراء .

بكاء الممالك عند البحترى وشوقى

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية لا اجتماعية ، فكان الشاعر
يبكى وجدده ونعيمه وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول ، ولم يهتم
العرب ببكاء الممالك والتفجع للشعوب اذ كانوا فى بداية الحياة ، وكان
الرجل منهم قلما يعنى بغير نفسه وأهله وذويه فكانوا فى شغل بأنفسهم
عن بلايا الانسانية التى تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون .

ثم جاء القرآن فسلك فى الحديث عن الممالك البائدة مسلك
التخويف والترهيب فام يعطف عليها بكلمة ، ولم يستر لها عورة ، لأن

القرآن ثم يكن كتاب شعر ، يرمى الى روعة الفن وجمال الخيال ، وانما كتاب حكمة وموعظة فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق : ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب » .

ولو لم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية لكان شأن غير هذا الشأن ، وهو يتحدث عن فرعون وابليس ومن اليهم من الجبايرة والطفافة ، فقد جرى حديثه عنهم مجرى السمات ، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يفيض لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال . على ان العرب لم يغفلوا عن الاشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفتهم التغنى بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية وان شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو والتحزن لما عفا من ملاعب الشباب فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي :

فام الخلى وما أحس رقادى	والهم محتضر لدى وسادى
من غير ما سقم ولكن شفى	هم أراه قد أصاب فؤادى
من الحوادث لا أبالك أننى	ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموضع تلة	بين العراق وبين أرض مراد
ولقد علمت سوى الذى نبأتنى	أن السبيل سبيل ذى الأعواد
ان المنية والحتوف كلاهما	يوفى المخارم يرقبان سوادى
لن يرضيا منى وقاء رهينة	من دون نفسى طارفى وتلادى

ثم يقول فى بكاء من ساد من الذاهبين :

ماذا أومل بعد آل محرق	تركوا منازلهم وبعد اباد
أهل الخورنق والسدير وبارق	والقصر ذى الشرفات من سنداد

أرض تخيرها لطيب مقيلاها كعب بن مامسة وابن أم دواد
جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة فى ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهمو ماء الفرات يجىء من أطواد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به يوما يصير الى بلى وفساد

ثم عاد الى بكاء شبابه فقال :

اما ترىنى قد بليت وغازنى ما نيل من بصرى ومن أجلادى (١)
وعصيت أصحاب الصباية والصبا وأطعت عاذلتى ولان قيادى
فلقد أروح على التجار رجلا مذلا بمالى لينا أجيادى
لقد لهوت وللشباب لذادة بسلافة مزجت بماء غواد
من خمر ذى نطف أغن منطق وافى بها لدراهم الأمجاد
يسعى بها ذو تومتين مشمر قنات أنامله من الفرصاد
والبيض يرمين القلوب كأنها أدحى بين صريمة وجماد
ينطقن معروفا وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد

ونحا هذا المنحى متمم بن نوبة فى عينيته التى يقول فيها :

ولقد علمت ولا محالة اننى للجاذبات فهل ترىنى أجزع
أفنين عادا ثم آل محرق فتركهم بددا وما قد جمعوا
ولهن كان الحارثان كلاهما ولهن كان أخو المصانع تبع (٢)
لا بد من تلف مصيب فانتظر بأرض قومك أم بأخرى تصرع
وليتأتين عليك يوم مرة ييكى عليك مقنعا لا تسمع

وكذلك نجد فى خطب العرب وأشعارهم شذرات فى التوجع لما
انقرض من الممالك والشعوب ولكنها لا تمثل الوقفات الفنية التى تشد

(١) الأجلاد : جمع جلدة بالتحريك ، وهو القوة .

(٢) المصانع : القصور .

اليها الرحال • كوقفة البحترى عند رسوم الايوان ووقفة شوقى عند
أطلال الحمراء •

ايوان كسرى

وقد يجمل أن نذكر أن ايوان كسرى ، الذى استلم البحترى
أحجاره ، وطاف بأركانه كان مضرب المثل عند الأعراب فقد قيل
لأعرابى :

كيف تصنع بالبادية اذا انتصب النهار ، وانتعل كل شىء ظله فأجاب
وهل العيش الا ذاك ؟ يمشى أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان ، ثم
ينصب عصاه ويلقى عليها كساءه وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه فى
ايوان كسرى ••

وقد حكى فيما نقل ياقوت ان المنصور لما أراد بناء بغداد استشار
خالد بن برمك فى هدم الايوان وادخال آله فى عمارة بغداد • فقال له :

لاتفعل ياأمير المؤمنين • فقال : أبيت الا التعصب للفرس • فقال:
ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ولكنه أثر عظيم يدل على ان ملة ودينا
وقوما اذهبوا ملك بانيه لدين وملك عظيم ، فلم يصنع الى رأيه وأمر
بهدمه فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة فتركه ، فقال خالد : الآن أرى
يا أمير المؤمنين أن تهدمه ، لئلا يقال عنك عجزت عن خراب ما عمره
غيرك ، ومعلوم ما بين الخراب والعمارة ••

وقد تكون الحكاية صحيحة ، وقد تكون خرافة تناقلها الناس
ولكنها على كل حال دليل على منزلة الايوان فى صدور العرب لذلك
العهد ، اما قصر الحمراء الذى بكاه شوقى فهو من قصور الأندلس .
والأندلس هى الفردوس المفقود • الذى يبكيه المسلمون ولتنتظر
فسيجدثنا شوقى عنه أصدق الحديث •

نفسية البحتري

وأريد بنفسية البحتري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين هم بوصف الايوان وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : احدهما في بداية القصيدة والثانية في النهاية أما الأولى فهي الهرب من الهموم ومن ظلم الأقارب بالفرز الى طول الايوان ، ينسى في أكتافها حزنه وبثه ، ويستودعها أساه وشجاء وذلك حيث يقول :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن ندى كل جيس (١)
وتماسكت حيث زعزعتي الدهر التماساً منه لتعسى ونكسى

بلغ من صباية العيش عندي	طففتها الأيام تطفيف بخس
وبعيد ما بين وارد رفاه	علل شربه ووارد خمس (٢)
وكان الزمان أصبح محمو	لا هواه مع الأخس الأخس
واشترائي العراق خطة غبن	بعد بيعي الشام بيعة وكس
لا ترزني مزاولا لاختياري	عند هذى البلوى فتنكر مسي (٣)
وقديما عهدتني ذاهنات	آيات على الدنيئات شمس
ولقد رأيتني بنو ابن عمي	بعد لين من جانيه وأنس
واذا ما جفيت كنت حريا	أن أرى غير مصبح حيث أمسي

ثم انتقل الى الموضوع مباشرة فقال :

حضرت رحلي الهموم فوجهت الى أبيض المدائن عنسى
أتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكرتهم الخطوب التوالى ولقد تذكر الخطوب وتنسى

ونراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان . وليست الدار

(١) الجيس : هو الدنى الجبان .

(٢) الخمس : شر الاطماء .

(٣) لا ترزني : لا تمتحنى .

داره ولا الجنس جنسه، لأن لأهله نعى عند أهله، ولأنهم أيدوا ملكهم
وشدوا قواه بما أمدوهم من الكتائب فى أيام القتال وذلك حيث
يقول :

عمرت للسرور دهرا وصارت	للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدموع	موقوفات على الصبابة حبس
ذاك عندي وليست الدار دارى	باقتراب منها ولا الجنس جنسى
غير نعى لأهلها عند أهلى	غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا ملكنا وشدوا قواه	بكماة تحت السنور خمس (١)
وأعانوا على كتائب أريا	ط بطعن على النحور ودعس
وأرانى من بعد أكلف بالاشراف طرا من كل سنخ وأس (٢)	

وفى هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالاشراف من كل جنس
ويكى المجاد الذهاب ، وان تقطعت بينه وبين أهله الأسباب •

نفسية شوقى

أما شوقى فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحمراء ، فترك
لنا قطعة مثيرة تصف حسه ووجدانه وهو يطوف بذلك البيت ، وقد
سلك شوقى هذا المسلك غير مرة فانا نراه قدم قصيدته فى وصف رومة
برسالة بعث بها الى استاذنا الجليل اسماعيل رأفت ، ونجده فعل مثل
ذلك حين قدم للاستاذ مرجليوث قصيدته فى وصف النيل ، والى القارىء
كلمته عن رحلته الى وطن ابن خفاجه وابن زيدون :

«لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها وفضحها الله بين خلقه وهتك
أزارها ، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها أصبحت واذا العوادي
مقصرة ، والدواعى غير مقصرة ، واذا الشوق الى الأندلس أغلب ،

(١) السنور : السلاح •

(٢) السنخ : الاصل والاجنس •

والنفس بحق زيارته أطلب فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين
بالقطار المجد والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى الخارجة من المحيط
الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط فبلغت النفس
بمراة الأدب وكحلت العين في ثراه بآثار العرب وانها لشتى المواقع ،
متفرقة المطالع في ذلك الفلك الجامع ، يسرى زائرها من حرم الى حرم
كمن يمسى بالكرنك ويصبح بالهرم ، فلا تقارب غير العتق والكرم ،
طليطلة تطل على جسرهما البالى ، واشبيلية على قصرها الخالى ، وقرطبة
منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء ، وكان
البحتري رحمه الله رفيقى في هذا الترحال ، وسميرى في الرحال
والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فانه أبلغ من جلى الأثر
وحيا الحجر ونشر الخبر وحشر العبر ، ومن قام في مأثم على الدول
الكبرى ، والملوك البهايل الغرر ، عطف على الجعفرى حين تحمل عنه
الملا ، وعطل من الحلوى ، ووكل بعد المتوكل للبلى ، فرفع قواعده في
السير وبنى ركنه في الخبر وجمع معاملة في الفكر حتى عاد كقصور
الخلد امتلات منها البصيرة وان خلا البصر ، وتكفل بعد ذلك لكسرى
بايوانه ، حتى زال عن الأرض الى ديوانه وسينيته المشهورة في وصفه
ليست ديوانه وهو تحت كسرى في رصه ووصفه ، وهى تريك حسن
قيام الشعر على الآثار وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار ،
قال صاحب (الفيح القسى فى الفتح القدسى) بعد كلام :

« فانظروا الى ايوان كسرى وسينية البحتري في وصفه ، تجدوا الايوان
قد خرت شعفاته وعفرت شرفاته وتجدوا سينية البحتري قد بقى بها
كسرى في ديوانه اضعاف ما بقى شخصه في ايوانه »
وهذه السينية هى التى يقول فى مطلعها :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن ندى كل جس
والتمى اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :

والمنايا موائل وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس (١)
فكنت كلما وقفت بحجر او طفت بأثر بابياتها واسترحت من موائل
العبر الى آياتها ، وانشدت فيما بينى وبين نفسى :

وعظ البحترى ايوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس
«ثم جعلت أروض القول على هذا الروى وأعالجه على هذا
الوزن حتى نظمت هذه القافية المهلهلة وأتممت هذه الكلمة الريضة
وانا أعرضها على القراء راجيا ان يلحظوها بعين الرضاء ويسحبوا على
عيوبها ذيل الاغضاء » ♦

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقى فهو يسجع ولا يكاد يبين (٢) غير
أنه قد يوفق الى تشاييه مبتكرة تسير مسير الامثال كقوله فى وصف
آثار العرب فى بلاد الاسبان :

« يسرى زائرهما من حرم الى حرم ، كمن يمسى بالكركك ويصبح
بالهرم »

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل »

وهى كذلك تمثل رأيه فى شعر البحترى فهو عنده أبلغ من جلج
الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، وتصور لنا تلك
الكلمة ما كان يجول فى نفس شوقى وكيف كان روح البحترى يطيف
به وهو يطوف بالحمراء ♦

ولا ندرى من هم الذين يذكر شوقى أنهم اتفقوا على أن البديع
الفرد من قصيدة البحترى هو قوله :

والمنايا موائل وأنوشر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

(١) الدرفس : العلم وهى كلمة فارسية

(٢) غضب شوقى رحمه الله من هذه الكلمة وكان يرى نفسه اكتب الناس ونحن
لا نؤمن بقوته الكتابية ولكننا مع ذلك نراه بلغ الغاية فى رسالته عن قناة السويس

وكذا نحب لو تنبه لقوله فى وصف الايوان :
ليس يدري أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس
وقوله فى بكائه :
لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتما بعد عرس
ولشوقى رأيه ، فقد يختلف النقد أحيانا باختلاف الأذواق •

حنين شوقى لمصر

قد رأيت فى الكلمة الماضية أن اليجترى ابتداء سينيته بالتبرم
بالعيش وشكوى الزمان ، والتنكر لظلم الأقربين ، وكان ذلك لأن نزعته
لم تكن اجتماعية وانما كانت فردية • أما شوقى فقد ابتداء سينيته بقطعة
وجدانية تفيض بالحنين الى مصر ، وتزخر بالشوق الى النيل ، وهو
كأنما يتكلم عن نفسه ، ويحدث الناس عن شجونه ، ولكنه فى الواقع
ينوجع لما يعانى وطنه من وطأة الظلم ويتفجع لما تقاسى بلاده من قسوة
الاضطهاد وانه ليبكى ملاعب شبابه وعهود صباه حين يقول فى مطلع
هذه السينية •

اختلاف النهار والليل ينسى فاذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفالى ملاوة من شباب صورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت سنة حلوة ولذة خلس

ثم يأخذ فى الحديث عن مصر فيقول :

وسلا مصر هل سلا القلب عنهما أوأسا جرحه الزمان المؤسى
كلما مرت الليالى عليه رق والعهد فى الليالى تنسى
مستطار اذا البواخر رنت أول الليل أروع بعد جرس
ولا أحب أن أنتقل الى خطاب شوقى للباخرة قبل أن أنبه القارىء
الى روعة الحسن فى قوله :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أوأسا جرحه الزمان المؤسى
فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالى ، وجعل جرحه
فى هوى مصر أعضل من أن يطلب له الزمان ، وانظر كيف وصف قلبه
حين قال :

كلما مرت الليالى عليه رق والعهد فى الليالى تقسى
مستطار اذا البواخر رنت أول الليل أوعوت بعد جرس
وها هو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق
أو هب النسيم كما كان يتحدث الأعراب ، وانما يصف ما يحسبه
الغريب على شواطئ المحيط ، وأين وميض البرق ، وهبوب الريح من
أصوات البواخر فى غسق الليل ؟ ثم قال :

يا ابنة اليم ما ابوك بخيل ماله مولعا بمنع وحبس
أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل الا فى خبيث من المذاهب رجس
والتارىء يتلقى هذه الأبيات الآن بشيء من الطمأنينة ، أما
الذين قرأوها يوم قالها شوقى فاهم فيها رأى ، ومن كان فى ريب من
هذا فليذكر الأحكام العرفية لا قدر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة
فقد كنا نتغنى بقول شوقى :

أحرام على بلابله الدو ح حلال للطير من كل جنس
ثم يتمثل مصر فى صورة الشجرة الوريقة نفرت عنها البلابل
المغردة ثم صارت مأوى لليوم ومقيلا للغربان ، وكذلك كانت مصر فى
ذلك الحين فكان شهيد الحرية محمد فريد يرسل الأمانى عساها تقبل
ثرى مصر ، وتنهل من سلسيل النيل ، ثم لا تجاب له طلبه ، ولا يدنو
منه مأمول فى حين أن بلاد الفراغة كانت مفتحة الأبواب لكل أثيم
القلب ، وقاح الوجه خبيث اللسان وسيظل قول شوقى :

أحرام على بلبله السدو ح حلال للتفسير من كل جنس
سيظل هذا البيت مثلاً للشجى والأسى ، حتى تغدو تلك الشجرة
ذات الظلال والأفنان وهى للبلبل مأوى وللطواويس مقيلاً ، أما
قوله :

كل دار أحق بالأهل الا فى خبيث من المذاهب رجس
فهو رمية مسددة فى صدر الظلم ، ونحر الاستبداد وسيظل غصة
يشجى بها بعض الحلو ، ثم قال فى خطاب الياخرة :

نفسى مرجل وقلبي شرع	بهما فى الدموع سبرى وأرسى
واجعلى وجهك « الفئار » ومجرا	ك يد « الثغر » بين رمل ومكس
وطنى لو شغلت بالخلد عنه	نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد فى سلسيل	ظماً للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفونى	شخصه ساعة ولم يخل حسى
يمسح الفكر والمسلة	ناديه وبالسرحة الزكية يمسى

وأى نفس يمثلها شوقى فى هذا الشعر البديع انه والله يشل
النفس المصرية وحسبى أن أقول : النفس المصرية ، وهل فى الدنيا
— ولولا التقى لأضفت اليها الآخرة — وطن خلى بأن يعذب فى سبيله
أبناءؤه مثل وادى النيل ؟

ان الذى يعيش فى مصر وله ذوق شوقى واحساسه ليس بكثير
عليه أن يقول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه	نازعتنى اليه فى الخلد نفسى
وهفا بالفؤاد فى سلسيل	ظماً للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفونى	شخصه ساعة ولم يخل حسى

ولقد كانت مصر ولا تزال باباً من الفتنة لكل من يمسى وله فيها
رأى مطاع ، وبفضلها يقول فرعون :

« أليس لى ملك مصر وهذا الانهار تجسرى من تحتى أفلا تبصرون » ولقد يذكرون ان المأمون قال لجنوده وهو يشاهد الأهرام: « أبهذه كفر فرعون بربه » فقال له أحد وزرائه يا أمير المؤمنين ان الله يقول « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فاذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون العذر ان غلب عليه الضلال *

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة وتغرس فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك ، ويحجب اليه العدوان ، وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطا من أسباب الفتنة فى هذه البلاد !

ثم يقول شوقى وهو يمثل الجزيرة والنيل :

وكأنى أرى الجزيرة أيكا	نعمت طيره بأرخم جرس
هى بلقيس فى الخمائل صرح	من عباب وصاحب غيرنكس
حسبها أن تكون للنيل عرسا	قلبها لم يجن يوما بعرس
لبست بالأصيل حلة وشى	بين صنعاء فى الثياب وقس (١)
قدها النيل فاستحت فتوات	منه بالجسر بين عرى ولبس
وأرى النيل كالعقيق بوادى	سه وان كان كواثر المتحسى
ابن ماء السماء ذو الموكب الفخ	سم الذى يحسر العيون ويخسى
لا ترى فى ركابه غير مشن	بجميل أو شباكر فضل غرس

وهذا خيال وادع جميل ، ولكن شوقى لم يصبر عليه بل عاد الى هجيره من النوح على مجد خوفو ورمسيس وأخذ يقول :

وأرى الجيزة الحزينة ثكلى	لم تفق بعد من مناعة رمسى (٢)
أكثرت ضجة السواقى عليه	وسؤال اليراع عنه بهمس

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والغمام من أرض مصر تنسب اليه الثياب القسية .

(٢) يريده رمسيس .

وقيام النخيل ضفرن شعرا وتجردن غير طوق وسلس (١)
وكان الاهرام ميزان فرعو ن يوم على الجبابر نحس
أو قناطره تألق فيها ألف جاب وألف صاحب مكس
روعة فى الضحى ملاعب جن حين يغشى الدجى حماها ويغشى

وكذلك يحسب شوقى وهو يندب مجد الفراعنة أن ما فى الطبيعة
من ماء ونبات وجمال يكى معه ذلك الملك الذى بطش به القدر وعدا
عليه القضاء ♦

والشاعر حين يرضى يحسب الكون يتسم لا بتسامه، وحين يغضب
يحسب الكون يكتب لا كتأبه، ولعل هذه السذاجة هى أظرف ما فى
الشعراء اذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة، وكم فى الطفولة
من معان تسكن اليها شوارد النفوس ♦

ثم انتقل شوقى الى الحديث عن أبى الهول فقال :

ورهبين الرمال افطس الا أنه صنع جنة غير فطس
تتجلى حقيقة الناس فيه سبع الخلق فى أسارير انسى
لعب الدهر فى ثراه صبيا والليالى كواعبا غير عنس (٢)
ركبت صيد المقادير عيني به لنقد ومخليه لفرس
فاصابت به الممالك كسرى وهرقلا والعبرى الفرنسى

وهذا أيضا خيال شعراء فهو يتوهم ان المقادير ركبت عيني أبى
الهول لنقد الحوادث واعدت مخليه لافتراس الطغاة، ولكن هيهات
لما يظن هيهات، والويل لأمة تنتظر فى خمود حتى يثار لها قعيد
الصحراء ♦♦

على أن من الحق أن نبين أن شوقى لم يسق هذه الخرافة،

(١) السلس : من قولهم سلسلت النخلة اذا ذهبت منها أصول السعف .

(٢) عنس : جمع عانس وهى الفتاة يطول مكثها فى دار أبيها بعد ادراكها حتى تخرج

من عداد الابكار .

وهو يحسبها حقيقة انما هو الفن يقضى على صاحبه باستغلال موارد
الخيال ، وأبو الهول - رضى الله عنه ان كان وليا وجل جلاله ان كان
الها - محبوب قديم طالما قدمت له القرابين ولا يزال المصريون يتيمنون
بما كان يتيمن به آباؤهم من قبل ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه
كما لا يزال العرب يحسبون حساب السانح والبارح اسوة بما كان
يفعل آباؤهم الأقدمون • ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من اساطير
الاولين ترينا كيف كان « هداة الأمم » يثيرون ما ركذ فيها من العواطف
بالاشادة بما عرف لهم من المعبودات وعلى هذا النهج جرى شوقى فسبح
بحمد أبى الهول فى جملة من قصائده الطوال والشاعر كالخطيب
لا تهسه العقول اذا ظفر بالقلوب •

ثم عاد شوقى الى قلبه وقد غمره الحزن فأخذ يناجيه بهذا الترجيع
الحزين وانظر كيف يقول :

يا فؤادى ! لكل امر قرار	فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقلت لجة الأمور عقولا	كانت الحوت طول سبح وغس (١)
غرقت حيث لا يصاح بطاف	أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشمس نهارا	ويسوم البدور ليلة وكس
ومواقيت للامور اذا ما	بلغتها الأمور صارت لعكس
دول كالرجال مرتهمات	بقيام من الجدود وتعس
وليال من كل ذات سوار	لطمت كل رب روم وفرس
سددت بالهلال قوسا وسلت	خنجرا ينفذان من كل ترس
حكمت فى القرون خوفو ودارا	وعفت وائلا وألوت بعبس
أين مروان فى المشارق عرش	أموى وفى المغرب كرسى

(٢) النفس مرادف للسبح •

وقفه قصيرة

لاحظنا أن شوقي تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة ، ثم الدفع في الحديث عن شوقه لمصر وتفجعه لما تقاسى من عاديات الخطوب فرأيناه يصور الجزيرة ويشل استحياءها حين قدها النيل ، ثم رأيناه يذكر أن الجيزة لا تزال في أثواب الحداد على رسييس وان السواقى لا تيرح ترسل على ذكره الدموع والأنين وان النخيل تجردت من الحزن عليه فلم يبق غليها غير الشعور والاطواق ، ورأيناه كذلك يتكلم عن أبى الهول وعن الاهرام ويتخيل ابا الهول قارعة عتيدة لاهلاك الطغاة ثم رأيناه وقد عاود القلق على مصر ، ولم يقنعه السكون الى الخيال فأخذ يزفر من جديد ويقول

يا فؤادى ! لكل امر قرار فيه يبدو وينجلي بعد لبس
واين هذا القرار ، يا بلبل النيل ، هاته ، وخذ من أرواحنا ما
تشاء !

ثم شرع يصنف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول:

عقلت لجة الأمور عقولا	كانت الحوت طول سباح وغس
غرقت جيث لا يصاح بطاف	أو غريق ولا يصاخ احس
فلك يكسف الشمس نهارا	ويسوم البدور ليلة وكس

ولم تظفر النفس الانسانية برثاء ابرع من هذا الرثاء ، ولا وجدت العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة وهى على جبروتها العسوبة القدر وأضحوكة القضاء ، ومن ذا الذى وقف على القبر الذى ثوت فيه آمال الأمم المعذبة ثم جاد عليها بشل هذه الدمعة الغالية يذرفها مثل شوقي على تلك العقول التى عقلتها لجة الخطوب والتى غرقت حيث لا يصاخ احس ، ولا يصاح بطاف أو غريق •

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لثناء الحمراء ، فقد مهد
شوقي لوقفته على أطلالها تمهيدا هو غاية في اعداد النفس لبكاء المجد
الذهاب ، والملك السليب ، والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة
بمجد العرب كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة ، والشجى يبعث
الشجى ، وهذا كله قبر مالك ، لو يعلم اللاثمون !

ولم يصنع البحترى هذا الصنيع ، وانما حدثنا عما طفت الأيام
من صباية عيشه ، وما كان من غبته حين باع الشام واشترى العراق ،
وكيف رابه نيو ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر ، لين الجانبين ، ثم
قال :

حضرت رحلى الهموم فوجهت الى أبيض المدائن عسى
أسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
وهذا هو عين الاقتضاب ولا يبعد عندى أن يكون الزمن قضى
على جزء من هذه القصيدة وان لم يوجد ما يرجح هذا الظن فقد
كانت هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ولكن المريب هو أن
يزهد البحترى فى حسن التخلص وهو يجبر قصيدة من أروع قصائده
ان لم تكن أجمل. ما قال وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمت
بصلة وثيقة الى ما سينقل اليه واشهر مائه فى هذا الأسلوب قصيدته
الميسية فى عتاب الفتح بن خاقان فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هى
أيضا عتاب وذلك حيث يقول :

يهون عليها أن أبيت متيما أعالج شوقا فى الضمير مكتما

وقد جاوزت أرض العراق وأصبحت

حمى وضلها مذ جاورت أبرق الحمى

بكت حرقة عند الفراق وأردفت

سلوا نهى الأحشاء أن تتضرما

فلم يبق من معروفها غير طائف
يلم بنا وهنا اذا الركب هو ما
وفى هذه القصيدة يقول :

ولم أعرف الذنب الذى سؤتني له
فأقتل نفسى حسرة وتندما
ولو كان ما خبرته أو ظننته
لما كان غروا أن ألوم وتكرما
اذكرك العهد الذى ليس سؤددا
تناسيه والود الصحيح المسلما
أقر بما لم أجنه متصلا
اليك على أنى أخالك ألوما
أى الذنب معروف وان كنت جاهلا
به ولك العتبى على وأنعمسا
ومثلك ان أبدى الفعال أعاده
وان صنع المعروف زاد وتمما

نقول : ان البحتري لم يؤثر التخلص فى قصيدته السينية وانما
آثر الاقتضاب ولا كذاك شوقي فقد أخذ يتكلم عن ويلات الممالك
ونكبات الشعوب ثم دخل فى الموضوع برفق وهو يقول :

أين مروان فى المشارق عرش أموى وفى المغرب كرسى
سقمت شمسهم فرد عليها نورها كل ثاقب الرأى نطس
تم غابت وكل شمس سوى هاتيك تبلى وتنطوى تحت رمس
وعظ البحتري ايوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

نقرر هذا ثم نذكر أن البحتري لا لوم عليه فى أن خات قصيدته
من مثل هذه المقدمة المستعرة التى افتتحت بها قصيدة شوقي لأن ظروف

البحتري وقد ضاق به عيشه وظلمه أهله غير ظروف شوقي وهو يحاول
العودة الى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتكرر له الزمان • وأصله
أهله نار العتوق ، وهو قد خلف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام
صباه ، وترك فيه ما كان يملك من أسباب الحياة ثم هو لا يدري اذا
عاد يقر قراره فليقى عصا التسيار أم تعصف به وشاية جديدة ، تحمله
الى المنفى من جديد ••

ولو كان للبحتري مثل هذا القلب المشرذ ، وهو يشد رحاله الى
الايوان اكان له شأن آخر ، ولكانت شكواه مضرب الامثال ولكن
الشاعر له رسالة يؤديها الى أهل عصره ولا مفر له من ادائها ما دام
له قلب ووجدان وكانت رسالة شوقي حين قال سينيته ان يصف ما يلقى
أهل مصر من الكمد وهم يودعون كل يوم فريقا من ابنائهم الأحرار
ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي اليهم البحر من تفايات الامم واوشاب
الأقطار •• وكان له في ذلك البيت الذي يصلح لكل أمة ولكل جيل :
أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس
وفي مقابله يقول البحتري وهو يتحدث عن نفسه :

واشترائي العراق خطبة غبن بعد بيعي الشام بيعة وكس
ولكن أين هذا من ذاك ؟! وأين قول البحتري في عنف الدهر
وجوره :

وكان الزمان أصبح محمو لا هواه مع الأخس الأخس
ومن قول شوقي في المعنى نفسه :

عقلت لجة الأمور عقولا كانت الجوت طول سبح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاخ لحس
فان هذه صورة شعرية نادرة المثال •

ومطلع البختري :

سنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس
فيه ضعف وانحلال ، وليس بقاطع الدلالة على الالباء ، وخير منه
مطلع شوقي :

اختلاف النهار والليل ينسى فاذكرا لي الصبا وايام أنس
وان كنا لا ندرى بمن يستنجد وقد نسي ايام صباه ورحم الله
ابن الأحنف اذ يقول :

نزف البكاء دموع عينيك فاستعر عينا لغيرك دمعها مدرارا
من ذا يعيرك عينه تبكى بها أرأيت عينا للدموع تعار
ويذكرون ان لورد كرومر حضر عرسا مصريا وسمع المغنى يقول:

« حبيبي غاب ، هاتوه لي يا فاس » فلما سأل المترجم عن معنى
هذا الصوت ووقف على مدلوله قال « ان المصري لكسول وانه ليطلب
حتى من يعينه على رد محبوبة الغائب) وكذلك يطلب شوقي من يحدثه
عن أيام الأنس في عهد الشباب وانه لمطلب عجيب !

بين البختري وشوقي

ولقد أخذ البختري : بعد مقدمته الوجيزة يتكلم عن ايوان
كسرى : ويتحدث عن بناته ويعرض بسكان القفار من الاعراب فيقول:

أنسلى عن الحظوظ وآسى	لمحل من آل ساسان درس
ذكرتهم الخطوب التوالى	ولقد تذكر الخطوب وتنسى
وهو خافضون فى ظل عال	مشرف يحسر العيون ويخسى
مغلق بابه على جبل القبر	سق الى دارتى خلاط ومكس
حل لم تكن كأطلال سعدى	فى قفار من البساسيس ملى

ومساع لولا المحاباة منى
نقل الدهر عهد من الجدد
فكان الجرماز من عدم الأنس
لو تراه علمت أن الليالي
وهو ينبيك عن عجائب قوم
لم تطقها مسعاة عنس وعبس
ة حتى غمدون انضاء لبس
واخلقه بنية رمس
جعلت فيه مأتما بعد عرس
لا يشاب البيان فيهم بلبس

وهذا البيت الأخير تمهيد مباشر لوصف ما في الايوان من النقوش
والتهاويل ، ولنا اليه عودة فلنلاحظ الآن أن البحترى يتجسس وهو
يبين على أثر الايوان في نفسه ، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب
والفرس من شتى الفروق ، وترجع هذه الحبسة الى اتقاء الفتنة ، وكبح
ما يجمع عن هذه المقارنة من شهوة التنافر واثارة الأحقاد ، ولهذا يقول
في هدوء :

حلل لم تكن كاطلال سعدي
ومساع لولا المحاباة منى
في قفار من البساسبس ملس
لم تطقها مسعاة عنس وعبس
وقد صدق ، وان جرح الايوان ، والا فما هي اطلال سعدي ،
ورسوم ليلى وثوى عفراء ؛ ولم يجد شوقي ما يضطره الى مثل هذه
المواربه ، اذا كان يتكلم عن مجد المسلمين والعرب في بلاد اسلامية
مجسوة الاهواء ، ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء :

رب ليل سريت والبرق طرفي
انظم الشرق في (الجزيرة) بالغر
في ديار من الخلائف درس
وربا كالجنان في كنف الزيتو
لم يرعنى سوى ثرى قرطبي
ياوقى الله ما أصبح منه
قرية لا تعد في الأرض كانت
غشيت ساحل المحيط وغطت
وبساط طويت والريح عنسى
ب واطوى البلاد حزنا لدهس
ومنار من الطوائف طمس
ن خضر وفي ذرا الكرم طلس
لمست فيه عبرة الدهر خمسى
وسقى صفوة الحيا ما أمسى
تمسك الارض أن تميد وترسى
لجة الروم من شراع وقلس

ركب الدهر خاطري في ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس
فتجلت لى القصور ومن فيها لا من العز فى منازل قعس
ما ضفت قط فى الملوك على نذ ل المعالى ولا تردت بنجس
ومن الخير أن ندل على الآيات المختارة هنا وهناك ونحن نستجيد
قول البحتري :

ذكرتهم الخطوب التوالى واقعد تذكر الخطوب وتنسى
ولعجز هذا البيت مغزى بديع ، ونستجيد كذلك قوله :

نقل الدهر عهدهن من الجد ة حتى غدون أنضاء لبس
فكان الجرماز من عدم الأنس وأخلاقه بنية رسم
وفى هذين البيتين دقة وخيال وللقارىء أن يتأمل كيف صارت
هذه الحلال :

«أنضاء لبس» وكيف أمسى الجرماز وكأنه « بينة رسم » فأما
قوله :

لوتراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتما بعد عرس
فهو غاية الغايات فى بكاء المغانى ، يتحكم فيها البلى ، وتبطش
بها أيدي العفاء ♦

ونستجيد قول شوقي :

لم يرعنى سوى ثرى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمس
ولمس العبرة من المعانى الدقيقة وقد بلغ غاية الرفق وهو يقول
فى تحية هذا الثرى :

ياوقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسى
ونستجيد كذلك قوله :

ركب الدهر خاطري فى ثراها فأتى ذلك الحمى بعد حدس

يصف تلك البقعة بالدروس ويذكر انه ضل ولم يهتد الا بعد
أن ركب خاطره الدهر ومع هذا لم يصل الا بعد توهم وحدث وتلك
وثبة ومن وثبات الخيال •

ثم أخذ البحتري يصف ما فى الايوان من صور المعارك فقال :

فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وانوشروان يزجى الصفوف تحت الدرس
فى اخضرار من اللباس على أصفر يختال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه فى خفوت منهم وانماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح ومليح من السنان بترس
تصف العين انهم جد أحياء لهم بينهم اشارة خرس
يقتلى فيهم ارتياى حتى تتقراهمو يدأى بلمس

وهذه القطعة من أدق ما قيل فى الوصف ، يذكر أنه شهد فى
الايوان صورة كسرى وهو يحاصر انطاكية وانك لو رأيت هذه الصورة
لارتعت من حملة الفرس على الروم وكيف يرتاع المرء وهو يشاهد
صورة على الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن فهو يذكر انك حين ترى
هذه الصورة لا يخطر ببالك انها صورة وانما تحسب لصدق التصوير
أنك فى ميدان القتال والمنايا موائل امامك وانوشروان يزجى الصفوف
تحت اللواء • ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب وما
هم عليه من اثار الخفوت ، بين مشيح بالرمح ، ومليح بالسنان وانظر
كيف يقول :

تصف العين أنهم جد أحياء لهم بينهم اشارة خرس
يقتلى فيهم ارتياى حتى تتقراهمو يدأى بلمس

فهو يراهم جد أحياء وان لم يسمع لهم صوت ، لأن فى سماتهم
ما يدل على اكتفائهم بالاشارة كما يكتفى الخرس ، ثم يعود الى نفسه

فيذكر انه أمام صورة ، ثم يغلب على حسه فيرتاب فيسا يراه فيلس
الصورة بيده ليعرف أحقيقة هي أم خيال ؟ والمصور الحاذق هو
الذى يسيغ على صورته أثواب الحياة . ولقد أذكر أنى شهدت فى
أطلال الفراغة بالأقصر صورة سمكة ولم أكد أملاً منها عينى حتى
خاتها تتقلب . وكذلك يسحر الفن الجميل .

ولقد، نحا شوقى منحنى البحرى فى الوصف وان اختلف
الموصوف ، فقال وقد تجلت له تلك القصور :

وكأنى بلغت للعلم بيتا	فيه مال العقول من كل درس
قدسا فى البلاد شرقا وغربا	حجه القوم من فقيه وقس
وعلى الجمعة الجلالة (والنا	صر) نور الخميس تحت الدرفس
ينزل التاج عن مفارق (دون)	ويحلى به جبين (البرنس)
سنة من كرى وطيف أمان	وصحا القاب من ضلال وهجس
واذا السدار ما بها من انيس	واذا القوم ما لهم من محس
ورقيق من البيوت عتيق	چاوز الألف غير مذموم حرس
أثر من (محمسد) وتراث	صار (للروح) ذى الولاء الامس
بلغ النجم ذروة وتنسأهى	بين (تهلان) فى الأساس و (قدس)
مرمر تسبح النواظر فيه	ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها فى استواء	ألفات الوزير فى عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطورها	ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
ويجهها كم تزينت لعليهم	واحد الدهر واستعدت لخمس
وكأن الرفيف فى مسرح العي	ن ملاء مدبرات الدمقس
وكأن الآيات فى جانيبه	بتنزلن من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال	لم يزل يكتسيه أو تحت قس
ومكان الكتاب يغريك ريا	ورده غائبا فتدنو للمس

وهذه القطعة على طولها لا تسبو الى ما وصلت اليه تلك النفثة
البحترية من فتنة القلب والوجدان ، ولعل السر في هذا أن البحترى
وجد في الايوان صورة للحرب بين الفرس والروم وصورة الحرب
تهز النفس وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة ، أما شوقي فقد
وجد بالقصر آيات من القرآن لم يذكر أكانت في وصف الجنة أم في
الدعوة الى القتال ؟ والفن الذى يستمد قوته من الأصول الدينية
الوادعة الهادئة لا يصلح الا للكحول والويل للأمم اذا لم تغلب عليها
الفروسية ولم يستبد بها مافى الشباب من نشاط وجنون .

وما أبعد الفرق بين قول البحترى :

والمنايا موائل وأنوشسر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
وبين قول شوقي :

وعلى البسعة الجلالة والناس صر نور انخميس تحت الدرفس
وشوقي يصف ما رآه فلا لوم عليه ولا تشريب وصدق من قال :
فلو أن قومي أنطقتنى رماخهم نطقت ولكن الرماح أجبرت

وقد لانجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد
والمعابد صور المعارك والحروب ولم يظلم أحد أهل الشرق ، ولكن
كانوا أنفسهم يظلمون ، فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية الى الآخرة ،
كما بينا ذلك في كتاب «الاخلاق عند الغزالي» وتركوا الدنيا لمن هم
أحق بها من شياطين الغرب . وحيا الله اولئك الشياطين فهم ملائكة
هذا الجيل وان رزائل القوة لخير من فضائل الضعف لو يعلم
الشرقيون . ولشوقي ان يذكر ان جلالة الدين كانت اذلك العهد من
أفوى البواعث على حراسة الملك ، ولم تكن صورة رسمية يستبق اليها
طلاب الرزق وللرزق ابواب ، يدل على هذا قوله :

سنة من كرى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار ما بها من أنيس واذا القوم ما لهم من محس
فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك وما فيه
من آثار العقول ليس إلا سنة من الكرى وطيفا من الامانى •

ويعجبني قوله فى وصف القصر :

مزمز تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسى
وسوار كأنها فى استواء ألفت الوزير فى عرض طرس

وان كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء من
الضعف ، اذ كان جمال الخط لا يتعدى الحسن الى الجلال والفرق
بعيد بين الحسن الفاتن والجمال الرائع فجمال النهر فى الليالى المقمرة
فيه حسن وفتنة وفيه أيام السرار روعة وجلال •

وقول شوقى :

وسكان الكتاب يغريك ربا ورده غائبا فتدنو للمس

مأخوذ من قول البحترى :

يغتنى فيهم ارتياى حتى تتقراهمو يداى بلمس

وبيت البحترى أجود فى معناه وهو كذلك يقتضيه السياق ، اما
بيت شوقى فهو فى مكانه غريب وقول شوقى بعد ذلك الرصف :

صنعة (الداخل) المبارك فى العر ب وآل له ميامين شمس

فيه ضعف وكأنه لم يقله الا على سبيل التكملة وما أغنى الشعر
عن مثل هذا التذييل !!

الفصل بين البحتري وشوقي

رأينا كيف وصف البحتري ما رآه فى الايوان من رسم الموقعة بين
انقرس والروم ونذكر الآن انه انتقل من ذلك الوصف الى الحديث
عن تلك الكأس الروية التى اصطبغ بها فى الايوان فقال :

قد سقانى ولم يصرد أبو الغو ث على العسكرين شربة خلص
من مدام تقولها هى نجم أضواء الليل أو مجاجة شمس
وتراها اذا أجست سرورا وارتياحا للشارب المتحسى
أفرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة الى كل نفس
وتوهمت ان كسرى ابرو ————— معاطى والبلهيد أنسى
حلم مطبق على الشك عيني أم امان غيرن ظنى وحدى
وهذه القطعة لاتجد ما يقابلها فى سينية شوقى لأن صاحب
الشوقيات لم يزر اطلال الحمراء ليغرق همومه هناك فى اكواب الشمول
كما فعل البحتري وهو يزور الايوان فكان لنا ان ندرس هذه الايات
على سبيل الاستطراد اذ لاتقتضيها الموازنة ولا يدعو اليها التفصيل
ونحن نستملح قوله :

من مدام تقولها هى نجم أضواء الليل أو مجاجة شمس
ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال وعجز
هذا البيت يشفع لصدرة .

وقد تدخل اللفظة فى شفاعة اللفظات ، ويمر البيت فى خلال
الأيات ، كما يقول صاحب زهر الآداب ، وكذلك نستجيد قوله فى
وصف تلك الصهباء :

وتراها اذا أجست سرورا وارتياحا للشارب المتحسى
أفرغت فى الزجاج من كل قلب فهى محبوبة الى كل نفس
والك أن تتأمل كيف يرتو الشارب المتحسى الى المدام ، ثم يخالها
أفرغت فى الزجاج من كل قلب . ولا تنسى انه يقول (من كل قلب) وانها

لذلك (محبوبة الى كل نفس) فان لهذا الشمول والتعميم معنى يروع
أصحاب الأذواق من علماء المعاني • وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك
برأس البحترى فتوهم - ومن ذا الذى لا يتوهم وهو فى مثل حاله -
ان كسرى ندبمه ، والبلهذ أنيسه ، وكيف ثاب الى رشده وأخذ يفكر
أهو فى حلم أطبق عينيه على الشك ، أم هى أمان غيرن ظنه وحده •
وفى هذا التردد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتباب فى رأس المتعقل
النشوان •

ثم عاد الى وصف الايوان فقال :

وكان الايوان من عجب الصنعة جوب فى جنب أرعن جلس
يتظنى من الكآبة ان يبدو لعيني مصبح أو مسى
مزعجا بالفراق عن أنس ألف عز أو مرهقا بتطبيق عرس
عكست حظه الليالى وبات المشترى فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدى تجلدا وعليه كل كل من كلاكل الدهر مرسى
لم يعبه أن يز من بسط الديباج واستل من ستور الدمقس
مشخر تعلو له شرقات رفعت فى رءوس رضوى وقدر
لابسات من البياض فما تبصر منها الا فلائل برس
ليس يدري أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس
غير انى أراه يشهد ان لم يك بانيه فى المملوك بنسكس
وفى هذه القطعة نجد البحترى يتمثل الايوان فى صورة المحب
أترعت الليالى كأسه بأنس أليفه ، ثم أزعجته بالفراق ، والعروس
أصفاه الدهر حلاوة الوصل ، ثم أرهقه بالطلاق ، ويراه يتظنى من
الكآبة أن يبدو لعيني من يطالعه عند الصباح أو عند المساء ، وكيف
لا يكون كذلك وقد عكست حظه الليالى ، فأصبح مثار الشجى ،
مبعث الأسى ، بعد أن كان من مراتب الغزلان ، وملاعب الحور الحسان !!
وانظر كيف يقبول :

فهو يبدى تجلدا وعليه
كل كل من كلاك الدهر مرسى

وفى هذا البيت صورة رائعة لذلك الايوان الذى صور به البحتري
(كائنا حيا » أناخ الدهر عليه بكل كلكه وأراه كيف تكون مضاضة الذل
بعد مضارة العز وكيف يكون العدم بعد الوجود . وللشاعر فى الديار
الخالية وقفات تبعث ميت الوجد ، وتثير دفين الاحساس فان كنت فى
ريب من ذلك فحدثنى أى شيطان أو أى ملاك أوحى الى البحتري : ان
الايوان أصبح - وقد استلت منه ستور الدمقس وبسط الديباج
شبيها بالعادة الحسناء نزع عنها البؤس ما كانت تملك من الثياب
فأضحت متجردة تدعوك الى الرحمة حيناً وتغريك بالفتون أحياناً

ونحن نعيذ القارىء أن يرمينا بالغلو والاسراف فهذا والله ما
نفهمه من قول البحتري :

لم يعبه أن يز من بسط الديبا ج واستل من ستور الدمقس

وكذلك نزع الدهر ما كان بالايوان من عارض التهاويل ، وخلاه
كالعادة المتجردة لا تدرى أكان تجردها من قسوه الفقر أم من سكر
الدلال ..

وما نريد أن نزيد ؛ وللقارىء أن يتأمل حسن الأداء فى قوله :

عكست حظه الليالى وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس

فانه لم يقل (بات المشتري فيه كوكب نحس) وانما قال (بات
المشتري فيه وهو كوكب نحس) وكلمة وهو لها ما لها من الفضل فى
تأكيد المعنى وتقريره عند علماء المعانى وكذلك قوله فيما صارت اليه
شرفات الايوان :

لابسات من البياض فما تبصر منها الا فلائل برس

فان كلمة (من) لها هنا موقع جميل وهى أدل على التقليل من
التنوين .. أما قوله

ليس يذرى أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس
فهو من عيون هذه القصيدة ، والعرب ينسبون الى الجن صنع
كل عجب ، وهى خرافة قديمة تزخر بها الأساطير وهى كذلك مورد
من موارد الخيال - وكان من المستهجن أن يعقب البحترى على هذا
البيت الفرد بقوله :

غير انى أراه يشهد أن لم يك بانيه فى الملوك بنكس
وهو بيت ضعيف بينه وبين سابقه بون بعيد .. وقد عاد الى
وصف ما فى الايوان فقال :

فكأنى أرى المراتب والقو	م اذا ما بلغت آخر حسى
وكان الوفود صاحين حسى	من وقوف خلف الزحام وخنس
وكان القيان وسط المقام	صير يرجحن بين حو ولعس
وكان اللقاء أول من أمس	وشك الفراق أول أمس
وكان الذى يريد اتيا	طامع فى لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهرا وصارت	للتعزى رباعهم والتأسى
فلها أن أعينها بدمبوع	موقفات على الصباة حبس

ولهذه الأبيات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل
ما شهد البحترى فى اعطاف الايوان والبحترى بهذا الوصف فنان
يقول على علم ويعرف ما يعنى ولك أن تتأمل كلمة كأن وموقعها الجميل
فى قوله : وكان الوفود صاحين حسى من وقوف خلف الزحام وخنس
وقوله .

وكان القيان وسط المقام صير يرجحن بين حو ولعس

وهو له :

وكان اللقاء أول من أمـ س ووشك الفراق أول أمس
وقد دلت القارىء على مواطن الحسن فى هذه القصيدة فلينهل
بعد ذلك من رحيقها كما يشاء •

نقطة شوقى

أما شوقى فقد أخذ يبكى الحمراء بعد وصفها فقال :

من لـحـمـراء جللت بـغـبار الـدـهـر كـالـجـرح من برء ونكس
كسنا البرق لو محا الضوء لحظا لمحتها العيون من طول قبس
حصن عرناطة ودار بنى الأحـمـر من غافل ويقظان ندس
جلل الثلج دونها رأس شيرى فبدا منه فى عصائب برس
سرمـد شـيـبه ولم أر شيئا قبله يرجىء البقاء وينسى
مشت الحادثات فى غرف الحمرا ء مشى النعى فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس
عرصات تخلت الخيل عنها واستراحت من احتراس وعس
ومغان على الليالى وضاء لم تجدد للعشى تكرار مس
لا ترى غير وافدين على التـاريخ ساعين فى خشوع ونكس
نقلوا الطرف فى نضارة آس من نقوش وفى عصارة ورس
وقباب من لا زورد وتبر كالربا الشم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت للمعاني ولألفاظها بأزين لبس
وترى مجلس السباع خلاء مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار أنس
مرمر قامت الاسود عليه كلة الظفر لينات المجس
تنثر الماء فى الحياض جمانا يتنـزى على ترائب ملس

وفى هذه الكلمة نرى شوقى يتمثل الحمراء ، وهى مجللة بغبار
الدهر وهذا خيال رائع ، ولكنه ليس بكثير على شوقى فقد ألف
الحديث عن أسرار الحياة وطبائع الوجود وكلف منذ بعيد بالابانة عن
عدوان الحوادث والافصاح عن عسف الخطوب ويكاد يستنطق الموت
وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق .. وانظر
كيف يذكر ان الحمراء أصبحت كالجرح بين براء ونكس وهذا أصدق
تصوير لذلك الاثر الذى يحج اليه احفاد بناته فيعدونه ويمنونه لو تنفع
الامانى او تصدق الوعود ومن ذا الذى لم يفكر فى نكبة الحمراء ، ولم
يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد ؟ ولكن أين فتوة العرب وأين شباب
الزمان ؟ وللقارىء أن يتصور كيف مشت الحادثات فى غرف الحمراء
مشى النعى فى دار عرس فهذا أيضا خيال رائع وهو مأخوذ من قول
ابى نواس :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

مالنا ولهذا التكلف ؟ فقد ذكر النقاد ان ابانواس كذلك مسبوق
على ان تشبيه هتك الحوادث لاستار الحمراء بهتك النعى لدار العرس
اروع من تشبيه أثر الخمر فى مفاصل الندامى بأثر البرء فى جسم السقيم
وقول شوقى :

مشت الحادثات فى غرف الحمراء مشى النعى فى دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس

فيه روعة وفيه جلال فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء ويصور
مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان .. اما قوله :

وترى مجلس السباع خلاء مقفر القاع من طباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا يتزلن فيه أقمار أنس

فهو وصف انفراد به ولم يعرض لمثله البحتري وكان عجباً ان يغفل
عن ايراده فان القصور الخالية تذكر الانسان فيما تذكر بمن كان يرتع
فيها ويلعب من كل مشوقة القدر . مجدولة الخلق ، مصقولة الجبين .

خروج العرب من الجنة

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ولا
أعير بغير ذلك فقد كان شعراء الأندلس يتغنون بذلي الفردوس ويروونه
حسبهم من نعيم الآخرة والأولى ، ولقد نظر شوقي الى خروجهم نظرة
مملوءة بالدمع حين قال :

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وخرس
فتراها تقول : راية جيش	باد بالأمس بين أسر وحس
ومفاتيحها مقاليد ملك	باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم	عن حفاظ كموكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت	تحت آبائهم هي العرش أمس
رب بان لهادم وجموع	لمشت ومحسن لمنحس
أمره الناس همه لا تأتي	لجبان ولا تسنى لجبنس
واذا ما أصاب بنيان قوم	وهي خلق فانه وهي أس

ومع أن شوقي أشار كما ترى في هذه الأبيات الى أن ضعف العرب في
أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد ، إذ كانت امرة
الناس لا تتسنى لجبنس ولا تتأتى لجبان ، فقد اشار كذلك برفق الى
ان عهدهم لم ينقض الا بعد عرك من الزمان وخرس . والحق ان فتح
العرب للأندلس كان من الأحداث الخطيرة وكان من الطبيعي ان تدور
عليهم الدائرة وان يحل بهم ما حل بالفرس والروم ولا اذكر ما شب في
صدورهم من نار العداوة والبغضاء ، ولا ما شجر بينهم على الملك من

الخلاف ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ولكن أذكر انهم كانوا يحتلون بلادا لا يزال اهلها يفكرون فى الحرية ويحلمون بالاستقلال والامة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة ابد الآبدين كما يتوهم الفاتحون وانما يظل ضعفها يفتك بالفاصبين فى خفاء كما تفتك على ضعفها الجراثيم ثم ينفض هذا الضعف فجأة فاذا هو جارفة قوية تسقط من بأسها الممالك وتطيح من هولها العروش ، فان كنت فى ريب من ذلك فحدثنى ماذا صنع العرب بالشعوب التى ملكوها باسم الدين ألم تتأثر تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوسوس والخرافات والأضاليل والأباطيل حتى صيروه كالخرقة البالية لا تصلح لزينة ولاستر ولا وقاية ؟ اسمع يا صاح •

القوة هى كل شئ فى هذا الوجود ، والقوة فوق الحق فان أردت أن تحيا فتسلح لهذه الحياة القوة هى السلاح • ومن قال بغير ذلك فهو فى حاجة الى استشارة الطبيب •

وكذلك كان العرب فقد ركبوا البحر وهم أقوىاء فكان عرشا وركبوه وهم ضعفاء فكان نعشا ، وما تغير البحر ولكن تغير الناس ركبوه أول مرة وهم فاتحون ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار •

ثم قال شوقى فى توديع تلك الديار :

يا ديارا نزلت كالخلد ظلا وجنى دانيا وسلسال أنس
محسبات الفصول لا ناجر فيها بقيظ ولا جمادى بقرس
لا تحس العيون فوق رباها غير حور حو المرافف العس
كسيت أفرخى بظلك ريشا وربا فى رباك واشتد غرسى
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضاع ولا الصنيع بمنسى
من لسان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبس

حسبهم هذه الطلول عطات من جديد على الدهور ودرس
واذا فاتك التفات الى الما ضى فقد غاب عنك وجه التأسي

وما أريد الخوض فى تحليل هذه الأبيات فقد طال الحديث انما
أذكر أننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقى فى الأندلس وغنمنا معها
«قطعة خشب» من قصر الحمراء تجدها فى متحف الشاب المذهب حسين
شوقى وياليتنا نحرص على ما بقى فى أيدينا من ملك العرب والمسلمين.
وسيدكر القارىء بعد هذا كله انى أوازن بين البحترى وشوقى
وسيسأل أيهما أشعر وأنا أرجوه أن يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء ..
أما أنا فقد حكمت والسلام (١) *

(١) بمناسبة سينية البحترى يحسن أن نشير الى أن الشاعر محمد الهراوى رضع
قصيدة سينية عن أبى الهول كان فيها معنى المعارضة للبحترى وان لم يقل ذلك وهى
قصيدة جيدة نختار منها قوله :

نبى الناس ابا الهول انا
أمة كالحديد صلب المجس
لم يعبنا انا بلتنا شعوب
وبلونا الشعوب من كل جنس
كل من ساءنا اذقناه سوءا
بيد الله كل كاس بكاس
ناسالوا الروم مآذها الروم فينا
واسالوا الفرس عن مصاب الفرس
امم تلك ذات ناب وفرس
قد مضى ما بين ناب وفرس
فليت كلها ونحن بقينا
من حمى الله فى حظيرة قدس

وللهراوى قصيدة أخرى سينية هى بلا شك من وحي البحترى وهى قصيدته التى
وقف بها على دار الشيخ محمد عبده فى عين شمس وكان من الحتم أن يشير الى ذلك
ليبين كيف سرت أنفاس البحترى الى شعراء هذا الجيل *

البوصيرى وشوقى

للبوصيرى قصيدة مشهورة تسمى « البردة » عارضها شوقى بقصيدة سماها نهج البردة . وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيرى وشوقى من العلم بأسرار الاسلام فقد عنى هذان الشاعران بدرس الشريعة لاطهار مافيها من المحاسن ودرء مايوجه اليها من الشبهات ، وسيكون موقفنا فى درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ . وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الأشخاص . وحسبنا أن ندل القارىء على مواطن الضعف فيما صبغ من الأفكار بصبغة اسلامية ، وللقارىء بعد ذلك رأيه فان شاء مضى فى البحث والتنقيب ، وان شاء رضى واكتفى بما عليه عامة الناس ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

حياة البوصيرى

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج كان أحد أبويه من (أبوصير) والآخرين (دلاص) فركبت له منهما نسبة وقيل : (الدلاصيرى) لكنه اشتهر بالبوصيرى . . وكان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببليس (١) .

(١) توفى البوصيرى سنة ٦٨٥ هـ ، وله قبر مشهور فى الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية .

والبوصيري شاعر مصري ظريف من شعراء القرن السابع تجرى
 في شعره النكت المستملحة وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين
 قصائد لا تخلو من ذكاء ، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره
 وأحسبه من الصادقين فهو يذكر ان الموظفين كانوا يسرقون الغلال
 وأنهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمر ، وان من للكتاب
 طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت وتأكل
 مال اليتام .

ومن شعر البوصيري فيما يجرى مجرى الدعاية قوله في الحديث
 عن جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف :

أهوى والمشيب قد حال دونه والتصابي بعد المشيب رعوته
 أبت النفس أن تطيع وقالت ان حبي لا يدخل القينيه
 كيف أعصى الهوى وطينة قلبي بالهوى قبل آدم معجونه
 سلبته الرقاد بيضة خدر ذات حسن كالدرة المكنونه
 سمتها قبلة تسربها النفس فقالت كذا أكون حزينه
 قلت لا بد أن تسيرى الى الدا ر فقالت عسى ! أنا مجنونه !
 قلت سيرى فأننى لك خير من أب راحم وأم حنونه
 أنا نعم القرين ان كنت تبغ بين حلالا وأنت نعم القرينه
 قالت اضرب عن وصل مثلى صفحا واضرب الخل أو يصير طحينه
 لا ارى ان تمسنى يد شيخ كيف أرضى به لطشتى مشينه
 قلت انى كثير مال فقالت هبك أنت المبارز القارونه
 وهذا شعر ضعيف ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات
 مولانا الشيخ رضى الله عنه وأرضاه .

وأظرف من هذه القطعة أبياته التى بعث بها الى ناظر الشرقية
 وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبت فكتب على لسانها اليه :

يا أيها السيد الذي شهدت
ما كان ظني يبينى أحد
لو جرسوه على من سلفه
أقصى مرادى لو كنت فى بلدى
وبعد هذا فما يحل لكم
أخلاقه لى بأنه فاضل
قط ولكن صاحبى جاهل
لقلت غيظا عليه يستاهل
أرعى بها فى جوانب الساحل
أخذى لأنى من سيدى حامل

وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الأبيات ورد اليه الحمارة ولم يكن
فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التى بعث بها الى أحد الوزراء فى
شكوى حاله وهى قصيدة طريفة يذكر فيها أنه فقير وأن أبناءه
لا يجدون ما يأكلون وأنهم يتجسرون لفقد الكعك أيام الأعياد .. وان
امراته زارت اختها وشكت اليها سوء الحال فأشارت عليها بضربه
وتنف ذقنه شعرة شعرة ، وفى تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك
الوزير :

اليك نشكو حالنا اننا
فى قلة نحن ولكن لنا
أحدث المولى الحديث الذى
صاموا مع الناس ولكنهم
ان شربوا فالبشر زير لهم
لهم من الخبز مسلوقة
أقول مهما اجتمعوا حولها
وأقبل العيد وما عندهم
فأرحمهمو ان عاينوا كعكة
تشخص أبصارهمو نحوها
كم قائل يا ابتنا منهمو
ما صرت تأتيننا بفلس ولا
حاشاك من قوم أولى عسره
عائلة فى غناية الكثره
جرى لهم بالخيط والابره
كانوا لمن أبصرهم عسره
ما برحت والشربة الجره
فى كل يوم تشبه النشره
تنزهوا فى الماء والخضره
قمح ولا خبز ولا فطره
فى كف طفل أو رأوا تمره
بشهقة تتبعها زفره
قطعت عنا الخبز فى كره
بدرهم ورق ولا تقسره

وأنت في خدمة قوم فهل
ويوم زارت أمهم أختها
وأقبلت تشكو لها حالها
قالت لها كيف تكون النساء
قومي اطلبى حقتك منه بلا
وان تأبى فخذي ذقنه
قالت لها ما هكذا عادتي
أخاف ان كلمته كلمة
وهونت قدرى في نفسها
فقاتلتني فتهددتها
وحق من حالته هذه
تخدمهم يا أبت سخره
والاخذت في الغيرة كالضرة
وصبرها منى على العشرة
كذا مع الأزواج ياعصره !
تخلف منك ولا فتره
أو اتفيتها شعرة شعره
فان زوجي عنده ضجره
طلقني قالت لها بعصره
فجاءت الزوجة مجترة
فاستقبلت رأسي بأجره
أن ينظر المولى له أمره

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ولا تزال بقاياها
موجودة في بلبس (١) *

قصيدة البردة

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيمة في مدح الرسول عليه
الصلاة والسلام ولم تكن المدائح النبوية مما يتكلم فيه الشعراء ،
والبوصيري هو الذي ابتكر هذا النوع أو هو الذي بسطه وأطال فيه
القصيدة فان قصائد الكميت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة
لهذا الفن الذي أكثر منه المولدون * وقد مدح الرسول في حياته ،
مدحه كعب بن زهير بلاميته المشهورة التي يقول في أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفسد مكبول
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا الا أغن غضيض الطرف مكحول

(١) ما كتب هنا عن البوصيري هو اصل ما في كتاب المدائح النبوية في الأدب
العربي .. *

ومدحه الأعشى بداليتها التي يقول فيها :

فأقسمت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجي حتى تلاقى محمدا
نبي يرى ما لاترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

ويرتاب الدكتور طه حسين في قصيدة الأعشى ويظنها من وضع الرواة ، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية . . وكذلك بائت سعاد لأن المدح الذي جرى على لسان كعب والأعشى لا يزيد شيئا عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد موجهها الى الملوك ، أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شمائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن الباقية . ودفع ما وصم به الرسول من النقائص والعيوب وهي فوق هذا كله تقال وتنشد تقربا الى الله وهي عند الصوفية من جملة الأوراد .

البردة

وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة فقال : « كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما كان اقترحه على صاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفى ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها واستشفعت بها الى الله تعالى في أن يعافيني وكررت انشادها ودعوت وتوسلت ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح عي وجهي بيده المباركة وألقى على بردة فاتبتهت ووجدت في نهضة فقممت وخرجت من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحدا فلقيني بعض الفقراء فقال لي : أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت أيها ؟ فقال : التي أنشأتها في مرضك وذكر أولها فقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتميل وأعجبت وألقى على من أنشدها بردة فأعطيته إياها وذكر الفقير ذلك وشاع المنام » .

وفى هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيرى فهو رجل فيه طيبة
وسذاجة وكأكثر الصوفية فليس من المعقول أن يبرأ مريض من مرضه
لآية يتاوها أو قصيدة ينشدها كما يرى البوصيرى بقصيدته ولو مرض
مفتى الديار المصرية - لا سمح الله - ما استغنى بالبردة عن الطبيب .
ولعل حكاية البوصيرى هذه هى سبب ما سار بجانب البسردة من
الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة فبعضها
أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون . وهذا النوع من الغفلة قديم
فقد كان لزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سننور القرآن . .
ونلاحظ كذلك أن البوصيرى كرر عبارة «صلى الله عليه وسلم» خمس
مرات فى هذه الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبى كلما ذكر
اسمه من وساوس المتأخرين وقد زاد البوصيرى على ذلك فى القصيدة
المصرية . فهو يدعو الله أن يصلى على النبى وشيعته وصحبه عدد
الحصى والثرى والمدر وعدد نجم السماء ونبات الأرض وعدد وزن
شاقيل الجبال وقطر جميع الماء والمطر . . وما حوت الأشجار من ورق
وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة وعدد الوحش والطيير والأسماك
والأنعام وعدد الجن والانس والأملأك وعدد الذر والنمل والحبوب
والشعر والصوف والريش والوبر . . وعدد ما أحاط به العلم المحيط
وما جرى به القلم والقدر . وعدد نعم الله على الخلائق ومذ كانوا ومذ
حشروا وعدد ما كان فى الأكوان وما يكون الى يوم البعث وتكون
هذه الصلاة بهذا التحديد :

فى كل طرفة عين يطرفون بها
أهل السموات والأرضين أو يذروا
ملء السموات والأرضين مع جبل
والقرش والعرش والكرسى وما حصروا
ما أعدم الله موجودا وأوجد مع
تستغرق العد مع جمع الدهو ر كما تحيط بالحد لا تبقى ولا تذر

وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفا في صدر
الاسلام وانما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب دلائل
الخيرات ..

والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الاسلامية وقد
كانت جزءا من الهدية التي قدمها ابن خلدون الى تيمورلنك ولهذه
الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين ..

نهج البردة

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكارا لحج الخديو
السابق سنة ١٢٢٧ هـ وقدمها اليه بكلمة صغيرة ثم شرحها المرحوم
الشيخ سليم البشري شرحا وجيزا بينا قال في نهايته (ولو أن الكاتب
عمد الى كل بيت ففسر غريبه وفصل مجمله وأفشى معناه ونزل عند
مغازيه وعرض على وجوه العربية مفردة ومركبة وأرسل الإشارة الى
كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصة التي يومأ
اليها فيه • ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام
وغير ذلك مما يجرى في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره
أطال القول وتجاوز القصد » •

وكنا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم
البشري لم يشرح نهج البردة وانما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز
البشري وهذا كلام نقوله لأهميته في تاريخ الآداب فان شاء الشيخ
عبد العزيز ايده وان شاء ثقاه (١) • ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد

(١) نضرب الأستاذ عبد العزيز البشري من هذا الكلام ، وساجلناه في جريدة البلاغ
وهو يؤكد أن أباه رحمه الله هو صاحب الشرح ونحن نؤكد من جانبنا أن الشيخ
عبد العزيز هو الذي كتب ذلك الشرح وكان الشيخ سليم رحمه الله غنيا بفضل الحق عن
مثل هذا الفضل المفتعل ولكن هذا ما وقع وليت شعري كيف نطمئن الى الاخبار الأدبية اذا
عز علينا أن نحقق خبرا قامت الشواهد على صحته ونحن شهود العصر الذي وقع فيه •

بك المويلحي وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له . فقد حقق فيها ان
الشعر باب من أبواب الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبحه كقبح الكلام .
وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن ، ووصل الى أن القرآن
ليس بشعر وما هو من الشعر في شيء وأين هو من الشعر ؟ والشعر
انما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن وأين التقفية
واين المعانى التى ينتجها الشعراء من معانيه واين نظم كلامهم من
نظمه وأساليبه ، ثم قال :

« فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعراء اذا حققت » وكان الظن
يصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام فى تحريم الشعر وباحته
مما ينبو عنه الذوق فى القرن العشرين .

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيدا للموازنة بين البردة ونهج البردة
وانا لندرجو أن يكون فى هذا التمهيد بعض الغناء .

بين البوصيرى وشوقي والبارودى

ابتدا البوصيرى قصيدته بالتشبيب ونحا شوقى منحاه وتلك عادة عربية قديمة لم يفكر الشعراء فى تركها الا فى هذا الجيل وان كان من قدمائهم من نالها بلام كالمتنبى اذ يقول :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا متيم ؟

وكان للصوفية شىء من الغزل المستملح المقبول فكان مريدوهم يؤولونه ويروونه موجهما الى الذات الالهية أو الحضرة النبوية ولهم فى ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين ، فليرجع اليها من شاء فى كتب التوحيد ليقف على شىء من تصورات أولئك الناس فقد برروا ما جرى على السنة شيوخهم من المجون وجعلوه نوعا من الرمز والتمثيل وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية وألحقوا ما يجرى بين عشاق الأرواح بما يجرى بين عشاق الأشباح الى آخر ما لهم فى هذا الباب من لطف الاحتيال .

وهذا كله اثر تلك العادة : وهى افتتاح الشعر بالنسيب وهى عادة لم يقلع عنها شوقي واظرف ما وقع له فى هذا المسلك قصيدته فى مشروع ملنر ، فقد افتتحها بهذه الأبيات :

اثن عنان القلب واسلم به من ررب الرمل ومن سربه
 ومن تشنى الغيد عن بانه مرتجة الارداف عن كثبه
 ظباؤه المنكبرات الظبا يغلبن ذا اللب على لبه
 بيض رقائق الحسن فى لمحاة من ناعم الدر ومن رطبه
 ذوابل النرجس فى أصله يوانع الورد على قضبه
 زن على الأرض سماء الدجى وزدن فى الحسن على شهبه
 يمشين أسرابا على هينة مشى القطا الآمن فى سربه
 من كل وسان بغير الكرى تتببه الآجال من هديه

وهى قصيدة طويلة ثلثها فى النسيب ويذكر شوقى انه قالها كارها
 ولا يبعد على هذا ان يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءا من المنحة
 التى اجتداها انصار المشروع اذ ذاك ، وقد رأيت من شعراء العصر
 من يعجب من الحملة التى وجهها النقاد الى افتتاح الشعر بالنسيب وهو
 يرى ذلك نوعا من الرياضة لقرائح الشعراء واذكر انى رأيت فى كلام
 القدماء ما يؤيد هذا المعنى فقد كان منهم من يرى التوفيق الى اجادة
 التشبيب بابا للتوفيق الى الاجادة فى سائر القصيد ، ومهما يكن من
 شىء فقد سار البوصيرى وشوقى على أثر من تقدمهم من الشعراء
 ولا تقل كان الادب يقضى بتجنب هذا المنهج فى المدائح النبوية فقد
 شبب كعب بن زهير بمحبوبته وهو فى حضرة الرسول فما لاه النبى
 ولا أنكرها عليه اصحابه ولا أخذه بها مؤرخو الآداب .

ولذا ان نلاحظ ان اليوصيرى جرى فى تشبيهه مجرى المحاكاة
 والتقليد فانا نراه يقول فى مطلع البردة :

آمن تذكر جيرانى بذى سلم مزجت دما جرى من مقلة بدم
 أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق فى الظلماء من اضم
 وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب فى أرض بنى البكاء على طريق
 البصرة الى مكة كما ذكر ياقوت وفيه يقول كثير :

أمن آل سلمى دمنة بالذنائب الى الميث من ريعان ذات المطارب
يلوح بأطراف الأجدة رسمها بذى سلم أطلالها كالذواهب
وكاظمة جو على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، وفيه
يقول بعض الشعراء :

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة يسعى على قصران المرخ والعشر
لله در بيوت كان يعيشها قلبى ويألفها ان طيبت بصرى
فقدتها فقد ظمآن ادواته والقيظ يقذف وجه الأرض بالشرر
أمنية النفس أن تزدار ثانية وحالنا والأمانى حلوة الشر
واضم واد بجبال تهامة وهو الوادى الذى فيه المدينة وفيه يقول
سلامة ابن جندل :

يا دار أساء بالعلياء من اضم بين الدكادك من قو فمعصوب
كانت لها مرة دارا فغيرها مر الرياح بسافى الترب مجلوب

وذكر البوصيرى لهذه المواطن وشغفه بها وحنينه اليها ينافى مصريته
وكان له أن يتشوق الى أحبابه فى بليس أو فاقوس ، كما يتشوق
بعض الناس الى أحبابه فى سنتريس واسيوط ولكن يظهر ان المعانى
العربية كانت احتلت رءوس الشعراء فكان من ذلك أن أكثروا من
ذكر نجد وسمع واروند ، وان لم يكن لهم بهذه المواطن هوى ، ولم
ينعموا فيها باصطباح ولا اغتباق ولذلك نجد التكلف ظاهرا فى حديث
البوصيرى عن جيرانه بذى سلم ونحسبه اختارها للقافية كما اختار
«اضم» لهذا الغرض وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن
اروند ببغداد :

وقالت نساء الحى أين ابن اختنا ألا خبرونا عنه حييتمو وفدا
رغاه ضمان الله هل فى بلادكم أخو كرم يرعى لذى حسب عهدا
فان الذى خلفتموه بأرضكم فتى ملأ الاحشاء هجرانه وجدا

أبغداد كم تنسيه أروند مربعا الأخاب من يشري ببغداد أروندا
فدتهم نفسي ؛ لو سمعن بما أرى رمى كل جيد من تنهده عقدا
ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق الى تلك
المواطن لصلتها بمدينة الرسول وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا اليه من
انه يتغزل محاكاة وتقليدا ولو كان صادق اللوعة لشبب بغادة مصرية
وحن الى مغنى من مغانى النيل (١) • ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين
قال :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم
وانما أطلق نفسه من ربقة التقليد فلم يتحدث عن نجد ولا عن
تهامة وان غلبت عليه بعض الأخيلة العربية فان سفك الدم فى الأشهر
الحرم بقية من خيال الاعراب فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف
ويظنون لا عاصم لهم من فتك العيون •

ولم يوفق البوصيرى الى حسن الأداء حين قال :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
فان قوله « جرى من مقلة » حشو لا قيمة له ، ولا وجه لما يقوله
بعض الشيوخ من ان ذلك تأكيد فانه لم يشك احد فى أن الدم يجرى
من العين •

ومن رجال الأدب من لا تروقه كلمة «على القاع» فى قول شوقي
« ريم على القاع بين البان والعلم »
أما قوله :

« أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم »

(١) فى كتاب « المدايح النبوية » توجيه لكلام البصيرى فارجع اليه هناك •

ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع وفيه براعة استهلال وهو
كذلك غاية في حسن الأداء ، وقول البوصيري :

فما لعينيك ان قلت اكفاهمتا وما لقلبك ان قلت استفق بهم
فيه ضعف وابتذال وهو غير موصول بسابقه وقد انتقل قبل
أن يتم المعنى فقال :

أيحسب الصب أن الحب منكم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دما على طلل ولا أرقى لذكر البان والعلم
وفد حار الشراح في ربط هذه الأبيات :

وقد يستجاد قوله :

فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى مثل البهار على خديك والعنم
وشوقي أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال فانا
نجد البوصري يقول :

نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى
والحب يعترض اللذات بالآلم
وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى ، أما شوقي فقد أفصح عن مراده
حين قال :

يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبدا
أسهرت مضناك في حفظ الهوى فتم
أفديك الفا ولا آلو الخيال فدم
أغراك بالبخل من أغراه بالكرم
سرى فصادف جرحا داميا فأسا
ورب فضل على العشاق للعلم

والفرق بين قول البوصيرى :

« نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى »

وبين قول شوقي :

« سرى فصادف جرحا داميا فأسا »

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب وهو صاحب هذا البيت
البديع :

نظرة فابتسامه فسلام فكلام فموعد فلقاء (١)

وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرق من قول
البوصيرى :

« والحب يعترض اللذات بالألم » - أما قول شوقي :

يا ناعس الطرف لا ذقت الهوى أبدا

أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فتم

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون .. وفى قوله :

أفديك الفـا ولا آلو الخيال فدى

أغراك بالبخل من أغراه بالكرم

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب فهو يغرى المحبوب بالبخل

ويغرى طيفه بالجدود ، وسماحة الطيف باب الى اضطرام الفؤاد .

ويقول البوصيرى فى مدافعة اللائمين :

يا لائى فى الهوى العذرى معذرة

منى اليك ولو أنصفت لم تلم

(١) نقدنا هذا البيت فى بعض مؤلفاتنا فقلنا انه نظرة سينمائية ، ولكن قد يتفق
أحبانا أن تتلاقى القلوب بأسرع من ذلك ، وللقلوب وثبات أسرع من البرق .

ويقول شوقي :

يا لائمي في هواه والهوى قدر لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم
وبيت شوقي أجمل وقوله « الهوى قدر » من أبدع ما قيل
في دفع العذل والملام (١)

أما قوله « لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم » ، فهو أجود
في معناه من قول الشريف الرضي :

أقول للائم المهدي ملامته ذق الهوى وإن اسطعت الملام لم
ومن قول ابن الفارض :

دع عنك نعيمى وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنف
ولكن البوصيري كان أرق ، وهو يحاور اللائم بقوله :
عدتك حالى لاسرى بمستتر عن الوشاة ولا دائى بمنحسم
أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة وهو يقول فى حوار لائمه :
لقد ألتك أذنا غير واعية ورب منتصت والقلب فى صمم
وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالكلمة الحكيمة ، وتلك إحدى
سماته وإيكنها قد ترحزحه عن إصابة الغرض فى بعض الأحيان ، على
أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه فكان
له أن يصرح بأنه منح العاذل أذنا غير واعية وقلبا غير سميع • ولا
كذلك البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة ووصف لائمه
بنصح الحبيب حين قال :

محضتني النصح لكن لست أسمعه
إن المحب عن العذل فى صمم

(١) راجعنا الدكتور طه حسين وقال إن هذا المعنى مسروق من الأغنية البلدية :
« وعد ومكتوب على ومقدر عالجين » ولكن هذا لا يمنع من استحسان قول شوقي :
« والهوى قدر » •

الى هنا فرغ البوصيرى من النسيب فلنقف قليلا عند المعانى
الى انفرد بها شوقى وانا لنستجيد قوله :

رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا
يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

وهذا معنى قديم والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم
يرمى به القضاء فهو لا يذكر ان الجؤذر رماه .. وانما يذكر ان القضاء
رماه بعينى جؤذر والقضاء خير بأنواع النصال ؛
وقد بلغ غاية الرفق فى قوله :

لما رنا حدثتنى النفس قائلة ياويح جنبك بالسهم المصيب رمت
جحدتها وكتمت السهم فى كبدي جرح الأحبة عندي غير ذى ألم
رزقت أسمح مافى الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر فى الشيم

والبيت الأخير يمت الى ما قبله بصلة ضعيفة ، لأن النظرة الفاتنة
أعز وامنع من أن تعد من جملة الذنوب والذى يكتم جرح الحب
لا يصفح لمحبوبه عن جناية فما هذا المن على الجمال ؛
وأخطأ شارح القصيدة حين استأنس بقول المتنبي :

ان كان سركمو ما قال حاسدنا فما لجرح اذا أرضاكمو ألم
ثم أخذ شوقى يصف هذا السراب الذى صعب حبيته فقال :

من الموائس باننا بالربا وقنا	اللاعبات بروحى السافحات دمي
السافرات كأمثال اليدور ضحى	يفرن شمس الضحى بالحلى والعصم
القاتلات بأجفان بها سقم	وللمنية أسباب من السقم
العائرات بألباب الرجال وما	أقلن من عثرات الدل فى الرسم
المضرمات خدودا أسفرت وجلت	عن فتنة تسلم الاكباد للضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفا	أشكاله وهو فرد غير منقسم

من كل بيضاء أو سمراء زينت
يرعن للبصر السامى ومن عجب
وضعت خدى وقسمت القواد ربا
يرتغن فى كنس منه وفى أكم

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، واستملح منها
قوله :

العائرات بألباب الرجال وما أقلن من عشرات الدل فى الرسم
فقد جعلهن يمشين على القلوب فيعثرن بقلب بعد قلب وإن لم
يسلمن من عشرات الدلال وهن يتخطرن فى الضحى وعند الأصيل ..

واستجيد كذلك قوله :

يرعى للبصر السامى ومن عجب إذا أشرن أسرن الليث بالغنم
فقد وصفهن بالخفر والحياء وذكر انهن يرعن حين تسمو اليهن
العين والسحر كل السحر فى الحسن الحذر الهيوب .. وكان من
العجب أن يأسر هؤلاء الخفريات الليث إذا أشرن اليه بالبنان المخضوب
.. وما أروع قوله بعد ذلك فى خطاب محبوبته .

يا بنت ذى اللبد المحمى جانبه ألقاك فى الغاب أم ألقاك فى الأطم
ما كنت أعلم جتى عن مسكنه أن المنى والمنايا مضرب الخيم

من أنيت الفصن من صمصامة ذكر

وأخرج الريم من ضرغامة قرم

بينى وبينك من سمر القنا حجب

ومثلها عفة عذرية العصم

لم أغش مغناك الا فى غضون كرى

مغناك أبعد للمشتاق من ارم

وفى هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذى تحسوه
الطبيعة • وانها لصناع ! ومن ذا الذى لم يفكر فى الرجل يقطر من
جوانبه البأس ، وتعيس الدنيا حين يعبس ويثور الوجود حين يثور •
وفى بيته فتاة من صلبه تحسبها لرقتها وحيائها ظبية تتشى أو غصنا
يميد ••

وفون شوقى :

ما كنت أعلم حتى عن مسكنه
ان المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر
واخرج الريم من ضرغامة قمر

أجود فى معناه من قول الطغرائى :

اتى أريد طروق الحى من اضم
وقد حماء رماة من بنى ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللدان به
سود الغدائر حمر الحلى والحلل

وانه كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التى سجل بها شوقى عجب
من أن ينبت الغصن من السيف الذكر ويخرج الريم من الضرغامة
القمر !

وقول شوقى :

بينى وبينك من سمر القنا حجب
لم أغش مغناك الا فى غضون كرى
ومثلها عفة عذرية العصم
مغناك أبعد للمشراق من ارم

أصرح فى معناه وأجود من قول الطغرائى :

نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت	نصالحها ببياه الغنج والكحل (١)
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها	ما بالكرائم من جبن ومن بخل
تبيت نار الهوى منهن فى كبد	حرى ونار القرى منهم على القلال
يقتلن أنضاء حب لا حراك بهم	وينحرون كرام الخيل والابل

(١) الغنج : حلاوة العينين •

قصيدة البارودي

ونريد أن نلم المامة قصيرة بقصيدة البارودي التي سماها (كشف الغمة في مدح سيد الأمة) وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حين مولده الى يوم انتقاله الى جوار ربه ، وبناها كما قال على سيرة ابن هشام . والبارودي شاعر فحل يعتز به تاريخ الأدب في مصر وقد نوازن بينه وبين ابي فراس ، ولم تفكر في الموازنة بينه وبين البوصيري لأننا لم نتأكد من أنه رمى الى معارضته ، ولكن رأينا من الواجب أن نقدم للقارئ نماذج من قصيدة (كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي ليكون الموضوع أوفى . . وليجد القارئ في تعدد الصور الشعرية مجالا للنقد والتمييز فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسب قال :

يا رائد البرق يمم دارة العلم	واحد الغمام الى حي بذى سلم
وان مررت على الروحاء فامر لها	اخلاف سارية هتانة الديم
من الغزار اللواتي في حوالبها	رى النواهل من زرع ومن نعم
اذا استهلكت بأرض تمنمت يدها	بردا من النور يكسو عارى الأكم
ترى النبات بها خضرا سنبله	يختال في حلة موشية العلم
أدعو الى الدار بالسقيا وبى ظمأ	أحق بالرى لكنى أخو كرم

منازل لهواها بين جانحتي وديعة سرها لم يتصل بقى
 إذا تنسنت منها نفحة لعبت بى الصبابة لعب الريح بالعلم
 أدر على السمع ذكراها فان لها فى القلب منزلة مرعية الذمم
 عهد تولى وأبقى فى الفؤاد له شوقا يفل شباة الرأى والهمم
 إذا تذكرته لاحت مخايله للعين حتى كأنى منه فى حلم
 فما على الدهر لورقت شمائله فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم
 تكاءدتنى خطوب لو رميت بها مناكب الأرض لم تثبت على قدم
 فى بلدة مثل جوف العير لست أرى فيها سوى أمم تحنو على صنم
 لا أستقر بها الا على قلق ولا ألد بها الا على ألم
 إذا تلفت حولى لم أجد أثرا الا خيالى ولم أسمع سوى كلمى
 فمن يرد على نفسى لبائتها أو من يجير فؤادى من يد السقم

وهذا شعر جزل رصين تغلب عليه سمة الجاهلية فى المنحى وفى
 الأسلوب ، فهو يستسقى للروحاء وما اليها من المغانى العربية ويجمع
 بين شتى الاغراض فى الموضوع الواحد . ويعرض له المعنى تبعا فيتحول
 اليه حتى لتحسبه نسي المعنى الأصيل ، ألا ترى كيف استسقى للروحاء
 وهذا هو الغرض الاول ثم مضى فى وصف السارية الهتانة الديم فقال:

من الغزار اللواتى فى حوالبها رى النواهل من زرع ومن نعم
 اذا استهلت بأرض نمنمت يدها بردا من النوريكسو عارى الأكم
 ترى الثبات بها خضرا سنباله يختال فى حلة موشية العلم

وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم
 فانتقل من هذا الغرض الى وصف ما تكاءده من الخطوب وما منى به من
 الاقامة فى بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام . . لا يستقر به الا
 على قلق . . ولا يلذ به الا على ألم ، اذا تلفت حوله لم يجد سوى خياله
 ولم يسمع غير أصدااء . .

وهذا بحث مجمل ، نرجو أن نعود اليه في الكلمة الآتية بشيء من
التفصيل *

أسلوب البارودي

قلت في الكلمة الماضية : ان شعر البارودي تغلب عليه سمة
الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب ، وذكرت في تأييد ذلك انه قد
يتحول الى المعنى الطارئ حتى لنحسبه نسي المعنى الاصيل ، وهذا
الاسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين ومن نحا نحوهم
من شعراء الأعصر الخالية فانا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته
بخلايا السفين ثم يترك المشبه ويمضى في الحديث عن المشبه به فيقول:

كأن حمول المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أومن سفين بن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق عباب الماء حيزومها بها كما قسم التهرب المفائل باليد

وتراد بهم بالحديث عن نفسه فيقول :

وانى لامضى الهم عند اختضاره بهوجاء مرقال تروح وتغتدى
ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارئ في أنه قال من
أجلها هذه القصيدة ، اذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتا . ثم يعود بعد
لأى الى الحديث عن نفسه فيقول :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وكذلك نجد كعب بن زهير يقول في ثغر محبوبته سعاد :

تجلوعوارض ذى ظلم اذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

ثم يمضى في وصف ما مزجت به هذه الراح فيقول :

شجت بذى شيم من ماء محنية

صاف بأبطح أضحى وهو مشمون

تنفى الرياح القذى عنه وأفرطه
من صسوب سارية بيض يعاليل
وتراه يقول فى بعد محبوته :
أمت سعاد بأرض لا يلفها
الا العتاق النجيات المراسيل

وكان هذا كافيا فى الإبانة عن بعد الشقة ولكنه وصف الناقة
التي تبلغه تلك الأرض بنحو عشرين بيتا . ثم عاد بعد هذا كله الى ما
رمى اليه من استعطاف الرسول فقال :

تسعى الوشاة بجنيها وقولهمو	انك يا ابن أبى سلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله	لا ألينك انى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكمو	فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته	يوما على آلة حدباء محمول
انبثت ان رسول الله اوعى دنى	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيط وترتيل	
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم	أذنب وان كثرت فى الأقاويل

وقد سلك البارودى هذا المسلك فى قصيدته (كشف الغمة)
فقد رأينا كيف أفاض فى وصف السحب وهو يستسقى للروحاء وكيف
انتقل من الحديث عن وجده الى الحديث عن غربته ولنذكر الآن
شاهدا آخر تؤيد به اختياره لهذا الأسلوب :

وصف الغار

وصف القرآن الغار الذى آوى اليه النبی صلى الله عليه وسلم
مع الصديق وصفا لا زخرف فيه اذ قال « ألا تنصروه فقد نصره الله
اذ أخرجه الذين كفروا ثانی اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه
لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » .

ورصفه أبو بكر رضى الله عنه على هذا النحو فقال « كنت مع
النبي صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين قلت يا رسول
الله : لو أن احدهم رفع قدمه وأنا قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما » •

وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت : « ولما كان ليلة بات النبي صلى
الله عليه فى الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت فى وجه الغار ، وأمر
حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار • واتى المشركون من كل بطن
حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعا
معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار
فقال لأصحابه : ليس فى الغار شيء رأيت حمامتين على فم الغار
فعرفت أن ليس فيه أحد وقال رجل آخر : الغار ! فقال امية بن خلف:
ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد
محمد » •

فأما الآن حقيقة ثابتة « هى أن النبي كان معه رفيقه فى الغار،
وان الله أنزل سكينة عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وصفت هذه
الحقيقة فى القرآن وفى كلام الصديق وصفا يرجع فى جوهره الى
الإشادة بفضل الله ورحمته ••

ووصفت فى كلام عائشة وصفا فيه شيء من الزخرف والخيال:
اذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت - ولنا فى حديث عائشة رأى
لا يسمح به ظرف الزمان - فلنذكر كيف تناول - البوصيرى وشوقى
والبارودى الحادثة وكيف نحا البارودى فى وصفها منحى شعراء
الجاهلية •

(١) راجع وضع النهج •

أما البوصيرى فقد قال :

فالصدق فى الفار والصدق لم يرما
وهم يقولون ما فى الفار من أرم (١)
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة
من الدروع وعن عال من الأطم
وهذا الوصف لم يخرج عما فى القرآن من وقاية الله لنيبه وانزاله
السكينة عليه ولم يعد ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج
العنكبوت ..

أما شوقى فقد قال :

سل عصبة الشرك حول الغاز حائمة
لولا مطاردة المختار لم تحم
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا
همس التساييح والقرآن من أمم (٢)
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم
كالغاب والحائثات الزغب كالرخم
فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم
أولا يد الله بالجارين ما سلما
وعينه حول ركن الدين لم يقم
تواريا بجناح الله واستترا
ومن يضم جناح الله لا يضم

(١) أى لا أثر له »

(٢) من قرب .

وفى هذه القطعة يسخر شوقى من المشركين ، ويهزأ بهم ويمثل
ضلالهم واخفاقهم تمثيلا بشعا مخيفا يخزى له وجه الشرك ويرغم
به أنف الجحود ، وللقارىء أن يتأمل قوله :

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم
كباطل من جلال الحق منهزم

فانه من أجمل ما شبه فيه المحسوس بالمعقول * أما البارودى
فقد قال :

وجاءه الوحى ايذاً بهجرته
فما استقر به حتى تبوأه
بنى به عشه واحتله سكنا
القان ما جمع المقدار بينهما
كلاهما ديدبان فوق مرباة
ان حن هذا غراماً أو دعا طرباً
يخالها من يراها وهى جائمة
ان رفرت سكنت ظلاً وان هبطت
مرقومة الجيد من مسك وغالية
كأنما شرعت فى قانىء سرب
وسجف العنكبوت الغار مختفياً
قد شد أطرافها فاستحكمت ورست
كأنها سابرى حاكه لبق
وارت فم الغار عن عين تلم به
فياله من ستار دونه قمر

فيمم الغار بالصدى فى القسم (١)
من الجمائم زوج بارع الرنم
يأوى اليه غداة الريح والرهيم
الا لسر بصدر الغار مكتتم
يرعى المسالك من بعد ولم ينم
باسم الهديل أجابت تلك بالنعم
فى وكرها كرة ملساء من آدم (٢)
روت غليل الصدى من حائر شيم
مخضوبة الساق والكفين بالعم
من أدمعى فعدت محمرة القدم
بخيمة حاكها من أبدع الخيم
بالأرض لكنها قامت بلا دعم
بأرض سابور فى بحبوحة العجم
فصار يحكى خفاء وجه ملتئم
يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم

(١) فى الظلام .

(٢) من جلد .

ظل فيه رسول الله معتكفا

كالدّر في البحر أو كالشمس في النسم
حتى اذ سكن الارجاف واحتترقت
أوحى الرسول بأعداد الرحيل إلى
من عنده السر من خل ومن خشم
وسار بعد ثلاث من مباءته
يؤم طيبة مأوى كل معتصم

وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية إلى
الافاضة في وصف الحمامتين والعنكبوت فتحدث عن بناء العش
والغرض من سكناه . وتكلم عن حراسة الحمامتين ورعايتهما للمسالك
البعيدة وهجرهما النوم وتغنيهما باسم الهديل ، وذكر كيف كانت
الحمامة مخضوبة الساق والكفين ، وكيف كانت مرقومة الجيد وكيف
كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء ، وتكلم عن الخيمة
التي شد أطناؤها العنكبوت ووصفها بجودة النسيج حتى ليحسبها
الرائي حلة سابرية إلى آخر ما قال .

وهذا كله خروج عن الموضوع واستسلام إلى الخيال وكذلك كان
يفعل الأقدمون .

النظم في قصيدة البارودي

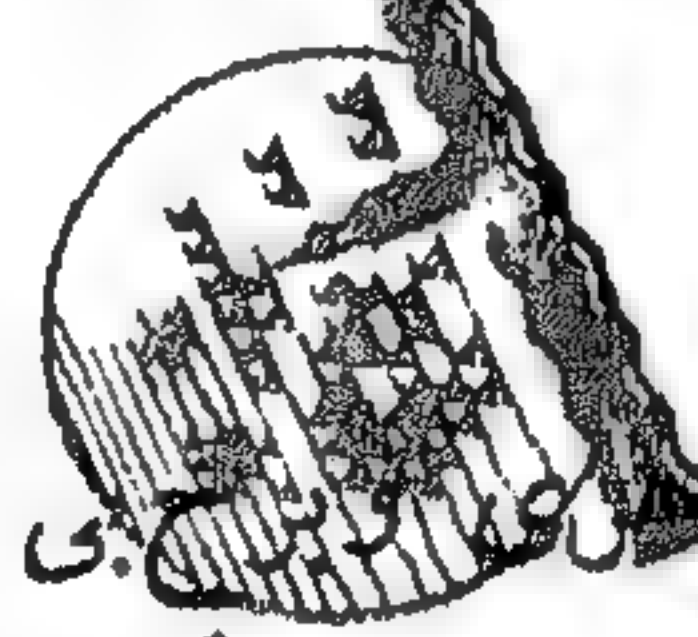
وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب لأنه سائر الحوادث وفقا لما
قصه ابن هشام ولا كذلك شوقي والبوصيري فقد أطاعا الخواطر
الطارئة وقدموا بعض الحوادث على بعض وتكلما عن النبي صلى الله
عليه وسلم وعن معجزاته مثلا قبل أن يذكر الميلاد .

ولكن ميزة الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت بابا لفقد
الشعر في أكثر القصيدة فأصبحت بذلك منظومة كتلك المنظومات التي
تعرف بالمتون ، وإلى القارئ نموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية
البارودي اذ قال :

وأم طيبة مسرورا بمودته
ثم استهلت وفود الناس قاطبة
فكان عام وفود كلما انصرفت
وأرسل الرسل تترى للملوك بما
وأم غالب أكناف الكديد الى
وحين خانت جذام فل شوكتها
وسار منتحيا وادى القرى فمحا
وام خير عبد الله فى نقر
ويمم ابن أنيس عرض نخلة اذ
ثم استقل ابن حصن فاحتوت يده
وسار عمرو الى ذات السلاسل فى
وغزوتان لعبد الله واحدة

يطوى المنازل بالوخادة الرسم
الى حماة فلاقت وافر الكرم
عصابة أقبلت أخرى على قدم
فيه بلاغ لأهل الذكر والفهم
بنى الملوح فاستولى على النعم
زيد بجمع لرهط الشرك مقتشم
بنى فزارة أصل اللؤم والقزم
الى اليسير فأرداه بلا أتم
طغا ابن ثور فأصماه ولم يخم
على بنى العنبر الطرار والشجم
جمع لهام لجيش الشرك مصظم
الى رفاة والأخرى الى اضم

وهذا الأسلوب ظاهر غالب فى هذه القصيدة ، وقد يصل احيانا
الى الغموض ولا يرجع الشاعرية الى البارودى الا حين يذكر نفسه
وبلواه وانظر كيف يقول وهو يتحدث عن رجائه فى نصرته النبى له يوم
المعاد :



انى وان كان بى حشرى وريح بى
لثابت الهد لم يحل قوى أملى
لم يترلى الدهر لى ما أستعين به
هذا يجبر مدحى فى الرسول وذا

ضيم أشاط على جمر النوى ادمى
يأس ولم تخط بى فى سلوة قدمى
على التجمل الا ساعدى وفمى
يتلو على الناس مأزجيه من كلمى

وفى هذه الأبيات الأربعة لونا من التعبير أولهما مملوء بالحرارة
لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث فى صدر الشاعر وثانيهما فيه ضعف
وفتور لأنه عاد الى القصص من جديد ولعل أغرب ما وقع له من النظم
اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب اذ قال فى تقديمها للرسول :

فهاكها يا رسول الله زاهرة
وسمتها باسمك العالى فألبسها
غريبة فى اسار الين لو انست
لم ألتزم نظم حبات البديع بها
وانما هى ايات رجوت بها
نثرت فيها فريد المدح فانتظمت
صدرتها بنسيب شف باطنه
لم أتخذه جزافا بل سلكت به
تابعت كعبا وحسانا ولى بهما
والشعر معرض ألباب يروج به
فلا يلمنى على التشبيب ذوعنت

تهدى الى النفس ربا الآس والبرم
ثوبا من الفخر لا يلى على القدم
بنظرة منك لاستغنت عن النسم
اذ كان صوغ المعانى الفر ملتزمى
نيل المنى يوم تحيا بذة الرمم
أحسن بمنشر فيها ومنتظم
عن عفة لم يشنها قول متهم
فى القول مسلك أقوام ذوى قدم
فى القول أسوة بر غير متهم
ما نمقته يد الآداب والحكم
فبلبل الروض مطبوع على النغم

ويمكن بعد هذا البيان أن نقرر أن قصيدة البارودى يغلب فيها
النظم عند سرد الحوادث ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند مناجاة
الوجدان ••

سميك يا رسول الله

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيرى والبارودى وشوقي فى
التسمى باسم النبى عليه الصلاة والسلام وكلهم يرجو أن ينبجوا بفضل
التسمى باسمه فنجد البوصيرى يقول :

ان آت ذنبا فما عهدى بمنتقض
فان لى ذمة منه بتسميتى
من النبى ولا حبلنى بمنصرم
محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

ونجد شوقى يقول :

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى
وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ونجد البارودي يقول :

خدمته بمديحي فاعتليت على

هام السماك وصار السعد من خدمي

وكيف أرهب ضيما بعد خدمته وخادم السادة الأجواد لم يضم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي باسم له في سماء العرش محترم

والبوصيري هو صاحب الفكرة وقد تبعه البارودي ، ولحقهما

شوقي وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون !

التخلص والاقتضاب في شعر البوصيري وشوقي والبارودي

التخلص هو انتقال الشاعر من فن الى فن بمناسبة ظاهرة، ويقابله
الاقتضاب ويكثر التخلص في شعر المحدثين كما يكثر الاقتضاب
في شعر القدماء . قال ابن رشيق وأولى الشعر بأن يسمى تخلصا
ما تخلص فيه الشاعر من معنى الى معنى ، ثم عاد الى الأول وأخذ في
غيره ثم رجع الى ما كان فيه كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة
اعتذر بها الى النعمان بن المنذر :

وكفكت منى عبرة فرددتها الى النحر منها مستهل ودامع
على حين عابت المشيب على الصبا وقلت ألما أصح والشيب وازع
ثم تخلص الى الاعتذار فقال :

ولكن هما دون ذلك شاغل مكان الشغاف تبتغيه الأصابع (١)
وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتانى ودونى راكس فالضواجع
ثم وصف حاله عند ما سمع ذلك فقال :

فبت كأنى ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع
يسهد في ليل التمام سليمها (٢) لحلى النساء في يديه قعاقع

(١) الشغاف : هو غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب .

(٢) السليم : هو الملدوغ ، سمي بذلك تفاؤلا بسلامته كما قيل في الصحراء مفازه .

تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طورا وطورا تراجع
فوصف الحية والسليم الذى شبه به نفسه ما شاء ، ثم تخلص
الى الاعتذار الذى كان فيه فقال :

أتانى أبيت اللعن (١) «أنك» لمتنى وتلك التى تستك منها المسامح
ثم اطرده ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة ..
وقد يتبع من هذا النوع شئ يعترض فى وسط النسيب من مدح
من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ، ثم يعود بعد ذلك الى ما كان
فيه من النسيب ثم يرجع الى المدح كما فعل أبو تمام ، وان أتى بمدحه
الذى نمادى فيه منقطعا وذلك قوله فى وسط النسيب من قصيدة
له مشهورة :

ظلمتك ظالمة البرىء ظلوم	والظلم من ذى قدرة مذموم
زعمت هوائك عفا الغداة كما عفت	منها طول بالوى ورسوم
لا والذى هو عالم أن النوى	أجل وان أبا الحسين كريم
ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت	نفسى على الف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك :

لمحمد بن الهيثم بن شيبابة مجد الى جنب السماك مقيم
ويسمى هذا النوع الامام ، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب
فى الخروج الى المدح بل يقولون عند فراغهم فى نعت الابل وذكر القفار
وما هم بسبيله : دع ذا ، وعد عن ذا ، ويأخذون فيما يريدون ، أو
يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه فاذا لم يكن خروج
الشاعر الى المدح ، متصلا بما قبله ، ولا منفصلا بقوله : (دع ذا)
و (عد عن ذا) ونحو ذلك سمي طفرا وانقطاعا ، وكان البحترى كثيرا
ما يأتى به نحو قوله :

(١) تحية جاهلية عاشت حينما تم ماتت وكانت فى الاغلب مما يخاطب به الملوك ، ولو
خاطبت بها اليوم أحدا من ملوك عصرك لاتهموك بقله الذوق .

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبى بالرجاء موكل
ان الرعية لم تزل فى سيرة عمرية مذ ساسها المتوكل
فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص
والاقتضاب •

أما اليوصيرى فقد أثر التخلص اذ قال فى محاوراة العذول •

انى اتهمت نصيح الشيب فى عذل والشيب أبعد فى نصح عن التهم
فان أمارتى بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهزم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم برأسى غير محتشم
لو كنت أعلم أنى ما أوقره كتبت سرا بدا لى منه بالكتم
من لى برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ان الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل ان تهمله شب على

حب الرضاع وان تقطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه ان الهوى ما تولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة وان هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخمصة شر من التخم

واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت

من المحارم والزم حمية الندم

وخالف النفس والشيطان واعصهما

وان هما محضاك النصح فاتهم

ولا تطع منهما خصما ولا حكما

فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

أستغفر الله من قول بلا عمل

لقيد نسبت به نسلا لذى عقم

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
وما استقمت فما قولى لك استقم
ولا تزودت قبل الموت نافلة
ولم أصل سوى فرض ولم أصم
ظلمت سنة من أحيا الظلام الى
أن اشتكت قدماء الضر من ورم

وهذا النوع من التخلص غير مقبول ، اذا لاحظنا انه التخلص من
النسيب الى المدح ، أما اذا لاحظنا أنه التخلص من النسيب الى حساب
النفس ، ثم الى مدح الرسول فانا نغفر له هذه الاطالة ، لأنها فى غرض
من أغراضه الاساسية وهو الدعوة الى تهذيب النفس وتطهير
الوجدان .

ومن الخير أن نذكر أن البوصيرى لا يفعل ذلك فى جميع
قصائده فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة فى همزته فيقول :

كيف ترقى رقيق الأنبياء	يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقدحا	ل سنا منك دونهم وسناء
انما مثلوا صفاتك للناس	س كما مثل النجوم المساء

وكأنما جراه شوقى فى افتتاح همزته فقال :

ولد الهدى فالكائنات ضياء	وفهم الزمان تبسم وثناء
الروح والملائك حوله	للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى	والمنتهى والسدرة العصماء

ولكن أين ابتداء شوقى من ابتداء البوصيرى ؟؟ ان الفرق بينهما
لبعيد . . وان كان فى تعبير البوصيرى شىء من الجفاء فى حق
الأنبياء .

وأعود فأذكر أنى أستملح قول البوصيرى فى رياضة النفس :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع
فرب مخصصة شر من التخم

وجمال هذا البيت يرجع الى ما فيه من صدق الدعوة : فان النفس
يضر بها الزهد كما يطغيها الترف كالجسم ترديه المسغبة كما تضره
البطنة *

وأستجيد كذلك قوله :

أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به وما استقمت فما قولى لك استقم
وحسن هذا البيت يرجع الى سماحة الشاعر ورفقه وخلوص دعوته
من شوائب الصلف والكبرياء ، وهذا أدب يحتاج الى مثله أطباء
النفوس *

وقد آثر البارودى أيضا حسن التخلص اذ قال :

ليت القطا حين سارت غدوة حملت
عنى رسائل أشواقى الى اضم
مرت علينا خماسا وهى قاربة
مر العواصف لا تلوى على ارم
لا تدرك العين منها حين تلمحها
الا مثالا كلمح البرق فى الظلم
كانها أحرف برقية نبضت
بالسلك فانتشرت فى السهل والعلم
لا شيء يسبقها الا اذا اعتقلت
بناتنى فى مديح المصطفى قلمى

وهذا تخلص مستملح مقبول ، ومضى الشاعر فى وصف القطاة
اشار للأسلوب القديم الذى نوهنا به فى الكلمة الماضية ونريد أن نقرر

أن هذا الأسلوب جزء من الفن الشعري عند الجاهليين والمخضرمين ومن سائرهم من المحدثين وبيان ذلك ان الشاعر يرى من الفن أن يصف ما يعرض له وصفا يحيله صورة شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعا من الاستقلال وتكون لهذا الوصف قيمة أى قيمة حين يراد تأكيد معنى من المعانى المقصودة ومن أمثلة ذلك قول أبى صعتره اليولاني :

فما نطفة من حب مزن تقاذفت به جنبتا الجودى والليل دامس (١)
فلما أقرته اللصاب تنفست شمال بأعلى مائه فهو قارس (٢)
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ولكننى فيما ترى العين فارس

فان للشاعر من المبالغة فى وصف ماء المزن غرضا خاصا هو الاشادة بعذوبة ذلك الثغر الشهى المذاق ، ويمثل هذا قول عاتكة المرية ، وكانت كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها :

وما طعم ماء أى ماء تقسوله تحدر عن غر طوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت عليه رياح الصيف من كل جانب
تفت جرية الماء القذى عن متونه

فما ان به عيب تراه لشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه تقى الله واستحياء بعض العواقب
فان لها من وصف الماء فى عذوبته وجمال موقعه وحاجة الأعراب
اليه غرضا خاصا هو الاشادة بجمال الحياء وطيب العفاف .

ويشبه هذين المثالين ما أنشده ابن دريد :

وما وجد أعراية قذفت بها صروف النوى من حيث لم تك ظنت
تمنت أحاليب الرعاء وخيمة بنجد فلم يقدر لها ما تمت
إذا ذكرت ماء العضاه وطيبه وبرد الحصى من نحو نجد أرنت

(١) الجودى : الجبل .

(٢) اللصاب : الشعب الصغيرة لى الجبل .

بأوجد من وجد برىا وجدته غداة غدونا غدوة واطمأنت
فان يك هذا عهد رىا وأهلها فهذا الذى كنا ظننا وظنت
وأروع من هذا قول الأيوردى (١) :

وما أم ساجى الطرف مال به الكرى	على عذبات الجزع تحسبه قلبا
تراعى باحدى مقلتيها كناسها	وترمى بأخرى نحوه نظرا غربا
فلاح لها من جانب الرمل مرتج	كأن الربيع الطلق ألبسه عصبا
فمالت اليه والحريص اذا غدت	به سورة الاطماع لم يحصد العقبى
وآنسها المرعى الخصب فصادفت	مدى العين فى أرجائه بلدا خصبا
فلما قضت منه اللبانة راجعت	طلاها فألفته قضى بعدها نجبا
أتيج له عارى السواعد لم يزل	يخوض الى أوطاره مطلبيا صعبا
فولت على دعر وبالنفس ما بها	من الكرب لالقيت فى حادث كربا
بأوجد منى يوم عجت ركا بها	لين فلم تترك لذى صيوه لبنا

وكان يكفى أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الطيبة
يغتال رشأها الذئب ، ولكن هذه الصورة الشعرية التى وضعها للغزاة
المروعة المتساعة جعلت المعنى أوقع فى النفس وأملك للقلب وأروع
الموجدان •

ولنتقل بعد ذلك الى شوقى وانا لنراه صدف عن التخلص وآثر
الاقتضاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسيب الموق المشرق الى الحديث
عما تضرر الدنيا من المبكيات ، وما تجن من ظلمات الخطوب وتدرج
من هذا الى الحديث عن غفلة النفس وفقرها الى الاخلاق وكذلك يقول:

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية	وان بدالك منها حسن ميتسم
فضى بتقوالك فاها كلما ضحكت	كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة	من أول الدهر لم ترمل ولم تتم

(١) تجد تفصيل هذه المعانى فى كتاب « مدامع العشاق » عند الكلام عن « الطبيعة فى

انفس الشعراء » •

يفنى الزمان ويبقى من اساءتها
لا تحفلى بجناها أو جنايتها
كم نائم لا يراها وهي ساهرة
طورا تمدك فى نعى وعافية
كم ضللتك ومن تحجب بصيرته
ياويلتهاه لنفسى راعها ودها
ركضتها فى مريع المعصيات وما
هامت على أثر اللذات تطلبها
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
والنفس من خيرها فى خير عافية
تطغى اذا مكنت من لذة وهوى
ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل
ألقي رجائى اذا عز المجير على
اذا خفضت جناح الذل أسأله
وان تقدم ذو تقوى بصالحه
لزمت باب أمير الأنبياء ومن

جرح بآدم يبكى منه فى الأدم
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم
لولا الأمانى والأحلام لم ينم
وتارة فى قرار البؤس والوصم
ان يلق صابا يرد أو علقما يسم
مسودة الصحف فى مبيضة اللهم
أخذت من حمة الطاعات للتخ
والنفس ان يدعها داعى الصبا تهم
فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من شرها فى مرتع وخم
طغى الجياد اذا عضت على الشكم
فى الله يجعلنى فى خير معتصم
مفرج الكرب فى الدارين والغمم
عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
قدمت بين يديه عبرة الندم
يمسك بمفتاح جبل الله يغتنم

وهذه قطعة مختارة ، الجيد فيها أكثر وأجود مما يقابله فى
كلام البوصيرى وان قول شوقى :

لا تحفلى بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

لأشرف معنى وأسمى خيالا من قول البوصيرى :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع فرب مخمصة شر من التخم

ولك أن تلاحظ أن البوصيرى وقف موقف الناصح الأمين فلما
وصل الى نفسه ذكر أنه لم يصل ولم يصم سوى الفرض ، وانه يأسى على
ان لم يتزود نافلة قبل الموت وانه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتى

تورمت قدماه ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليزرف شوقي من
الدمع وأين شوقي من البوصيرى ؟ لقد كان البوصيرى من أئمة
الصوفية ، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط
وكان يحسن أن يقول :

رمضان ولي هاتها ياساقى مشتاقه تسمى الى مشتاق

ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ويرمى بذلك
الندم الموجه الذى يذيب لفائف القلوب وانظر كيف يقول :

ان جل ذنبى عن الغفران لى أمل فى الله يجعلنى فى خير معتصم

وكان شوقي أوفر الناس احساسا بخطر ذنبه وكرم ربه حين قال :

وان تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة النادم

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة

الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » •

المعجزات

لنا فى المعجزات رأى خاص ، لا يسمح به ظرف الزمان ، لأن درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرضا لما يحيط بها، من الحقائق والفروض وقد يثير هذا فتنة نحن عنها أغنياء (١) ، فلنذكر فقط ما يتضمن بما ذكره البوصيرى وشوقى والبارودى من معجزات النبى عليه الصلاة والسلام ولنذكر قبل ذلك ان القرآن يفيض بالتدبر من الحاح المعاندين ولجأجتهم فى طلب المعجزات اذ كان النبى يدعو الى تحكيم العقل وكان أولئك الكفار يأبون الا ان تكون الرسالة مصحوبة بالعاب بهلوانية تنفر منها القلوب ، وتأبأها العقول ، وتنبو عنها الاذواق ، ولننظر كيف يقول فيهم عز شأنه وتبارك اسمه فى سورة الاسراء (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا • وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا

(١) ومع ذلك سمح الزمان وأبدينا بعض الآراء بصراحة فى كتاب « المدائح النبوية » حين حللنا بردة البوصيرى ، وحين نقدنا قصة المولد النبوى • وقد بدا الناس يفهمون أن الاسلام فى غنى بجماله الحق عن زخرف الابطال •

كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو
ترقى في السماء ولن تؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان
ربي هل كنت الا بشرا رسولا) •

وهذه الآيات صريحة في أن النبي لا يملك لنفسه شيئا وإن الأمر
كله لله وإن في القرآن هدى وتبصرة لقوم يعقلون ، وأصرح من هذا
قوله تعالى في سورة العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه
قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا
عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)
معنى هذه الآيات ان معجزة النبي الباقية هي القرآن وفي تأييد ذلك
يقول البوصيري :

آيات حق من الرحمن محدثة	قديسة صفة الموصوف بالقدم
لم يقترن بزمان وهي تخبرنا	عن المعساد وعن عاد وعن ارم
دامت لديننا فقامت كل معجزة	من النبيين اذ جاءت ولم تدم

وتبعه شوقي فقال :

جاء النبيون بالآيات فانصرفت	وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد	يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة	يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

ويمكن بعد هذا ان نقرر ان شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد
الأخبار الواردة في المعجزات ، وإن كان شوقي على شيء من الحرص
ويليه البوصيري ، اما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل
وقد اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الأشجار
وسعيها الى الرسول فقال البوصيري :

جاءت لدعوته الأشجار ساجدة تمشي اليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرالما كتبت فروعها من بديع الخط باللقم

وقال البارودي :

اتلك أم حين نادى سرحة فأتت إليه منشور الأغصان كالجمم
حنت عليه حنو الأم من شفق ورفرفت فوق ذاك الحسن من رخم
جاءته طوعا وعادت حين قال لها عودى ولو خليت للشوق لم ترم
وانفرد البارودي بالحديث عن شق صدر النبي وهو غلام فقال :

فبينما هو يرعى البهم طاف به شخصان من ملكوت الله ذى العظم
فأضجعا وشقا صدره بيد رفيقة لم يبت منها على ألم
وبعد ما قضيا من قلبه وطرا توليا غسله بالسلسل الشبم
ماعالجا قلبه الا ليخلص من شوب الهوى ويعى قدسية الحكم
فيالها نعمة لله خص بها حبيبته وهو طفل غير محتلم

وشق الملائكة اصدر النبي وغسلهم اياه السلسيل ليس من
المعجزات لأن المعجزة تكون للاقناع وهو لم يدع الى ربه فى طفولته
حتى يكون الاقناع مجال .. وانما هو نوع من التطهير لم تجر به
العادة ولم يعرفه الناس ، والله يختص برحمته من يشاء ، وقد مر
البارودي بهذه السطور مر الطيف فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها
بتحليل ، ونحن نكتفى هنا بأن نقرر أنها فى حاجة الى تحقيق ثم نلنت
الى ما فيها من روعة الخيال ، فقد صور النبي فيها صورة رائعة وتمثل
فيها لطف الله به واحسانه اليه وتكريمه اياه ، وهى صورة شعرية
نحب أن نمتع بها القارئ ليرى كيف ابتدا القصص فى سيرة النبي
عليه الصلاة والسلام •

ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال :

« وكنت مسترضعا فى بنى سعد بن بكر • فبينما أنا ذات يوم منتبذ
من أهلى فى بطن واد مع أترب لى من الصبيان اذا أنا برهط ثلاثة

معهم طشت برهرة من الذهب ملان ثلجا ، فأخذوني من بين أصحابي ،
 وانطلق أصحابي هرابا حتى انتهوا الى شفير الوادي ، ثم أقبلوا على
 الرهط وقالوا : ما أربكم من هذا الغلام ؟ فانه ليس منا ، هذا
 ابن سيد فريش وهو مسترضع فينا ، غلام يتيم ليس له أب ، فما يرد
 عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فان كنتم لابد قاتليه فاختراروا
 منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم ، فلما
 رأى الصبيان أن القوم لا يحIRON جوابا انطلقوا مسرعين الى الحي
 يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم ، قال فعمد أحدهم فأضجعني
 الى الأرض اضجاعا رفيقا ثم شق بطني ما بين مفرق صدرى الى عاتى ،
 وأنا أنظر اليه ، ولم أجد لذاك مسا ، ثم أخرج أحشاء بطني فغسلها
 بذلك الثلج فأنعم غسلها ثم اعادها الى مكانها ، ثم قام الثانى منهم فقال
 لصاحبه : تنح عنه فنحاه عني ثم أدخل يده فى جوفى فأخرج قلبى وأنا
 أنظر اليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغه سوداء فرمى بها ثم أمر يده
 يمنة منه ، وكأنه يتناول شيئا فاذا بخاتم من نور فى يده يحار
 الناظرون اليه فختهم به قبي فامتلا نورا • وذلك نور النبوة والحكمة .
 ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم فى قلبى دهرا ، ثم قال الثالث :
 ننح عنه فنحاه عني فأمر يده على مفرق صدرى الى منتهى عاتى ،
 فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى ، ثم أخذ ييدى فأنهضنى من مكانى
 انهاضا لطيفا • ثم قال الأول الذى شق بطني : زنه بعشرين من أمته
 فوزننى فرجحتهم ثم قال : زنه بسائة من أمته فوزننى فرجحتهم ثم قال
 زنه بألف من أمته فوزننى فرجحتهم ثم قال : دعه فوالله لو وزنته بأمته
 لرجحهم • قال : ثم ضموني الى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عيني
 ثم قالوا : لا ترع فانك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت به عيناك
 قال : فبينما نحن كذلك اذ أقبل الحي بحذافيرهم فاذا ظئرى أمام الحي
 تهتف بأعلى صوتها وتقول واضعيفاه فائكبوا على وضموني الى

صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني - يعني الملائكة وقالوا حبذا أنت من وحيد ، وما أنت بوحيد ، ان الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض ثم قالت ظئري ، وايتيماها استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضغفك قال فانكبوا على وضموني الى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني - يعني الملائكة - وقالوا : حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله ، لو تعلم ما يراد بك من الخير لقرت به عينك . فوصل الحي الى شفير الوادي فلما أبصرتني أمي - وهي ظئري - قالت : لا أراك الا حيا بعد ، فجاءت ثم انكبت على ثم ضمنتني الى صدرها فوالذي نفسي بيده اني لفى حجرها قد ضمنتني اليها وان يدي لفى يد بعض الملائكة وجعل القوم لا يرونهم قال : فقال بعض القوم ان هذا الغلام قد أصابه ثم أو طائف من الجن فانطلقوا به الى كاهننا حتى ينظر اليه ويداويه ، فقلت يا هذا ما بي شيء مما تذكرون ان آرابي نسليمة وفؤادي صحيح . . ليست لي فلة فقال أبي - وهو زوج ظئري - ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ اني لارجو أن لا يكون بابني بأس فاتفقوا على أن يذهبوا بي الى الكاهن فلما انصرفوا بي قصوا عليه قصتي فقال : اسكتوا حتى أسع من الغلام فانه هو أعلم بأمره منكم فسألني فقصصت عليه القصة وأمرى من أوله الى آخره فوثب الى وضمنني الى صدره ثم نادى بأعلى صوته : ياللعرب اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه . . فواللات والعزى لئن تركتموه وأدرك لبيدكن دينكم . . وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم . وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله ، قال : فعمدت ظئري اليه فانتزعتنى من حجره وقالت : لأنت أعتة وأجن . . ولو علمت أن هذا من قولك لما أتيتك به فاطلب لنفسك من يقتلك ، فانا غير قاتلي هذا الغلام ، ثم احتملوني وأدوني الى أهلهم وأصبحت مفزعا مما فعل بي وأصبح أثر الشق ما بين صدري الى منتهى عاتني كأنه الشراك » (١) .

(١) راجع كتاب نجباء الأبناء .

وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لنمكن القارىء من نقده وتمييزه
ولنجعله على بينة من الحكم انه أو عليه ، ان شاء ، أما نحن فترينا فيه
عبارته اذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو الى ما فى صحيح الحديث من
متانة التركيب وحلاوة التعبير ويرينا بنوع خاص مفتتح الحديث فان
طريقة القصص التى سلكها قد تدل على انه موضوع وذلك قوله « روى
شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس مع النبى صلى الله عليه وسلم
اذ أقبل شيخ من بنى عامر وهو مدره قومه ، يتوكأ على عصاه فمثل بين
يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه الى جده ، فقال : يا بن
عبد المطلب انى أنبت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه
وسلم الى الناس ، وان الله تعالى ارسلك بما أرسل به ابراهيم وموسى
وعيسى وغيرهم من الأنبياء والخلفاء ألا وانك تفوهت بعظيم .. انما
كانت الأنبياء والخلفاء فى بيتين من بنى اسرائيل * وأنت ممن يعبد
الحجارة والأوثان فمالك والنبوة لكن لكل حق حقيقة فأنبئنى بحقيقة
قولك .. وبدو شأنك قال : فأعجب النبى بمسأله ، ثم قال : يا أخا
بنى عامر ان لهذا الحديث الذى سألتنى عنه نبأ عظيما ومجلسا كريما
السخ » •

فان القارىء يرتاب على الأقل فى صحة هذه الجملة : « انى
أنبت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس » فان
كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن يزعم أنه رسول وعبرة فأنبئنى
بحقيقة قولك وبدو شأنك • « عبارة مولدة لاريب فى ذلك وما أظن النبى
يقول » ان لهذا الحديث الذى سألتنى عنه نبأ عظيما • ومجلسا
كريما » فان هذا أيضا من تعابير المولدين ولكل عصر أسلوب •

أكتفى بهذا فى نقد هذه الأقصوصة وأترك للمشغلين بعلم
الحديث تقديمها الى محكمة التعديل والتجريح وانتقل الى ما ذكره

من العجائب عند ميلاد الرسول • كانشداد ايوان كسرى وخمود نار
الفرس ، ونضوب بحيرة ساوة وما الى ذلك من خوارق العادات ..

قال البوصيرى فى البردة :

أبان مولده عن طيب عنصره
يوم تفرس فيه الفرس أنهم
وبات ايوان كسرى وهو منصع
والنار خامدة الأنفاس من أسف
وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
كأن بالنار ما بالماء من بلل
والجن تهتف والأنوار ساطعة
عموا وصموا فاعلان البشائر لم
من بعد ما أخبر الاقوام كاهنهم
وبعد ما عاينوا فى الافق من شهب
حتى غدا عن طريق الحق منهزم
وقال فى الهزمية :

وتداعى ايوان كسرى ولولا
وغدا كل بيت نار وفيه
وعيون للفرس غارت فهل كما
آية منك ما تداعى البناء
كربة من خسودها وبلاء
ن ليرانهم بها اطفاء

ويقول شوقي فى نهج البردة :

وخل كسرى وايوانا يدل به
هوى على اثر النيران والأيم
ويقول فى الهزمية :

ذعرت عروش الظالمين فزلزات
والنار خاوية الجوانب حولهم
والآى تترى والخوارق جمعة
وعلت على تيجانهم أصدا
خمدت ذوائبها وغاض الماء
جبريل رواح بها غداء

ويرى القارئ أن البوصيرى أكثر من شوقى إشادة بتلك
الخوارق وشعره فيها يفيض بالحياة ، أما شوقى فقد آثر الحيلة وهو
يتكلم عن هذه الموضوعات فكان شعره فيها أضعف من شعره فى سائر
أغراض القصيدة وسرى تحليله لفريضة الجهاد فى الكلمة الآتية :

ويمكن بعد هذا أن نحكم بأن شعر البوصيرى أروع من شعر
شوقى فى وصف الخوارق والمعجزات وإن شوقى أبعد نظرا من
البوصيرى فى نقد الأخبار والآثار ، فإن انصداع الايوان ، وخمود نار
الفرس ، وانضوب بحيرة ساوة وانقراض الشهب على الأصنام : كل
هذه الحوادث فيها نظر وكلها فى حاجة الى تمحيص ولكن أكثر الناس
لا يعلمون •

وصف القرآن

لم يعن البارودي بوصف القرآن كما عني به البوصيري وشوقي
أما البوصيري فقد قال :

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم
فما تطاول آمال المديح الى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

وأول هذه الأبيات فيه شيء من السذاجة وعبرة « دعني ووصفي
آيات له ظهرت » عبارة عامية وقوله :

فالدر يزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم

غير واضح المدلول لأن الدر الذي يتحدث عنه لا يصح أن يكون
صفة القرآن ، لأنه لا يهم بنظم القرآن ولا يصح أن يكون صفة لتقريب
القرآن . اذ لم تسبق ذلك اشارة ولم يتقدمه دليل فلم يبق الا أن تكون
هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع ، فقيدها في ذلك البيت
وهو نبي ذاته بيت جميل ، أما قوله :

فما تطاول آمال المديح الى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم

فهو بيت يمدح به شخص ولا يقرظ به كتاب وقد كان الشاعر
يرمى الى وصف القرآن بأنه دعوة الى محاسن الشيم ، ومكارم
الأخلاق ولكنه لم يوفق الى حسن الأداء ..

وقوله بعد ذلك :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن ارم
فيه اشارة الى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه
وهي اشارة مبهمة لا تغنى في دفع ولا تأييد ، والبيت الثاني غير جيد
المعنى لأن أخبار القرآن عن عاد وعن ارم ليس حجة الا عند المسلمين
أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار العهود الأولى غير ما تشهد به
الآثار بعد أمن اللبس والتزوير •

أما قوله :

دامت لديننا فهاقت كل معجزة من النبيين اذ جاءت ولم تدم
فهو بيت القصيد اذ كان القرآن هو المعجزة الباقية وكان هو
المرجع حين يجد الخلاف ، وهو أيضا المعجزة الصريحة التي يعتز بها
العقل ويصبح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين أما نبع الماء
من بين يدي الرسول وتظليل الغمام اياه ، وسجود الأشجار له وما الى
ذلك من المعجزات فهي مسائل يحتاج عرضها الى مخاطرة وهي مخشية
الضر قبل أن تكون مرجوة النفع ولكن أكثر الناس لا يفقهون •

وقوله :

ما حوربت قط الا عاد من حرب أعدى الأعادي اليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضتها رد الغيور يد الجاني عن الحرم
كلمة صدق ويكفى أن تقرأ القرآن بحيدة ونزاهة لتلمس هذه

الحقيقة ، فالقرآن كتاب خطر رهيب يحمل عدوه على الايمان به
والخشوع لديه ، ولو صحت - لاصحت - أراجيف الملحدين من أن
القرآن من انشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل
شهد هذا الوجود » وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك
إذا لارتاب المبطلون • بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم
وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » •

وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز :
لها معان كموج البحر في مدد وفوق جوهرة في الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الاكثار بالسام
قوت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
ان تتلها خيفة من حر نار لظى أطفأت نار لظى من وردها الشبه
لا تعجب لحسود راح ينكرها نجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

وينكر الفم طعم الماء من سقم
وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال وهو غاية في تقرير
المكابرين •

أما شوقي فقد قال :

جاء النبيون بالآيات فانصرفت وجئت بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جدد يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
وهذا الوصف على ايجازه جميل ، وكنت أود أن لا يكتفى شوقي
في وصف القرآن بهذه الأبيات • • ، وقد انتقل الى الاشارة بحديث
النبي فقال :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليت من عطل جيد البيان به في كل منتشر في حسن منتظم
بكل قول كريم أنت قائله تحيي القلوب وتحيي ميت الهمم

وقول شوقي :

آياته كلما طال المدى جدد يزينهن جلال العتق والقدم

أروع من قول البوصيري :

فما تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الاكثار بالسام

وقول البوصيري :

ان تتلها خيفة من حر نار لظى اطفأت نار لظى من وردها الشيم

فيه ضعف لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله وهو تهذيب النفوس وتثقيف العقول الى غرض ضئيل هو اتخاذ وردا من أوراد الصباح أو المساء كما فعل المتأخرون .

وقوله :

حليت من عطل جيد البيان به ذى كل منتشر فى حسن منتظم

غير جيد المعنى وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو زينة البيان وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع الى ما فيه من الشمول وجودة الوصف لا تتم الا بتحديد الموصوف .

« وصف الهيجاء »

عنى العرب كثيرا بوصف الحرب فأفاض شعراؤهم فى الاشادة بذكر الغزاة والتمدح بآثار المجاهدين وهذا كتاب (الحماسة) شاهد عدل على تلك النزعة الحربية التى سيطرت على نفوس العرب زمنا غير قليل فقد اختار أبو تمام قطعا قليلة فى الحديث عن أدب النفس ومكارم الأخلاق وفعل مثل ذلك فى الفكاهات والملح والنسيب ثم ملا كتابه بالحماسة والهيجاء والمديح . وهى الفنون التى تترجم النفس العربية وتكشف عما فيها من مطوى النوازع ومكنون الميول وكذلك مهدت السبيل لشعرائنا

الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك وما اقتحم من الحروب
وان اختلفت مناحيهم في وصف الهيجاء .

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة مجملة ولم يميز
بعض الغزوات عن بعض وهو يتكلم عن أخبار القتال فوصفه للحرب
وصف فضفاض يصلح لبوسا لكل موصوف . وانظر كيف يقول :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته ما زال يلقاهو في كل معرك ودوا الفرار فكادوا يغبطون به تمضي الليالي ولا يدرون عدتها كأننا الدين ضيف حل ساحتهم يجر بحر خميس فوق سابحة من كل منتدب لله محتسب حتى غدت ملة الاسلام وهي بهم	كناية أجفلت غفلا من الغنم حتى حكوا بالقنا لحما على وضم أشلاء شالت مع العقبان والرخم مالهم تكن من ليالي الأشهر الحرم بكل قرم الى لحم العدا قرم يرمي بموج من الأبطال ملتطم يسطو بمستأصل للكفر مصطام من بعد غربتها موصولة الرحم
--	---

وانه ليحسن أن نسجل اعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من
أصحاب الرسول :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم وسل حنيئا وسل بدرا وسل أحدا المصدرى البيض حمرا بعد ماوردت والكاتبين بسمر الخط ما تركت شاكي السلاح لهم سيبا تميزهم تهدي اليك رياح النضر نشرهمو	ماذا رأى منهمو في كل مصطدم فصول حثف لهم أدهى من الوخم من العدا كل مسود من اللمم أقلامهم حرف جسم غير منعجم والورد يمتاز بالسيميا من السلم فتحسب الزهر في الأكمام كل كشي
---	---

وقد يستضعف قوله :

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا	من شدة الحزم لا من شدة الحزم فما تفرق بين البهم والبهم
--	---

أما البارودي - جعل الله له لسان صدق في الآخرين - فقد وصف
الحرب وصفا حيا صارخا يبعث ميت العزم ويثير مدفون الصيال ،
وما ظنك بجندى سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح
الشوامخ ليبلغوا أسباب السموات وليحاربوا المقتدر القهار ، وانه لضلal
أجمل من الهدى وغى الهدى من الرشاد •

ولنظر كيف يقول :

قام النبي لنصر الحق معتزما	بجحفل لجموع الشرك مختسرا
تبدو به البيض والقسطال منتشر	كالشهب في الليل أو كالنار في الفحم
لمع السيوف وتصهايل الخيول به	كالبرق والرعد في مغدودق هزم
عرمرم ينسف الأرض الفضاء اذا	سرى بها ويدك الهضب من خيم
فيه الكمأة التي ذلت لعزتها	معاطس لم تزل قبل بالخطم
من كل معتزم بالصبر محتزم	للقرن ملتزم في البأس مهتزم
طالت بهم هم نالوا السماك بها	عن قدرة وعلو النفس بالهمم
بيض أساوره غلب قساورة	

طابت نفوسهم بالموت اذ علموا	شكس لدى الحرب مطعمون في الأزم
ساسوا الجياد فظلت في أعنتها	ان الحياة التي يبغون في العدم
تكاد تفقه لحن القول من أدب	طوع البنانة في كر ومقتحم
كأن أذنا بها في الكر ألوية	وتسبق الوحي والايماء من فهم
من كل منجرد يهوى بصاحبه	على سفين لأمر الريح مرتسم
والبيض ترجف في الاغماد من ظمأ	بين العجاج هوى الأجلد اللحم
من كل مطرد لولا علاقته	والسمر ترعد في الايمان من قرم
كأنه أرقم في رأسه حمة	لسابق الموت نحو القرن من ضرم
فلم يزل سائرا حتى أناف على	يستل كيد الأعادي بابتة الرقم
ولفهم بخميس لو يشد على	أرباض مكة بالفرسان والبهم
	أركان رضوى لأضحى مائل الدعم

فأقبلوا يسأنون الصفح حين رأوا أن اللجاجة مدعاة الى الندم
ريعوا فذلوا ولو طاشوا لوقرهم ضرب يفرق منهم مجمع اللمم

وهذه صورة شعرية قليلة الأمثال وانك لتعجب حين ترى البارودي
يفتن في تصوير الحرب وهو يتحدث عن الغزوات غزوة غزوة وانظر كيف
يقول مثلاً في يوم بدر :

يوم تبسم فيه الدين وانهملت	على الضلال عيون الشرك بالسجم
أبلى على به خير البلاء بسا	حياه ذو العرش من بأس ومن همم
وجال حمزة بالصمصام يكسؤهم	كسأ يفرق منهم كل مزدحم
وغادر الصحب والأنصار جمعهم	وليس فيه كسى غير منهزم
تقسستهم يد الهيجاء عادلة	فالهام للبيض والأبدان للرخم
كأنما البيض بالأيدى صوالجة	يلعبن فى ساحة الهيجاء بالقمم
لم يبق منهم كسى غير منجدل	على الرغام وعضو غير منحطم
فما مضت ساعة والحرب مسعرة	حتى غدا جمعهم نهبا لمقتسم
قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة	بالمشرفية والمران كالرجم
فأين ما كان من زهو ومن صلف	وأين ما كان من فخر ومن شمم
جاءوا والمشر وسم فى معاطسهم	فأرغموا والردى فى هذه السيم
من عارض الحق لم تسلم مقاتله	ومن تعرض للأخطار لم ينم

أما شوقي فقد وصف النبى فى الحرب وصفا رقيقا لا يلائم ما
تقضى به الحرب من غلبة الغضب وشمول العبوس ولننظر كيف يقول :

البدر دونك فى حسن وفى شرف	والبحر دونك فى خير وفى كرم
شم الجبال اذا طاولتها انخفضت	والأنجم الزهر ما أوسمتها تسم
والليث دونك بأسا عند وثبته	اذا مشيت الى شاكى السلاح كسى
تهفـو اليك وان أدميت حبتها	فى الحرب أفئدة الأبطال والبهم
محبة الله ألقاها وهيبته	على ابن آمنة فى كل مصطدم
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى	يضىء ملتثما أو غير ملتثم

بدر تطلع فى بدر فغمرته كفرة النصر تجلو داجى الظلم
وهذا شعر جميل لكنه أرق من أن يوصف به ذوو البأس وهم
يقارعون الهول فى ميدان الجلال ، ويعجبني قوله فى وصف الغزاة :

مهما دعيت الى الهيجاء قمت لها	ترمى بأسد ويرمى الله بالرجم
على لوائك منهم كل منتقم	لله مستقتل فى الله معتزم
مسيح للقاء الله مضطرم	شوقا على سابح كالبرق مضطرم
لو صادف الدهر يبنى نقلة فرمى	بعزمه فى رجال الدهر لم يرم
بيض مفاليل من فعل الحروب، بهم	من أسيف الله لا الهندية الخزم
كم فى التراب اذا فتشت عن رجل	من مات بالعهد أو من مات بالقسم
لولا مواهب فى بعض الأنام لما	تفاوت الناس فى الأقدار والقيم

حكمة الجهاد

لم يفصح البوصيرى عن السر فى مشروعية القتال ، وأشار إليها
البارودى اشارة خفيفة حين قال :

ذاقوا الردى جرعا فاستسلموا جزعا

للصلح والحرب مرقاة الى السلم

أما شوقى فقد أبان عن حكمة الجهاد وأفصح عنها افصاحا يرضى
المنصف، ويكبح جهل المعاند الكنود ، ولننظر كيف يقول :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب	تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به	ذرعا وان تلقه بالشر ينحسم

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية فقد كانت دين
سلام واخاء ولكنها لم تقم الا بالسيف وفى هذا يقول :

سل المسيحية الغراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغلم
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها فى كل حين قتالا ساطع الحدم
لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ثم عاد الى تأكيد فضيلة الجهاد فقال :

علمتهم كل شىء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذم
لولا لم نر للدولات فى زمن ما طال من عمد أوقر من دعم
تلك الشواهد تترى كل آونة فى الأعصر الغر لا فى الأعصر الدهم
بالأمس مالت عروش واعتلت سرر لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

المدنية الإسلامية

وقد انفرد شوقي بالأفصاح عن جلال المدنية الإسلامية .. وتقديمها
على مدنية المصريين واليونان والرومان وفى ذلك يقول :

دع عنك روما وآتينا وما حوتا كل اليواقيت فى بغداد والتوم
وخل كسرى وايوانا يندل به هوى على أثر النيران والايـم
واترك رعمسيس ان الملك مظهره فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلما ذكرت دار السلام لها ألفت يد السلم
ما ضارعتها بيانا عند ملتأم ولا حكمتها قضاء عند مختصم
ولا احتوت فى طراز من قياصرها على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين اذا سارت كتائبهم تصرفوا بحدود الأرض والتخم
ويجلسون الى علم ومعرفة فلا يدانون فى عقل ولا فهم
يطأطئ العلماء الهام أن نبسوا من هيبة العلم لا من هيبة الحكم

وقد مضى الشاعر فى وصف خلفاء الاسلام وما كان لهم من الأثر
فى حياة الدين .. ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله :

واترك رعمسيس ان الملك مظهره فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم

فانه من فرائد الأمثال .. ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة أن
البوصيرى سما فى المدائح النبوية سموا لم يوفق الى معشاه فى
سائر شعره وهذا أثر لصدق العاطفة بخلاف صاحبيه فان شعرهما فى
هذا الباب دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ وصدق شوقى
حين قال :

المادحون وأرباب الهوى تبع لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم

مديحه فيك حب خالص وهوى

وصادق الحب يملئ صادق الكلم

بين شوقي وابن زيدون

نحن مقبلون فى هذا البحث على واد ظليل من أودية البيان (١) :
مقبلون على الموازنة بين نونية شوقي ونونية ابن زيدون • مقبلون على
مصافحة شاعرين من أهل العبقرية ومراجعة قصيدتين شغلت احدهما
الناس تسعة قرون وشغفت الثانية ألوف القلوب •

وابن زيدون صاحب النونية شخصية تمتاز بميزة ظاهرة ، فهو
رجل خلخته الدسائس فى الحب والملك ولا يمكن أن نعرف فضل الشر
الا اذا تمثلنا مصير ابن زيدون فالدسائس من ألوان الشر الوضع ولا
يعتصم بالدسائس الا الضعاف العجزة من صغار الناس ولكن الدسائس
تعود بالنفع والخير فى أكثر الأحيان فلولا الدسائس فى الحب والملك
لما تفجرت عبقرية ابن زيدون ولا رأى العالم تلك الأقباس الخالدة
التى تسطع من أدبه الرفيع ••

ومن عجائب ما يقع فى الحياة أن تكون المنازل الأدبية العالية من
نصيب من أصيبوا بالحرمان فى دنيا الحب والمجد فالرجل حين يحرم
تنفجر عبقريته ويسيطر على الدنيا سيطرة أدبية تعوض عليه ما ضاع

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٣٤٠ •

من نعيم الراحة الروحية والدينية والمجد الأدبي متاع ليس بالقليل ،
وهو جدير بأن يوضع فى الميزان ولا يفض من قيمة هذه الغنيمة ما نعرف
ويعرف اناس من أن العبقرين لا يحسون أثر هذا العوض ولا يرضون
عن زمانهم ، وان بلغت شهرتهم آفاق السماء ، هذا لا يفض من قيمة
تلك الغنيمة ، فقد يظهر بعد حين أن الأرواح تأنس أنسا مكنونا بظفرها
فى عالم الفكر والبيان •

وقد شاعت المقادير أن تخص ابن زيدون بنفحة فريدة فابتلته بليتين
لا يتلى بهما رجل كريم الا عرف كيف يكون العز والذن ، والشهد
والعقم ، والنعيم والجحيم •

أما البلية الأولى فهي الحب ، وأما البلية الثانية فهي المجد وبين
الحب والمجد أخطار ومصاعب تهد العزائم وتدق الأعناق •

ولا يهمنا فى هذا المقام أن نشير الى منزلة ابن زيدون الوزير ،
وانما يهمنا أن نشير الى منزلة ابن زيدون العاشق فالوزارة منصب
غادر يتنقل من يد الى يد ، كما يتنقل القرش المثقوب من جيب الى
جيب أما الحب فنفحة روحانية لا يعبق طيبها الا فى كرام القلوب •

الحب هو الذى فجر العبقرية فى صدر ابن زيدون ولكن أى حب؟
لقد كان ذلك الرجل يحب امرأة خطيرة تجمع بين الحسن والذكاء •

والحسن منحة الهية يزفها الله الى من يشاء ، وهو خليق بأن يصنع
ما يصنع ، فيعز ويذل ويرفع ويضع ويكرم ويهين ، ولكن الحسن وحده
لا يأسر القلوب ، انما يسيطر ويستطيل حين يجد رفيقا ، من خفة الروح
ومن لطف الذكاء •

كان ابن زيدون يحب امرأة جميلة ذكية على جانب من حلاوة
الشمائل ولطف الوجدان ، وهذا النوع نادر الوجود ، والمرأة حين تمنح
الجمال والذكاء تحارب بسيفين مرهفين ، وتحول الدنيا الى ماتم

وأفراح ، والشاعر الذى يحب امرأة جميلة ذكية يصبح احساسه
كالوقود الذى يقدم الى النار ، ومن قلب العاشق الحساس وذكاء
المرأة الجميلة تقوم دنيا الشعر الجميد .

أعرفتم الآن كيف نبغ ابن زيدون ؟

ان لم تعرفوه فاسمعوا هذه الزفرة ، وهو يتشوق الى تلك
المحبوبة التى ملكت قلبه واستأثرت بنهاه :

هل راكب ذاهب عنهم يحيينى	اذا كتاب يوافينى فيحيينى
قد مت الا ذماء فى يمسكه	أن الفؤاد بليهاهم يرجينى
ما سرح الدمع من عينى أطلقه	الا اعتياد أسى فى القلب مسجون
صبرا لعل الذى بالبعد أمرضنى	بالقرب يوما يداوينى فيشفينى
كيف اصطبارى وفى كانون فارقنى	قلبى وها نحن فى أعقاب تشرين
شخص يذكرنى فاه وغرته	شمس النهار وأنفاس الزياحين
لئن عطشت الى ذاك الرضاب لكم	قد بات منه يسقيني فيروينى
وان أفاض دموعى نوح باكية	فكم أراد يغينى فيشجيني
وان بعدت وأضنتنى الهموم لقد	عهدته وهو يدنينى فيسلينى
أوحل عقد عزائى نأيه فلکم	حللت عن خصره عقد الثمانين
يا حسن اشراق ساعات الدنوبدت	كواكيا فى ليالى بعده الجون
والله ما فارقونى باختيارهم	وانما الدهر بالمكروه يرمينى
وما تبدلت حبا غير حبههم	اذا تبدلت دين الكفر من دينى
أفدى الحبيب الذى لو كان مقتدرا لكان بالنفس والأهلين يفدينى	

ولنمارع فنذكر ان هذه المحبوبة هى ولادة بنت المستكفى التى
يقول فيها ابن خاقان :

« كانت من الأدب والظرف وتتييم المسمع والطرف بحيث تختاس
القلوب والألباب وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب »

كانت ولادة فاتنة الجمال وكانت أدبية تنظم الشعر البارع

وتدك أسرار الكلام البليغ والشاعر الذي يهوى فتاة أدبية ينعم مرتين،
بنعم بالحب وينعم بالشعر والشعر لا يقوى وينضج إلا إذا عرف المحب
أنه يوجه أنغامه إلى أذن تسمع وقلب يذوق ..

واليكم هذا القصيد في خطاب تلك الأدبية الحسنة :

اني ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق..مرأى الأرض قدراقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنه رق لى فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضى ميتسم	كما شقتت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت	بتنا لها حين نام الدهر سراقا
تلهو بما يستميل العين من زهر جال	الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه اذ عاينت أرقى	بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
ورد تألق في ضاحى منابته	فازداد منه الضحى فى العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق	وسنان به منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوفنا	اليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لاسكن الله قلبا عن ذكركم	فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملى نسيم الصبح حين	سرى وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
لو كان وفى المنى فى جمعنا بكم	لكان من أكرم الأيام أخلاقا

كان التجارى بمحض الود من زمن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا

لا يمكن أن يتسع الحديث لتفصيل غرام ابن زيدون وانما أردنا
أن نمهد لتلك النونية البديعة التى تفحنا بها ذلك الغرام الطريف ..

➤ ونونية ابن زيدون هذه قصيدة نادرة يحفظها جميع الأدباء فى
جميع البلاد العربية وهى فى الشعر العربى تذكر بليالى ميسيه فى
الشعر الفرنسى فكما أن الفرنسيين جميعا يعرفون ليالى ميسيه فالعرب
يعرفون جميعا نونية ابن زيدون ، فان كان فى القراء من يجهل هذه

القصيدة فليعرف واجبه نحو لغته وقوميته فانه لا يليق بشساب
مشقف يجهل نونية ابن زيدون التي سارت مسير الامثال ..

وقد يكون في القراء من يقول انها قصيدة في الحب ، وما هو
الحب ، والمجال لا يتسع مع الأسف لبيان خطر الحب الذي لا يعرف
غير قلوب الفحول من الرجال وانما نشير الى أن رواية الاديب الحق
الذي يصدر عن صدق المشاعر والقلوب هي في ذاتها متعة ذوقية لا
يصدف عنها الا الغافلون ..

والى آذانكم وقلوبكم نسوق هذه القصيدة العصماء (١) :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألا وقد حان صبح البين صبحنا	حين فقام بنا للحين ناعينا
من مبلغ الملبسينا بانتراحهم	حزنا مع الدهر لا يبلى ويبيلنا
أن الزمان الذي مازال يضحكنا	أنسا بقربهم قد عاد ييكننا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا	بأن نعص فقال الدهر آميننا
فأنحل ما كان معقودا بأنفسنا	وانبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا	فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
يا ليت شعري ولم نعتب أعاديكم	هل نال حظا من العتبى أعاديننا
لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم	رأيا ولم نتقلد غيره ديننا
ما حقنا أن تقرؤا عين ذي حسد	بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه	وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحننا	شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا	يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فعدت	سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

(١) رأينا أن نسوق هذه النونية كاملة لأنها في غرض واحد لا يظهر جماله ، الا وهي
مؤلفة الشمل ولا كذلك نونية شوقي فانها مختلفة الأغراض ، وستكشف الموازنة عن تنقل
شوقي من فن الى فن ونفاذه من مسلك الى مسلك .

اذ جانب العيش طلق من تألفنا
واذ صهرنا فنون الوصل دانية
ليسق عهدكم عهد السرور فما
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
والله ما طلبت أرواحنا بدلا

يسارى البرق غاد القصر فاسق به
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا
فهل أرى الدهر يقضينا مساءفة

ريب ملك كأن الله أنشأه
أو صاغه ورقا محضا وتوجه
اذا تأود أدته رفاهية
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته
كأنما أثبتت فى صحن وجنته
ما ضر ان لم تكن اكفاءه شرفا

يا روضة طالما أجت لواظنا
ويا حياة تملينا بزهرتها
ويا نعيما خطرنا من غضارته
لسنا نسبيك اجلالا وتكرمة
اذا انفردت وما شوركت فى صفة

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
كأننا لم نبت والوصل ثالثا
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا

ومربع اللهو صاف من تصافينا
قطوفه فجنينا منه ماشينا
كنتهم لأرواحنا الا رياحينا
اذ طالما غير اليأس المحيينا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

من كل صرف الهوى والود يسقيننا
الفا تذكره أمسى يعنيننا
من لو على البعد حيا كان يحيينا
منه وان لم يكن غبا تقاضينا

مسكا وقدر انشاء الورى طينا
من ناصع التبر ابداعا وتحسينا
توم العقود وأدمته البرى لينا
بل ما تجلى لها الا أحيينا
زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
وفى المودة كاف من تكافينا

وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
منى ضروبا ولذات أفانينا
فى وشى نعى سحينا ذيله حينا
فقدرك المعتلى عن ذاك يعنيننا
فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا

والكوثر العذب زقوما وغسلينا
والسعد قد غض من أجفان واشينا
حتى يكاد لسان الصبح يشفيننا

لاغرو في أن ذكرنا الحب حين نهت
انا قرأنا الأسى يوم النوى سورا
أما هواءك فلم تعدل بمنهله
لم نجف أفق جمال انت كوكبه
ولا اختيارا تجنبناه عن كذب
نأسى عليك اذا حثت مشعشة
لا أكوس الراح تبدى من شمائلنا
دومى على العهد ما دما محافظة
فما استعضنا خليلا منك يحبسنا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه
أبلى وفاء وان لم تبذلى صلة
وفى الجواب متاع ان شفعت به
عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
شربا وان كان يروينا فيظمينا
سالىن عنه ولم نهجره قالينا
لكن عدتنا على كره عوادينا
فينا الشبول وغنانا مغنينا
سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
فالحر من دان انصافا كما دينا
ولا استفدنا حبيبا عنك يثينا
بدرالدجى لم يكن حاشاك يصبينا
فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا
بيض الأيادى التى مازلت تولينا

تلكم هى النونية التى شغلت الناس تسعة قرون •

ومن الظلم للحق أن نحكم بأن ابن زيدون وقف هواه على تلك
الحسناء هيهات فلا يمكن أن يكون لمثله هوى واحد، وكيف وهو
رجل طامح القلب مرهف الاحساس ••

ولكن التاريخ لم يتحدث الا عن تلك المليحة الحسناء ولو أنه دون
جميع ما طاف بقلب ذلك العاشق لحدثنا عن قال فيه ابن زيدون هذه
الآيات •

ودع الصبر محب ودعك
يقرع السن على ان لم يكن
يا أخا البدر سناء وسنا
ان يطل بعدك ليلى فلکم
ذائع من سره ما استودعك
زاد فى تلك الخطى اذ شيعك
رحم الله زمانا أطلعك
بت أشكو قصر الليل معك

الموازنة بين القصيدتين

عرفنا ابن زيدون العاشق الذي يحسن التحدث عن مآسى القلوب
ويكاد يعرف أسرار النفوس فماذا نقول عن شوقي ؟ لقد طال الحديث
عن هذا الشاعر فى فصول هذا الكتاب ونخشى أن يتحيف حقسوق
من عرضنا لهم من الشعراء ولكن كيف نستكثر القول فى شوقي وقد بذ
ابن زيدون ؟ ان نونية شوقي أعجوبة من الأعاجيب وقد أرسلها من
الأندلس فى أعقاب الحرب العالمية فضج لها شعراء مصر .. وأجابه
اسماعيل صبرى وحافظ إبراهيم وعبد الحليم المصرى ولكنهم عجزوا
جميعا عن الجرى فى ميدانه ولم يؤثر لهم فى معارضته شئ ذو بال
بالقياس الى نونية أمير الشعراء •

ابتدأ ابن زيدون بشكوى البين والأعداء والزمان وكانت الأبيات
السبعة التى تحدث بها عن جواه زفرة مجرقة لم يعيها ما وشيت به من
الزخرف ولكن أين هى من بداية شوقي حين خاطب الطائر الحزين
فاندفع يقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا	قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا	سهما وسل عليك البين سكيننا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع	من الجناحين عى لا يلبيننا
فانيك الجنس يا ابن الطلح فرقنا	ان المصائب يجمعن المصابيننا
لم تأل مائك تحننا ولا ظمأ	ولا اذكارا ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ذبلا الى فنن	وتسحب الذيل ترتاد المؤاسنا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم	فمن لروحك بالنطس المداوينا

والشاعر فى هذه الأبيات حيران يجعل الطائر فى حالين حال
المغترب وحال المقيم .. فما تدرى أيكى من الغربة أم ينوح من فقد

الأليف ومع حيرة الشاعر وضلاله عن تحديد ما يريد نراه بلغ غاية
الرفق حين قال :

تجر من فن ذبلا الى فن وتسحب الذيل ترتاد المؤاسنا
وهي حال نشهدها في الطائر المحزون ، فقد نرى الطائر ينتقل على
غير هدى من أيك الى أيك ، فنعرف أنه يبحث عن يواسيه ، ولكن أين
من يواسي الطائر الحزين * ان شوقي نفسه أخطأ حين قال :

اساء جسمك شتى حين تطلبهم فمن لروحك بالنطس المداوينا
فان الطائر لا يجد من يأسو جسمه وانما يجد من يذبحه ويشويه
والناس ألام من أن يطبوا لطائر جريح *

وانتقل ابن زيدون من شكوى البين والأعداء والزمان الى معاناة
حبيبته فذكر أنه لم يستمع وشاية ولم يعتقد الا الوفاء ، أما شوقي فقد
انتقل من خطاب الطائر الى بكاء الأندلس والحنين الى مصر فقال :

واها لنا نازحي أيك بأندلس	وان حللنا رفيقا من روايينا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له	نجيش بالدمع والاجلال يثينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم	ولا مفارقهم الا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة	للناس كانت لهم أخلاقهم ديننا
لم نسر من حرم الا الى حرم	كالخمر من بابل سارت لدارينا
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته	تماثل الورد خيرا ونسرينا
فسقى ثراهم ثناء كلما نثرت	دموعنا نظمت منها مراثينا ..
كادت عيون قوافينا تحركه	وكدن يوقظن في الترب السلاطينا

وللقارئ أن يتأمل الحسن في هذه الأبيات فالشاعر يغلبه الدمع
وهو يتذكر ملوك الأندلس ولكن الاجلال يثنيه عن البكاء لأنه في
ديار قوم لم تنل الأرض أدمعهم ومفارقهم الا عند السجود فهم لم يعرفوا
الخشوع لغير الله وذلك من أبعد الغايات في الثناء *

ويأبى شوقي إلا أن يحرص على المعانى الشعرية فهو فى الاندلس
لا يسرى من حرم إلا الى حرم ولكن كيف ؟ كالخمر سارت من بابل الى
دارين وقدسية الخمر لا تجوز فى غير مذاهب الشعراء ..

ثم قال فى الحنين الى وطن النيل :

لكن مصر وان أغضت على مقعة عين من الخلد بالكافور تسقيننا
على جوانبها رفت تمائمنا وحول حافاتها قامت رواقينا

وهذا معنى قديم سبقه اليه من قال :

احب بلاد الله ما بين منعج الى وسلمى لو يصبوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمائمى وأول أرض مس جسمى ترابها

والبكر هو قول شوقي :

ملاعب مـرحت فيها مآربنا وأربع أنست فيها أمانينا

وانما كان هذا معنى بكرا لما فيه من طرافة الخيال ، أرايتم كيف
تمرح المآرب وكيف تأنس الأمانى ؟

لقد رأيت شوقي أول ما رأيته سنة ١٩٢١ وكان دعانى للغداء
عنده بالمطرية مع الأصدقاء الاكرمين مصطفى القشاشى وسعيد عبده
وأحمد علام فمعجبت يومئذ لذلك المبسم الساحر وسألت نفسى كيف كان
ذلك الملاك فى صباه .

ان حنين شوقي الى مصر حنين عميق وانما كان كذلك لأن الشاعر
شهد فى مصر دنيا من الحب والمجد لم يظفر بها الا الأقلون ودنيا شوقي
لم تكن مثل دنيا الناس فى هذا الزمان ، كانت الدنيا فى شباب شوقي
تفيض بالبشر والايناس وكان الشاعر يعيش فيها عيشة مضمخة بالسحر
والفتون وكان للجمال قدسية وكان للصبا سلطان . وكانت خطوط
الزمن لا تهدد النفوس كما تفعل فى هذه الأيام .

ومن البكر أيضا قول شوقي :

بنا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يفادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهب في اليم تلقينا
يريد أن يقول ان مصر لم تلقه في يم المنفى الا خوفا عليه من كيد
فرعون .. فرعون القرن العشرين المستر جون بول !!

تذكروا قول ابن زيدون :

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به
من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالك هل عنى تذكرنا
الفا تذكره أمسى يعيننا
وهذا شعر جميل ولكن انظروا كيف عارضه شوقي فقال :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا لما ترقق فى دمع السماء دما الليل يشهد لم نهتك دياجيـه والنجم لم يرنا الا على قـدم → كزفرة فى سماء الليل حائرة بالله ان جبت ظلماء العباب على ترد عنك يداه كل عادية حتى حوتك سماء النيل عالية وأحرزتـك شفوف اللازورد على وحازك الريف أرجاء مؤرجة فقف الى النيل واهتف فى خمائله وأس ما بات يذوى من منازلنا	بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا على نيام ولم نهتف بسالينا قيام ليل الهوى للعهد راعينا مما ترد فيه حين يضـوينا نجائب النور محدوا (بجبرينا) (١) انسا يعثن فسادا او شياطينا على الغيوث وان كانت ميامينا وشى الزبرجد من أفواف وادينا ربت خمائل واهتزت بساتينا وانزل كما نزل الظل الرياحينا بالحادثات ويضوى من مغائنا
--	--

(١) جبرين : لغة فى جبريل .

انظروا ابن زيدون يسأل البرق أن يسقى القصر ، وشوقي يسأل
البرق أن بأسو المنازل الداوية والمخاني الضاوية ، والمعنيان مقتربان ،
ولكن شوقي أعطانا صورة شعرية لتتقل البرق من أفق الى أفق ،
وانحداره من أرض الى أرض وأعطى صورة من ريف مصر وخمائل
النيل لا تشوق الا شاعرا ودع دنياه حين ودع النيل ..

وقال ابن زيدون :

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيا كان يحيينا
عارضه شوقي فقال :

ويا معطرة الوادي سرت سحرا	فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها	قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا	بالورد كتبنا وبالريا عناونا
فلو جزييناك بالأرواح غالية	عن طيب مسراك لم تنهض جوازيينا
هل من ذيولك مسكى نحمله	غرائب الشوق وشيا من أمالينا
الى الذين وجدنا ود غيرهمسو	دنيا وودهم الصافي هو الدينا

ان ابن زيدون لم يزد على أن قال : « يا نسيم الصبا » وهو
تعبير ورد في مئات القصائد ، أما شوقي فراح يفتن افتنانا يدل على
قمة الشاعرية وبراعة الخيال فوصف النسمة بأنها معطرة الوادي ،
وأنها سارت في السحر فطاب بمسراها كل مرمى سحيق ، وأنها ذكية
الذيل كأنها قميص يوسف . وانها جشمت شوك السرى حتى أتت
بالورد مجسما في رسائل وأتت بالريا ممثلة في عناوين وشكر لها
النعمى فقال :

فلو جزييناك بالأرواح غالية عن طيب مسراك لم تنهض جوازيينا
وان ابن زيدون يقول « بلغ تحيتنا » وهي عبارة جافية لأنها
وردت في صورة الأمر ، أما شوقي فيترفق ويقول :
هل من ذيولك مسكى نحمله غرائب الشوق وشيا من أمالينا

وابن زيدون يصف أحبابه بالقدرة على إحيائه لو أسغفوه بتحية •
 وشوقي يحمل كل هوى غير هوى أحبابه بمصر صورة من الدنيا • أما
 هوى أحبابه الذين يتشوق اليهم فهو فى صفاء الدين ••
 ولا تنكر أن بعض أخيلة شوقي مقتبس من ابن زيدون فقول
 شوقي :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنا بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا
 اختلس برفق وحذق من قول ابن زيدون :

ينتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
 والمعنى الذى عرضه ابن زيدون فى ثلاثة أبيات بسطه شوقي فى
 ثمانية عشر بيتا وانما اتفق له ذلك لأنه كان يعارض ابن زيدون فكان
 لابد له من توشية بارعة تعفى على النظرة الفطرية فى أبيات ابن زيدون
 ولا ابن زيدون فضل السبق ولشوقي فضل البراعة فى تلوين الصورة
 الشعرية وهو فضل ليس بالقليل ••

وأراد ابن زيدون أن يتذكر أيام الأُنس فقال :

— حالت لفقدكمو أيامنا فعدت	سودا وكانت بكم ييضا ليالينا
— اذ جانب العيش طلق من تألفنا	ومربع اللهو صاف من تصافينا
— واذا هصرنا فنون الوصل دافية	قطوفه فجنينا منه ماشينا
— ليسق عهدكم عهد السرور فما	كنتم لأرواحنا الا رياحيننا

وهذا شعر صافى الديباجة رائع المعانى ولكن انظروا كيف عارضه
 شوقي فجمع بين الأسى والفخر حين قال :

سقيا لعهد كآئنا الربا رفة (١)	أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لنا
اذ الزمان بنا غيناء زاهية	ترف أوقاتنا فيها رياحيننا
الوصل صافية والعيش ناغية	والسعد حاشية والدرر ماشينا

(١) رفة : النظرة •

والشمس تختال في العقيان تحسبها
 بلقيس ترفل في وشى اليمانينا
 والنيل يقبل كالدنب اذا احتفلت
 لو كان فيها وفاء للمصافينا
 والسعد لو دام والدينيا لو اطردت
 والسيل لو عف والمقدار لودينا
 ألقى على الأرض حتى ردها ذهباً
 ماء لمسنا به الاكسير أو طينا
 أعداء من يمنه (التابوت) وارتسمت
 على جوانبه الأنوار من سينا
 له مبالغ ما في الخلق من كرم
 عهد الكرام وميثاق الوفيينا
 لم يجر للدهر اعذار ولا عرس الا بأيامنا أو في ليالينا (١)
 ولا حوى السعد أطفئ في أعنته منا جادا ولا أرخى مياديننا
 نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
 ولا يحول لنا صبغ ولا خلق .. اذا تلون كالحريراء شانينا
 والقارىء حين يوازن بين هاتين القطعتين لا يدري أيهما أجود
 لأن ابن زيدون على قصر نفسه في هذا الشوط بلغ غاية الرشاقة
 حين قال :
 واذا هصرنا فنون الأنس دائية قطوفه فجئنا منه ماشينا
 وبلغ غاية الدقة حين قال :
 اذ جانب العيش طلق من تألفنا
 ومورد اللهو صاف من تصافينا
 والدقة في هذا البيت تؤخذ من صدق التعليل فالعيش لم تتسع

(١) الاعذار : طعام يتخذ لايام السرور .

جوانبه الا بفضل التألف ، تألف القلبين واللهم لم يصف مورده الا
بفضل التصافى تصافى الحبيين والدنيا لا كدر فيها ولا صفاء وانما
تصفو حين تصفو النفوس وتقسو حين تقسو القلوب فالزهر ،
الذى يبسم لك لا يبسم لك وحدك وانما تراه يخصك بالرفق لأن
الدنيا صفت لك . وقد يراه غيرك فى ابتسامه صورة من صور العبوس
والنهر الذى تنظر اليه فى الليالى المقمرة فتراه عاشقا يغازل القمر
ويتلقى دعابته فى حنان ، هذا النهر لا يمثل لك كذلك الا لأنك تشاهد
أمواجه الفضية بقلب مرح وحس طروب وهو نفسه قد يبدو للمحزون
صورة من صور الاكتئاب ..

ويروقنا قول شوقي :

سقى لعهد أكفاف الربا رفة	أنى ذهينا وأعطاف الصبا لينا
اذ الزمان بنا غيناء زاهية	ترف أوقاتنا فيها رياحينا
الوصل صافية والعيش ناغية	والسعد حاشية والدهر ماشينا
والنيل يقبل كالدنيا اذا احتفلت	لو كان فيها وفاء للمصافينا

يروقنا هذا الشعر لأن الشاعر جعل عهده فى نضرة الزهر الذى
يتفتح فى أكفاف الربوات ، ولأنه رأى اللبن فى أيام الأنس شبيها باللبن
فى أعطاف الصبا ، وأعطاف الصبا جوهر نبيل لا يعرف طيب لينها الا
شاعر أمكنته من أعطاف الصبا سورة الصبوات . ويروقنا أيضا لطرافة
هذا الخيال ..

« ترف اوقاتنا فيها رياحينا »

ورفيف الأوقات معنى يعرفه العشاق الذين دار بهم الزمن فى
أرجوحة اللهو الجموح . ويروقنا هذا الشعر مرة ثالثة لأن الشاعر يرى
اقبال النيل كالدنيا حين تحتفل وانظروا كيف تكون الدنيا حين تحتفل
نم تأملوا روعة هذا الاستدراك ..

« لو كان فيها وفاء للمصافينا »

ولكن هذه الطرافة فى أخيلة شوقى لا تنسينا براعة ابن زيدون
حين جعل محبوبته كل شىء حين قال :

با روضة طالما أجنّت لواحظنا وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا.
ويا حياة تملينا بزهرتها منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيمنا خطرنا من نضارته فى وشى نعى سحبا ذيله حيننا

ان لم يكن هذا هو الشعر فما عسى الشعر أن يكون ؟ أترون
العدوبة فى الهتاف بالروضة التى (طالما أجنّت لواحظنا وردا جلاه الصبا)
تأملوا عبارة « أجنّت لواحظنا » انظروا كيف تغزونا الروضة فتقهرنا على
تذوق جناها المرموق والشاعر لا ينتظر حتى تهفو نفسه الى مناعم الروضة
وانما تهجم الروضة عليه فعليه كيف يهصر الافنان وكيف يجنى القطوف
وعبارة « جلاه الصبا » مارأيكم فيما تحويه من سحر أخاذ ؟؟

ثم ما هذا التعبير الطريف :

« منى ضروبا ولذات أفانينا »

أتعرفون كيف يكون للمنى ألوان وللذات أفانين ؟ ان هذا خيال
شاعر غرق مرة فى كوثر الوصال ..

وانظروا هذا البيت :

ويا نعيمنا خطرنا من نضارته فى وشى نعى سحبا ذيله حيننا

أتحسون قوة هذا المعنى ؟ ألا يريكم الخيال صورة فنان منعم
يسحب ذيل النعيم ؟ ان ابن زيدون فى هذه الايات أقوى من شوقى
فى التحسر على ما ضاع من دنيا الهوى المفقود .

واشترك شوقى وابن زيدون فى التفجع والحنين اما ابن زيدون
فيقول :

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقوما وغسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والدهر قد غص من أجنان واشينا
 سران في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
 لا غرو انا ذكرنا الحب حين نهت عنه النهى وتركنا الصبر فاسينا
 انا قرأنا الأسى يوم النوى سورا مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا
 أما هواك فلم نعدل بمنهله شربا وان كان يروينا فيظميننا
 لم نجف أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه ولن نهجره قالينا
 ولا اختيارا تجنبناك عن كذب لكن عدتنا على كرة عوادنا

والشاعر في هذه الأبيات يصف أيام الوصل أجمل وصف • ويرى
 نفسه انتقل من كوثر الخلد الى الزقوم والفسلين •، ويرى ورد الهوى
 القديم شربا لا يعدله شرب • وان كان يرويه فيظميه ونعيم الوصل
 يرهف الحس فيزيد القلب ظمأ والتياغا الى التياغ • وتحدث الشاعر عن
 البين فذكر أنه لم يقع عن سلوة ولا صدود وانما أكرهته العوادي •

ويروقنا هذا التعبير الموقى :

« لم تجف أفق جمال أنت كوكبه »

فكان الدنيا كانت لعهد من المفاتن • • وكانت محبوبته كوكب
 ذلك الأفق المطلول بانداء الفتون •

هذا جزع من صنع الدهر صرخ به ابن زيدون وعارضه شوقي
 فقال يصف قسوة الليل وقسوة الفراق :

ونايغى كأن الحشر آخره تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
 نطوى دجاء بجرح من فراقكمو يكاد في غلس الأسحار يطويننا
 اذا رسا النجم لم ترقأ محاجرنا حتى يزول ولم تهدأ تراقيننا
 بنتنا نقاسى الدواهى من كواكبه حتى قعدنا بها حصى تقاسينا
 يبدو النهار فيخفيه تجلدنا للشامتين ويأسوه تأسينا

وهذا من الشعر الرفيع ومن العجز أن لا نجد غير هذا الوصف
 والا فكيف نصل الى بيان الفتنة في هذا البيت :

نطوى دجاة بجرح من فراقكمو يكاد فى غلس الأسحار يطوينا
أترون كيف يطوى الدجى بالجرح ؟ أترون كيف تكون الجراح
أعظم من ظلمات الليل ؟؟

ثم ما هذه الوثبة الشعرية حين يقاسى الشاعر بطن الكواكب • ثم
ينظر فيراها ابتليت به فباتت تقاسيه وهى حسرى لواغب ؟ والشاعر
قد يعظم سلطانه على الوجود فيرى الدنيا تجزع لجزعه وتأسى لأساءه ••
وكان الشعراء الاقدمون يرون النهار يبدد الاشجان بفضل ما فيه
من الشواغل أما شوقى فيرى اشجانه لا تهدأ نهارة الا بفضل التأسى
والتجلاء انشامتين •

بقى النظر فيما تفرد به الشاعران •

ونحن نرى أن ابن زيدون تفرد بهذين البيتين فى خطاب حبيته
التي أقصاه عنها الزمان :

تأسى عليك اذا حثت مشعشة فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكوس الراح تبدى من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتار تلهينا
وهذا من ادق المعانى النفسية فالشراب والغناء يهيحان العواطف
الغافية ويبعثان الوجد الدفين ، وللشوق فى أمثال هذه اللحظات لدعات
أعنف من الجمر المشبوب ، وأين الجمر بجانب ما يثور فى القلب عند
الشراب والسماع ؟؟ ان هذه لحظات تكشف المقنع من سرائر النفوس
وتصنع ما تصنع الحمى العاتية حين تنطق المحموم بأسماء لم يهذ بها
لسانه ولأ وجدانه منذ سنين •

وقول ابن زيدون :

ولو صبا نحونا من علو مطلعـه بدر الدجى لم يكن حاشاك يصيبنا
هو صل المعنى الذى ساقه شوقى فى السينية :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

وهو أخذ رفيق لا يحاسب على مثله الشعراء :

وتفرد شوقى بالفخر بنفسه وبأمجاد النيل فقال :

لم يجر للدهر اعدار ولا عرس	الا بايامنا أو فى ليالينا
ولا حوى السعد أطفى فى أعنته	منا جيادا ولا أرخى ميادينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرا	ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق	اذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميدانا ولا صعدت	فى ملكها الضخم عرشا مثل وادينا
ألم تؤله على حافاته ورأت	عليه أنبائها الفر الميامينا
ان غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا	خمائل السندس الموشية الغينا (١)
وبات كل مجاج الواد من شجر	لواظف القز بالخيطان ترمينا

وبهذا دافع الشاعر عن الوثنية المصرية أجمل دفاع وهل عبد
المصريون الشمس الا لأنهم عرفوا فضل الشمس ؟ وما الدنيا بدون
الشمس الا وجود تافه سخيف ..

وشوقى لم يعن الا نفسه حين قال :

نحن اليواقيت خاض النار جوهرا ولم يهن بيد التشتيت غالينا
وقد صدق .. فقد قامت فى وجه الرجل أحداث تهد الجبال
وانتاشه الخصوم أسوأ انتياش، ولكن من كان يملك مثل قلبه واحساسه
وشاعريته يصعب هدمه وان تكاثرت المعاول واستحصدت سواعد
الهادمين ..

وتفرد شوقى بالحديث عن الأهرام فقال :

وهذه الأرض من سهل ومن جبل قبل القياصير دناها فراعينا

(١) الغين : جمع اغين ، وهو الأخضر ، والمؤنث غينا .

ولم يضع حجرا بان على حجر في الأرض الا على آثار بانينا
 كأن أهرام مصر حائط نهضت به يد الدهر لا بنيان بانينا
 ايوانه الفخيم من عليا مقاصره يفنى الملوك ولا يبقى الاواينا (١)
 كأنها ورمالا حولها التطمت سفينة غرقت الا أساطينا
 كأنها تحت لألاء الضحى ذهبها كنوز فرعون غطين الموازينا
 وللقارىء أن يتأمل هذه الأبيات، له أن يتأمل قوة الفخر في هذا البيت :

ولم يضع حجرا بان على حجر في الأرض الا على آثار بانينا
 وله أن يعجب من روعة الخيال في هذا البيت :
 كأن أهرام مصر حائط نهضت به يد الدهر لا بنيان بانينا
 وله أن يتأمل دقة التشبيه في هذا البيت :
 كأنها ورمالا حولها التطمت سفينة غرقت الا أساطينا
 وذلك شوقى وتلك آياته البينات •

وتفرد ابن زيدون بوصف الجمال الانساني وتفرد شوقى بوصف
 الجمال الطبيعي ، أعطى ابن زيدون محبوبته صورة هي تحفة في الصور
 الانسانية وأعطى شوقى مفاتن النيل صورة هي غرة في الصور الطبيعية
 أما صور أنيل فقد رآها القارىء من قبل •• وأما محبوبه ابن زيدون
 فقد صورها بهذه الأبيات :

ريب ملك كأن الله أنشأه مسكا وقدر انشاء الورى طينا
 أو صاغه ورقا محضا وتوجه من ناصع التبر ابداعا وتحسينا
 اذا تأود آدته رفاهية توم العقود وآدته البرى لينا
 كانت له الشمس ظئرا في أكلته بل ما تجلى لها الا أحايينا
 كأنما أثبتت في صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
 ما ضر أن لم تكن أكفاه شرقا وفي المودة كاف من تكافينا

(١) الاواين : جمع ايوان •

وهذه نظرة شاعر يعرف جواهر الصباحة • وفي الحسن ألوف من
الأفانين يعرفها الراسخون في علم الجمال ، فالجمال المنعم غير الجمال
المحروم • والزهر النضير الذي يضاحك الشمس في حديقة غناء بقصر
من قصور الملك غير الزهر الظمآن المنسى الذي يتفتح وهو مهجور في
ربوة قاصية لا يعرفها غير الذئب ان جواهر الجمال تختلف أشد
الاختلاف ولكل لون من ألوان الجمال المحجب شيئا بما يوحيه الجمال
المباح ؛ ان الطبيعة قد يبدو لها أحيانا أن تكايد الناس فتتشيء من
الحسن في حي بولاق ما تغيظ به الناعمين في حي القصر العالي (١) •
ولكنها لا تفلح ، فالجمال الذي ينبت في البيئات السوقية يظل شوقي
التسائل والنوازع أما الجمال الذي يتفتح في البيئات المنعمة فيظل
ملحوظ المشارب والميول •

نمى عشوق ابن زيدون ربيبة ملك وربيبة الملك تألف السيطرة
منذ أيام المهد ويظل دلالتها طول الحياة دلالا ساويا يأخذ فيضه من
قوة الطبع لا من لؤم التمتع ، وينزل رضاها على القلب نزول الطل
على الريحان وابن زيدون يتمثل محبوبته خلقت من المسك • ويرى
الناس ما عداها خلقوا من طين • وكلمة (طين) وقعت قبيحة في شعر
ابن زيدون الا أن يكون أراد الإشارة الى بعض الناس • والمرء حين
يغضب يرى الناس خلقوا من طين • • وان كان الطين أشرف من بعض
من نرى من المخلوقات • والطين تربة يحيا بها الزهر ويتغذى منها
الشوك وفوته تتخطر الظباء ، وعليه تزحف الأفاعي والصلال •

وبلغ ابن زيدون نهاية الترفق حين قال :

إذا تأود أدته رفاهية توم العقود وأدمته البرى لينا
والجمال الذي تؤذيه العقود والدمالج والأساور والخلاخيل جمال
غض رقيق يشبه في رفته نواظر العيون ولقائف القلوب وهذا الجمال
منشور في المدائن نثر الزهر واللؤلؤ ، ولولا وجوده في هذه الدنيا
لما عرف شاعر قيمة النعمة العظيمة نعمة البصر والحس والذوق ، لولا

الجمال المنعم المصون الذى لا يطمع فى تقيء ظلاله غبى ولا لثيم
لأقمرت الدنيا من الشعر وخلت من الأنفاس العطرة وانفاس الشعراء..
لولا الجمال المنعم المصون الذى لا يطمع فى تقيء ظلاله غبى ولا لثيم
لما استطاب شاعر سهر الليل وألم الجفون وهل يعنى القلب فى سبيل
الجمال المبتذل .. الذى ترنو اليه جميع العيون ؟ ان الجمال المبتذل
شبيه بالكوكب المتهالك الذى لا تألم من النظر اليه عين رمداء أما الجمال
المصون فشبيه بالشمس لا يقوى على النظر اليه الا الفحول من الشعراء
والأقطاب من الكتاب ، هو الجمال الفرد ولا يساوله الا الرجل الفرد :
وان كان يتواضع فيقول :

ما ضر ان لم نكن أكفاءه شرفا وفى المودة كاف من تكافينا
هذا تواضع فان جوهر الخب فى قلب الشاعر أنفس من جوهر
الحسن فى وجه الجميل وهل تعربد معانى الصياحة فى الوجه المليح كما
تعربد عرائس الشعر فى قلب الشاعر الذى يلقي الأنوار والظلمات
وحوله جيش من الهوى المتورد والوجد المشبوب ؟

ان قلب الشاعر جوهر نفيس ولولا فضله على الدنيا ما عرف
أحد جمال الصبح المشرق ولا تنبه مخلوق الى لمح الكواكب ولألاء
النجوم . ولا تلفت باحث الى شعر ابن زيدون وقد طمره الزمن بتسعة
أحجار تسمى تسعة قرون .

ثم ماذا ؟ . بقى أن نشرب صباية الكأس من نونية شوقى ، وكل
صباية فى الكأس صاب ، بقى أن تتوجع لبلواه وهو يتشوق الى مصر
فيقول :

أرض الأبوة والميلاد طيبها	مر الصبا فى ذيول من تصايينا
كانت محجلة فيها موافقنا	غرا مسلسلة المجرى قوافينا
فآب من كرة الأيام لاعبنا	وثاب من سنة الأحلام لاهينا
ونم تدع لليالى صافيا فدعت	(بأن نعص فقال الدهر آمينا)

لو استطعنا لخفضنا الجو صاعقة والبر نار وغى والبحر غسلينا
سعيًا إلى مصر نقضى حق ذاكرنا فيها إذا نسي الوافى وبأكيننا

أرأيتم هذا الشعر؟ أرأيتم الخيال فى هذا البيت :

فأب من كرة الأيام لاعبنا وناب من سنة الاحلام لاهينا

أرأيتم صورة الهول المقتحم فى هذا البيت :

لو استطعنا لخفضنا الجو صاعقة والبر نار وغى والبحر غسلينا

ثم ماذا ؟ بقى ختام القصيدة وهى آيات ما قرأتها الا بكيت على
أُمى يرحمها الله ..

وانظروا كيف هنا قلب الشاعر الى أمه فى حلوان :

كنز بحلوان عند الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأتته الشوق الا من نواحيننا
إذا حملنا لمصر أو له شجنا لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

طيب الله ثراك أيها الشاعر .. ورحم والدى ووالديك فالدعاء فى
أعقاب شعرك كالدعاء فى أعقاب الصلوات ..

الموازنة بين عبقرية وعبقرية

نعيش الآن مع صفحات منقولة من كتاب «الموازنة بين الشعراء»
لأنهما من ناحية تتحدث عن ماهية الناقد ومن ناحية ثانية هي نقد
لشعر شوقي كما يراه بعض النقاد وكما يراه زكي مبارك ...

يقول زكي مبارك : (١)

« أن الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية .. ويفاضل بين
بصيرة وبصيرة ويقارن بين ادراك وادراك ، بغض النظر عن الفروق
الموضعية التي يقضى بها اختلاف الاقاليم ، والفوارق الزمنية التي
يوجبها اختلاف العصور وهذا يتطلب من الناقد تضحية خطيرة ،
ولكنها ضرورية : يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته ، وأن يفنى
فى شخصية الشاعر الذى يدرسه بحيث يبصر بعينه ، ويسمع بأذنه ،
ويفقه بقلبه ، ليسبر كما قلت أغوار نفسه ، وليرى مبلغ شعوره بما
وصفه من الأشياء » ♦

ثم يقول زكي مبارك : (٢)

« على الناقد أن يتبين العهد الذى عاش فيه الشاعر ، وأن يعنى

(١) الموازنة بين الشعراء الطبعة الثانية صفحة ٢٤ .

(٢) نفس المرجع صفحة ٢٠ .

فوق ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم لما لذلك من الأثر في
أذواق الشعراء •

فقد أنكروا على شوقي قوله :

أرفعى الستر وحيى بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفى الهودج فينا ساعة نقبس من نور أم المحسنين
واتركى فضل زماميه لنا تتناوب نحن والروح الأمين
مع أن أم المحسنين انما ركبت يومئذ سيارة تنهب الأرض ،
ولكن هكذا بقى الهودج فى ذهن شوقي ، لامعانه فى دراسة الشعر
القديم ••

وانكروا عليه قوله فى سيارة الدكتور محجوب :

لكن فى الخط سيارة حديث الجار والجاره
واستخفوا كلمة « حديث الجار والجاره » وفاتهم ان الدكتور
محجوب يسكن فى حي قد لا يعرف أهله غير الخيل والبغال
والحمير ••

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم :

امشى يرنحنى الأسى والبؤس ترنيح الشراب
لأن اليتيم البائس لا يعرف كيف يترنج السكران ، ولكن حافظ
يرى هذه المناظر فى الصباح والمساء •

واستضعفوا قول مطران فى رثاء اسماعيل صبرى :

شهب تبين فما تؤوب فكأنها حجب يذوب
أرايت فى كأس الطسلا دررا وقد صعدت تصوب
هو ذاك فى لجج الدجى طفو اندراى والرسوب
لا فرق بين كبيرها وصغيرها فيما ينوب

لأن مقام الرثاء يجبل عن ذكر الحبيب والكأس ، وليس لك ان
تشبه الشهاب حين يغيب بالحبيب حين يذوب ولكن يجب أن نعرف
كيف يعيش مطران لنعرف قيمة هذا التشبيه في نفسه المراح .
وكذلك نقول في توجيه كلمة شوقي في رثاء محمد تيمور :

ضربوا القباب على الشباب	وثبوا الى يوم الحساب
همدوا وكل محرك	يوما سيسكن في التراب
نزلوا على ذئب البلى	فتضيقوا شر الذئاب
وكأنهم صرعى كرى	بالقبايع أو صرعى شراب
فاذا صاحوا وتنبهوا	فأله أعلم بالمساب

فان تشبيه الموتى بصرعى الشراب لا يدل على غفلة الشاعر عن
رعاية مقتضى الحال ، وانما يشير بطرف خفى الى ما لحياته من شتى
الألوان ، كما أفصح شعره عن ألوان حياته في قوله من كلمة ثانية .

ما أنت يا دنيا أرويا نائم ؟ أم ليل عرس ؟ أم بساط سلاف
نعمائك الريحان الا انه مست حواشيه نقيع زعاف

وقال أحد أنصار ابن الرومي يلومه : لم لا تشبه كتشبهات ابن
المعتر ؟ فقال انشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله . فأنشده قوله
في الهلال :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فقال له زدني فأنشده :

كان آزريونهم غب سماء هاميه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح : واغوثاه . لا يكلف الله نفسا الا وسعها . ذلك انما
يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أي شيء أصف ؟ ولكن انظر
اذا وصفت أين يقع قولي من الناس ، فهل لأحد قط مثل قولي في
قوس الغمام :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا

من الجو دكنا والحواشي على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر اثر مبيض
كأذيال خرد أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض
وقولي في صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خيازا مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح المبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

فليس لك أن تقدم ابن المعتز على ابن الرومي لأنه استطاع
تشبيه الأريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية ، وليس
لك أن تقدم ابن الرومي على ابن المعتز لأنه أجاد وصف الخباز ، وهو
يدحو الرقاق ، فإن سبق هنا وهناك يرجع الى الظروف التي اتتحت
تكل من الشعارين ومهدت السبيل الى الوصف الدقيق ، وانما
يجب عليك أن تعتمد الى الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ
شعوره بما وصفه من الأشياء ، فقد يكون ابن الرومي في وصف
الرقاق أشعر من ابن المعتز في وصف الهلال .

وكذلك ليس لك أن تقدم الأوصاف الحضرية على الأوصاف
البدوية لأن الحضارة في ذوقك أنضر من البداوة ، فقد يكون البدوي
في بدوته أشعر من الحضري في حضارته ، كما قال أستاذنا المهدي ،
ومعنى ذلك أن البدوي قد يكون شعوره بالريح المسموم في مجاهل
البيداء أقوى من شعور الحضري بالنسيم العليل في الروضة الغناء .

فليس قول خزيمة بن نهد في ريق محبوبته :

فتاة كأن رضاب العير فيها يعمل به الزنجيل

بأقل من قول الشريف الرضى :

ييسمن عن برد الغمام وبرده ريان يفبق بالمدام ويصبح

ولا يفضلهما من قال : « كأنى ألتقط من فيها حب الرمان » . لأن
الأمر فى ذلك يرجع الى قوة ادراك الشاعر ، بفض النظر عن تفاوت
الأوصاف ، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تعطر به الافواه فى البادية
كما تكون الخمر ، أو حب الرمان ، أحلى ما تعطر به الثياب فى
الحاضرة ولكل شعب وجهة فى تناول الأشياء .

ألم تر الى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم فى مدحه :

أنت كالكلب فى حفاظك للود وكالتيس فى قراع الخطوب

لقد طرب المتوكل لهذا الشعر ، وإن كان جافى اللفظ بآدى
الخيال ، لأنه أعجب بما له من قوة الشاعرية ، وهى روح البيان ، ثم
أسكنه قصرا من قصور بغداد ، واستدعاه بعد ذلك ، وقد صقلته
الحضارة . فأنشده تلك الرائية البديعة التى يقول فى أولها :

عيون المها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

أعدن لى الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمر

سلمن وأسلمن القلوب كأنما تشك بأطراف المثقفة السمر (١)

خليلى ما أحلى الهوى وأمره وأعرفنى بالحلو منه وبالمر

بما بيننا من حرمة هل علمتما

أرق من الشكوى وأقسى من الهجر

(١) المثقفة السمر : هى الرماح .

أحمد شوقي وزكى مبارك

كانت الأيام قد جمعت بين أحمد شوقي وزكى مبارك فتوثقت بينهما الصلة ثم عادت الأيام وفرقت بينهما ، ولم يعد زكى مبارك يزور أحمد شوقي ولم يعد أحمد شوقي يسأل عن زكى مبارك •
ولم يكتب أحمد شوقي بعدم السؤال عن زكى مبارك ؛ ولكن كيف ؟

فى سنة ١٩٢٧ يرى اصدار عدد خاص من السياسة الأسبوعية « لتكريم أحمد شوقي » ، ويدعى للاشتراك فى تحرير هذا العدد الخاص رجال كان فيهم زكى مبارك ، ويرى شوقي ان من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان من بينها مقال زكى مبارك ••

وتدور الأيام وينتقل أحمد شوقي الى عالم الخلود فماذا نرى ؟
نرى زكى مبارك يكتب ويكتب عن أحمد شوقي ••
صحيح أن زكى مبارك قال : ان شوقي الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقي الذى يعرفه الناس كإنسان اجتماعى يخطئ ويصيب بين الحق والواجب •

ولكن زكى مبارك قال أيضا : لم أسىء يوما الى شوقى الشاعر ،
والحمد لله وان كنت بهت حظى فى شوقى الصديق ..

ويقول زكى مبارك : شوقى شاعر مصر ، وهو على جحوده
أستاذ الأسانذة فى ميدان القصيد ..

ثم انظر كيف يتحدث زكى مبارك الى شوقى فيقول له : طيب
الله ثراك أيها الشاعر ، ورحم والدى والديك ، فالدعاء فى أعقاب
نعرك كالدعاء فى أعقاب الصلوات .. والآن مع بعض مقالات للأديب
الناقد الفنان الدكتور زكى مبارك بعضها نشر فى حياة الشاعر أحمد
شوقى وبعضها نشر بعد رحيل الشاعر أحمد شوقى الى عالم الخلود .

مقاصد الشعراء (١)

نريد من مقاصد الشعراء الغايات النبيلة التى يسعون اليها فى
الحياة ، وبعبارة أوضح الصور الجميلة التى تتمثلها أرواحهم كلما
هوا بضرب الأمثال للناس ولست أريد فى هذه الكلمة أن أنتزع
صورة للشاعرية الحققة من بين ما قرأت من شعر العرب والفرنجة فان
ذلك وان صح أن يكون هاديا لبعض العقول ، فانه كثير فى الكتب
المختارة من دواوين ومجاميع ، وهو على الجملة فى مقدور كثير من
أهل العلم والبيان .

لم يعرف العلماء ولا الأدباء الا قليلا منهم - معنى الشعر فى
القرآن أو ما يقصد العرب من وصف النبى بأنه شاعر ، أو الصورة التى
تمثلوها حينما ظنوا القرآن قصيدة طويلة ، وأحسوا أن النبى شاعر
مطيل ، ويخطىء من يظن أنهم هازئون فى وصف النبى بالشاعرية فان
الشعر كان عندهم فى منزلة فوق الاعزاز والاجلال ولكنهم ارادوا أن

(١) جريدة المدرسة - ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٢٠ .

يصفوه بالعبقرية وأن يجعلوا رسالته في وصف الأمانى العالية . .
التي لا يتخيلها الا الشعراء وان يجعلوا لأنفسهم عذرا في التخلف
اذا رأوا في الشريعة تكليفا فوق الوسع ، ثم استحبوا العمى على
الهدى ، فما يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس وأريد أن أقول :
انهم يرون في الشعر شرعة خاصة يلزم باتباعها من سمت نفسه الى
ادراك ما يوحى به الى الشاعر المجيد ، فهم يشيرون على النبي بأن
يبحث عن طائفة من الناس تفهم كما يفهم ويكون مرأى الحياة في ادراكها
كمراها في ادراكه ويلذ لها من التكاليف العصبية ما يلذ له أما هم
فانهم بفعل سلامتهم من جنون الشعراء — والنبوغ نوع من الجنون —
غير مكلفين باتباع ما يبدع الشعر وأهله من أنظمة الحياة العالية
وكذلك يرون التشريع الخاص غير التشريع العام ويرون شريعة النبي
دقه تسمو بها الى الشرائع النظرية ، وتبعدها عن الشرائع العملية ،
وانهم لفي ضلال مبين .

الشعر في نظر العرب يدعو الى شريف الخلال ، وكريم الخصال،
أو يبدع صورا للذائد الحسية والمعنوية فالحق العالى الصرح والباطل
الواهى الأساس والفضيلة العالية والرذيلة السافلة ، كل أولئك مما
يقع تحت حس الشاعر المبدع فهو قاضل ان دعا الى الفضيلة ، وناقص
ان زين الرذيلة ، وهو على كل حال معروف بالقدرة على وصف
ما يدعو اليه العقل ، أو يرنو له القلب ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وأقول ذلك لئلا يحسب واهم أنى أجعل الشعراء في درجة
الأنبياء ولكن كذلك ارجو أن لا يختلف عنى بعض القراء فيما فهمناه
معا من أن الشعر انما يضع الأمثلة العالية ، أو يصف الأمثلة العالية ،
فالشاعر أما واضح قادر أو واصف ماهر والناس مختلفون في اتباعه
فمنهم من يتبعه أحسن أم أساء ، لأن الحياة عندهم ذات ألوان .
والشاعر يصف ألوانها الذميمة والوسيمة وهم يريدون أن يتذوقوا كل

مظاهر الحياة ومنهم من يتبعه ان أخطأ ويصدف عنه ان أصاب .
وهؤلاء هم المخلدون الى الحياة الوداعة ، والصادفون عن الحياة
الخاملة ، وهم لا يقرأون كل شعر كالصنف الأول ليقفوا على أنواع
الدركات من حق واضح أو باطل فاضح ولكنهم يعكفون على طائفة من
الشعر الذي انقصت عراه ، وتفككت أوصاله ، ليتم التناسب بين
ما تعمل أيديهم وما تقرأ السنتهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم
يعلمون .

ومن الناس من يتبع الشعر الداعي الى الحق ، ويرى فيه نفحة
من نفحات النبوة وعلامة من علائم الرسالة ، والشعراء عنده
لا يتفاوتون بما يتفاوتون به غيره من الرغبة في الفضيلة أو الميل
الى الرذيلة ، ولكنهم يتفاضلون بتقديرهم للفضائل ، وتصويرهم
للمحامد ، فهو يفضل بعض الشعراء على بعض ، كما فضل بعض
الأنبياء على بعض وهؤلاء الشعراء وتابعوهم من بناء المجد هم الذين
عناهم أبو تمام حين قال :

ولولا خلال سننها الشعر ما درى

بنساء المعالي كيف توثى المكارم

ولا يتوهمن قارئ أن اختلاف الشعراء في مذاهبهم الخلقية
مما يؤثر عليه في الحكل من الناحية اللغوية فان أبا نواس في خمرياته
أصح من أبي العتاهية في زهدياته ، لكن هناك وجها آخر للمفاضلة :
وهو أن اللغواية درجات ، كما أن للهداية درجات فالمثل المعالي
للخلاعة انما يدركه الخلعاء والمثل الأعلى للنبالة انما يدركه الشعراء
النبلاء ولكل شعر موضع ، ولكل مقام مقال ، فليس للشاعر أن يلبس روح
الخليع حينما يريد أن يكون قدوة في المكارم وليس له أن يلبس روح
النبيل حينما يرغب أن يكون عمدة في المآثم وانما يلبس لكل حال
لباسها من جد وهزل ، فيتعالى في الجد حتى يقال نبي مرسل ، أو

حكيم. موثق ، ويتراجع فى الهزل ، حتى يقال ماجن مازح ، أو ذو
نشوة خليع ..

إذا جد حين البأس أغناك جسده

وذو باطل ان شئت أرضاك باطله

وليس يخفى على القارئ انى هنا انما أحكم على أنواع الشعر
وطوائف الشعراء ولست أدعو الى مذهب خاص أو طريقة معينة فان
لذلك بحثا غير هذا البحث وأريد أن أسأل القارئ بعد ما سلف من
البيان :

هل الشعر فى مشروع اتفاق ملنر من الجدد أو الهزل ؟ وهل
الشعراء فيه من الخلفاء أو الحكماء ؟

وفى المقال الثانى وهو تنمة للمقال الاول يقول الأديب الناقد
زكى مبارك : (٢) عن قصيدة شوقى فى مشروع ملنر :

قرأنا للشاعر المجيد أحمد بك شوقى قصيدة فى هذه الاتفاقية .
كان نصفها الاول النسيب ، وهو يتطلب الاسراف فى الخلاعة ، فلذلك
راقنا منه أن يذكر ان قلبه لم يقلع عن الغواية وهو أشيب ، وان سرب
العوانى لعب بلبه فأضله عن سواء السبيل ، راقنا ذلك كله : لأننا
نستملح كل ما يأتى عن طريق القلب ولأن النسيب من الاشيب عنوان
ظرفه ولأن هذا المثل مما يتأسى به المسرفون فى الصباية وهم أحداث
ولا ننكر أن هذا مقبول ولو انصافا للفن واذا كنا نود لو وصف شوقى
نفسه بما وصف به ابن الصمة أخاه اذ قال :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه

فلما علاه قال للباطل ابعده

وكان النصف الثاني بيانا لرأيه في مشروع الاتفاق ولا يستطيع من قرط قصيدة شوقي تلك بكلمة موجزة أن يدعى أن الحكم على هذا المشروع مما يدخل في طائفة الحكم على عتق الخمر وصفاء الكأس وحلاوة العين ، وجمال الأنفس ، ورشاقة القد ، الى غير ذلك من الأوصاف الظاهرة لمحاسن النساء أو الأشجار أو الأنهار أو الجبال وانما هو حكم على آمال أمة تختلف أطماعها السياسية باختلاف عقول أبنائها البررة من علماء وحكماء وشعراء وباختلاف الآمال ضعفا وقوة يوصف الرجل بأنه قوى أو ضعيف ولئن كان الشاعر حرا في اختيار النوع الذي يحبه من الحياة فانه غير حر أو غير مقتدى به في الدعوة الى نوع من الحياة لا يتلاءم مع الشعب الذي ولد فيه والوطن الذي درج منه ، وهو عرضة لأن يوصف بضعف العزيمة وخمود النفس وركود الطبع ، وأهل لأن ينكر عليه ماضيه الأعز ، وسابقه المخجل ، وأقل ما يجد الناقد فيه من العيوب • ان شعره ليس شريعة عامة للشعب •

وانه بدلا من أن يتعالى الى أبكار الأمانى فهو ينسفل الى ثنيات النوازع ، فهو يدعو الناهضين الى السقوط ولا يحض الساقطين على النهوض ، وهل أوجب للعتب من أن يختص شوقي بك بتلك القصيدة التي لا تسوغ الا لدى النفوس الضعيفة ولا يبسم لها الا من يئس من روح الله ؟ انه لا يصح لمثلي أن يلفت نظر شوقي الى آمال المتنبى فهو أعلم بفضله وأعرف ، ولكن ألا يصح أن نرسل دمعة واحدة في توديع الآداب العربية ؟

لقد بلغ ضعف النفوس مبلغا لا يستهان به حتى لقد كتب (شاعر) يعرفني وأعرفه قطعة في مدح المشروع ولم يجروا على التصريح باسمه ولكنى عرفته بسيما شعره وسأعاقبه بعد حين فأين هذا المحتجب من الذي قال :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

انكم لا تجهلون فضل المثل الأكمل فى رؤوس الوطنيين كما لم
يجعل العرب فضل المثل الأعلى فى الشعر الذى حسبوا القرآن نوعا
منه فهل يهذيكم الله من بعد كما هداهم من قبل ؟

شوقي (١)

كلمة صدق في توديع أمير الشعراء

كان في مصر رجلاً يقال لهما حافظ وشوقي ، وكان لذيнок
الرجلين ولوع بالحديث عن الموت ، وكان حافظ ينعي نفسه في كل
مناسبة ، ويرحب بالراحة الأبدية ، أما شوقي فكان يقف دائماً وقفة
المتطلع ، ويتمنى لو حدثه الأموات عما بعد الموت ، حتى كاد حديثه
عما بعد الموت يعد من احادي لوازمه في قصائد الرثاء .

وكان القدماء يرون ان الدنيا لو سئلت وصف نفسها لما عدت
قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا ليب تكشف
له عن عدو في ثياب صديق
ونحن نرى أن الحياة لو سئلت وصف نفسها لما عدت قول
شوقي :

كم في الحياة من الصحراء من شبه
كلتاها في مفاجأة الفتى شرع

(١) البلاغ - ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢ .

وراء كل سبيل فيهما قدر
لا تعلم النفس ما يأتي وما يدع
فلست تدري وان كنت الحريص متى
تهب ريحها أو يطلع السبع
ولست تأمن عند الصبح فاجئة
من العواصف فيها الخوف والهلع
ولست تدري وان قدرت مجتهدا
متى تحط رحالا أو متى تضجع
ولست تملك من أمر الدليل سوى
أن الدليل وان أرداك متبع

أو قوله :

لبنان ردتني اليك من النوى
أقدار سير للحياة دراك
جمعت نزيلى ظهرها من فرقة
كرة وراء صوالج الأفلاك
نمشى عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكان الأشراك

والذى يقرأ ما سطره الكتاب فى رثاء شوقى يراهم جميعا
وقفوا يتحدثون عن الموت وعما بعد الموت ، كأن ذلك الرجل الذى
طال وقوفه بباب الأقدار ألهمهم ما يقولون فى التطلع الى ما سيكون
بعد الموت .. أكان شوقى أول ميت حتى يثير كل هذه الشجون ؟

لا لم يكن شوقى أول ميت ، ولكن موت الشاعر فجعية تبعث
على التفكير فى حقائق الموت والحياة ، وخاصة شوقى ، فانا لا نعرف
انسانا فى مصر طأبت له الحياة كما طأبت لشوقى ، ولا نعرف شاعرا

تغنى بأطياب الحياة كما تغنى شوقى ، فكان من الحق أن نسأل :
وشوقى أيضا يموت ؟

وبعد فمن شوقى ؟ وما شعره ؟

كان شوقى عاديا فى حديثه ، وفى مظهره ، ولكنه كان فى
شعره أعجوبة الأعاجيب وكان دليلا على أن العرب كانوا معذورين حين
ظنوا الشعر من وحى الشيطان فما أذكر أن حديث شوقى راعنى مرة ،
أو دلنى على أن للرجل عقلا يتناز على سائر العقول . وكان
مظهره بسيطا جدا لأنه كان يفضى اللباس الأنيق ، وانهم ليذكرون أنه
كان يضيق صدرا بالملابس الرسمية ، وانه طلب من الخديو السابق
أن يعفيه من لبس الردنجات فى عابدين ، وان الخديو اعفاه وان شكله
كان يضحك حين يتكلف ملابس الاستقبال عند تقديم بعض السفراء .
ولكن هل العبقرية لباس مهتم ولسان معسول ؟

هيهات . . لقد استطاع ذلك الرجل الصامت الخشن الملابس
أن يكون أشعر الناس فى زمانه ، لأن العبقرية سر مكنون ، وقد
أفصح هو عن ذلك أبرع افصاح حين قال :

رب سامى البيان نبه شأنى

أنا أسمو الى نباهة شأنه

كان بالسبق والميادين أولى

لو جرى الحظ فى سواء عنانه

ما الرقيق الذى تذوقون من كمر

مى وان عشت طائفا بدنانه

وهبونى الحمام لذة سجع

أين فضل الحمام فى تخنانه

وتر فى اللماسة ما للمغنى

من يد فى صفائه وليانه

ومن ذلك الوتر الرنان الذى وهبه شوقي كانت الدرع
الحصينة التى يدفع بها سهام الحاقدين ، فقد قامت فى وجه الرجل
أعاصير جائحة من النقد المسموم ، فثبت لها ثبات الجبال الرواسخ ،
وبطل هو فى جميع الأحوال لا يخبو زنده ، ولا ينكسر جناحه ،
ولا يقع طائره ، مع أن حاسديه لم يتورعوا — وهم ينهشون لحمه —
من رمية بما يهد عزائم الرجال • وكان يتخذ من أحقاد خصومه مادة
لشعره قد تكون من أجل ما تغذى به خياله الوثاب ، والقراء يذكرون
أن ناسا عابوا عليه سكوته عند نعى حافظ وذهبوا يتقولون عليه
الأقاويل ، فدمغهم بقوله فى رثاء حافظ :

قد كنت أوتر أن تقول رثائى
يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة
قدر ، وكل منية بقضاء
ووددت لو أنى فداك من الردى
والكاذبون المرجفون فدائى
الناطقون عن الضغينة والهوى
والموغرو الموتى على الأحياء
من كل هدام ويبنى مجده
بكرائم الانقراض والأشلاء
ما حطموك وانما بك حطموا
من ذا يحطم رفرف الجوزاء
انظر فأت كأمس شأنك باذخ
فى الشرق واسمك أرفع الاسماء
وهو يعنى نفسه بالبيتين الأخيرين ، وإن توهم القارىء أنه يعنى
حافظ إبراهيم •

كان شوقي مفطورا على الشعر ، وكانت الحياة فى عينيه شعرية
الملايح ، وكان يستريح من متع الغيش كل ما حوت فراديس الشعراء
وكانت حياته فى بيته وبين أهله مطبوعة بطابع شعرى أخاذ ، وكان
هيامه يقطع المسافات الطوال على قدميه أيام قوته دليلا على أن
الرجل يقظ الشاعر ، وأنه مقتون بدرس مظاهر الوجود ، وكان الشعر
يسود كل ما فى حياته من نظام واضطراب . وقد تصادقنا حينما والفنا
التلقى فى كل يوم حقبة من الزمان ، فكنت ألاحظ أن للرجل نواحي
هو فيها أضبط من الساعة — كما نعبر فى لغة الحديث — ونواحي
يهمل فى ضبطها وتحديدها أغرب الاهمال ، وهو فى نظامه واضطرابه
شاعر يعرف كيف يتذوق مفاتن العقل والجنون .

وكان شوقي مفتونا بأبنائه الى حد العشق ، وخاصة بابنته أمينة
وابنه حسين ، وله فى أبنائه شعر رائع يدل على أن الرجل كان شاعر
العقل والذوق والروح ، وكان يتعلق بأصهاره تعلقا شديدا يذكر
بعيش الفطرة فى خيام الأعراب ، وكانت منافع الدنيا تتمثل له فاتنة
جذابة ، لأن الرجل فى شعره وفى صميم قلبه وروحه ونظامه السياسى
والاجتماعى كان رجل دنيا ، وكان لا يفهم كيف يكون الزهد وكيف
يكون الاعراض عن أطايب العيش ، والذين لاموا شوقي على التشبث
بأهداب الجاه العريض لم ينظروا الى الدنيا بعينية القلقتين ولم يعرفوا
كيف تكون السيطرة وكيف يكون الاستبداد بمتع العيش على شواطئ
النيل . والحياة فى مصر — وفى الدنيا كلها — لا تتم أسبابها بغير
الجاه والمال ، وكان الرجل يفهم ذلك فهم الشاعر ، ويتصور القارىء
كيف يكون فهم الشاعر ، وخاصة عند أمثال شوقي ممن تلقوا الدنيا
بحس مرهف وذوق مصقول .

كانت لشوقي دنيا قبل الحرب فأخرجته منها أفاعى الحوادث
كما عبثت الحية فأخرجت آدم من الجنة ، وقد ظلت ذكريات ذلك

الفردوس المفقود تعتاده في اليقظة والنم ، وذلك هو سر تحفظه
وحيطته في كل ما يمس دقائق السياسة العالية : فان قال ناس انه لم
يهب الجماهير صفو شعره فليذكروا ان ذلك لم يكن ليقع لو ان
الرجل فطر ذوقه فطرة شعبية ، وكيف كان يزهي ويفتن كلما تذكر انه
ولد في رحاب المجد والجاه .

كان شوقي مفتونا بشعره ، كل الفتون ، وكان لا يصدق ان
في الدنيا شاعرا غيره . . . وكان يعادي ويصادق على هذا الاساس . وقد
اتفق ان توثقت بيننا أواخر الصداقة بعد عودته من المنفى ، وظلت
صداقتنا على خير حال نحو ثلاثة أعوام ، فلما كان صيف سنة ١٩٢٥
طلب مني ان اكتب مقدمة للشوقيات فقبلت . ثم عدت فتذكرت ان
الذوق يفرض ان تكتب المقدمة بشيء من المجاملة . وأن هذا قد
يضرني اذا اضطررت انقد شعره في مستقبل الايام ، فكتبت اليه خطابا
اعتذر عن كتابة مقدمة للشوقيات وكان في الخطاب تعليل لذلك الاعتذار
يتلخص في مصارحته بأنه عرضة للخطأ والصواب وأنى أحب أن
احتفظ بحريتي في نقده اذا اقتضى الحال . وكنت انتظر ان يتقبل
الرجل عذري ، ولكنه أسر الغضب واضمر الجفاء وظوى ما كان
بيننا من وداد منذ ذلك الحين (١) .

كان شوقي من كبار أهل العلم بأسرار اللغة العربية ، وقد دانت
له تعابيرها وأخيلتها وألفاظها بحيث كانت قصائدته تحمل من صنوف
الثروة اللغوية ما لا تظهر به قصائد غيره من المعاصرين الا في النادر
القليل ، ومن رأى بعض رجال الأدب ان شوقي كان أعلم من حافظ
باللغة ، وحجته في ذلك ان حافظ لم يملك غير الديباجة المتينة أما
شوقي فكان يقع على كلمات نادرة يطرز بها شعره من غير أن يشعر
القارئ انها اجتلبت عن طريق التكلف أو الافتعال ، وكان شوقي

(١) ومع ذلك فقد بالغ الدكتور في الثناء عليه بما لا مزيد فوقه ، وتلك لعمري
اساس أخلاق العلماء .

بالفعل من المولعين بالمراجعات فى كتب الأدب والتاريخ وكان يفهم جيدا أنه من أئمة الأدب ، وأن من واجبه أن يتعرف الى روائع الأدب القديم والحديث ، وكان له مثل هذا الموقف من الآداب الأجنبية ، وإن كانت صلته بأدب أوروبا وأمريكا وقعت عند حدود المشاهد السينمائية منذ ضعف بصره عن كثرة القراءة ، ومثال شوقى كانت تكفيه اللوحة الدالة ، فكانت المناظر السينمائية تغنيه عن قراءة مختلف الأقاصيص .

كان شوقى من حيث الديباجة فى الذروة العالية ، وكانت معانيه وموضوعاته من روائع الأدب الجديد ، وقد ظلم ناس أنفسهم وظلموا النقد النزيه حين قرروا أن شوقى لم يكن فى معانيه من المبدعين ، وحسب القراء أن يذكروا أن شوقى كان من أسبق الناس الى تدوين كبريات الجوادث فى مصر والشرق ، وسيظل ديوانه من أهم المراجع لتاريخ هذا الجيل .

وقد أبدع شوقى القصص الشعرى المسرحى لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية ، ولم يكن أول من حاول هذه المحاولة ، ولكنه أول من نجح نجاحا يذكر ويؤثر ، وسينسى التاريخ المحاولات الأولية مع الأسف ، ويذكر أن شوقى هو أول من شغل المسارح برواياته الشعرية ، وأول من طاف بشعره الممثلون فى مختلف الأقطار العربية .

وبعد فهذه كلمة قصيرة فى توديع شوقى ، وإن نفسى لتطيب كلما ذكرت انى كنت أول ناقد أنصف شوقى فى حياته كما يشهد بذلك كتاب « الموازنة بين الشعراء » ويرحم الله من قال :

وطيب نفسى أننى لم أقل له كذبت ولم أبخل بما ملكت يدى

٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٢

أسبوع شوقي

يحسن أن يعرف القارئ أولاً قبل كل شيء أننا نكتب ما نكتب في مثل هذا المقام للعبرة والتاريخ ، وأن يعلم أن الصحيفة الأدبية في البلاغ مستقلة عن سياسة الجريدة تمام الاستقلال ، وجريدة البلاغ تمتاز بأن فيها محررين لا يكتبون سطرا واحدا في النشرات السياسية لأن للجريدة رسالة أدبية بجانب مناحيها السياسية ، والسياسة اذا دخلت في باب الأدب أفسدته وحملت القراء على أن ينظروا اليه في حذر واحتياط .

وهذا التمهيد كاف لتوجيه نظر القارئ الى قيمة هذه النزاهة الأدبية التي نتمنى أن تشيع في جرائد الأحزاب لأن للعقول والارواح مطالب أدبية وفنية قد تعرض للضياع والتبديد اذا لم تفصل بين الأدب والسياسة بحاجز حصين .

خطر الادب

أصبحنا بحمد الله نشعر أن للأدب خطرا عظيما ، وصرفنا نرى الناس يختلفون في الحياة الأدبية بحرارة لا تقل عن اختلافهم في الحياة السياسية ، والجمهور اليوم مشغول بحظوظ الادباء شغلا لا يقل عن

شغله بمراكز الزعماء ، واذا عرفنا أن الأدب صورة الحياة وأنه مقياس
لتقدم الأمم ونهوض الشعوب اطمأنتنا الى أن في مصر حياة ، وان
هذا القلق الروحي والعقلي بشير بحياة مجيدة في السياسة والاجتماع،
وهذه الظاهرة الطيبة دليل على أننا خطونا خطوات سريعة نحو المجد
واننا سنصير بعد قليل شغلا لكثير من المفكرين في الشرق والغرب
اذا ثبتنا أقدامنا ومضيئنا نبدع في الآداب والفنون •

عكاظ

اتفق مؤرخو الآداب العربية على أن سوق عكاظ كانت من أسباب
التقريب بين لهجات الجاهليين ، ونحن اليوم نفعل ما يذكر بأيام عكاظ.
فحفلة الأوبرا في هذا الاسبوع كانت ملتقى لكثير من العقول العربية
وكان اجتماع العراقيين والفلسطينيين والسوريين والبنين
والحجازيين (الذين قام خطيبهم في الليلة الثالثة) كان اجتماع كل
أولئك مظهرا من ربط الأمم العربية أقوى بكثير مما كان يفعل
عكاظ في ربط القبائل الجاهلية •

ومما يجب اثباته للتاريخ أن أدباء الأمم العربية ومفكريها كانوا
أسبق الى هذه الفكرة الطيبة من أدباء المصريين ومفكريهم ، وقد كنت
أتحدث منذ شهر مع رجل دقيق الفكر من أقطاب الوفد المصري في
هذه المسألة فقال :

ان هؤلاء الجيران الفضلاء ما زالوا يلحون في توحيد الأمم العربية
حتى صيروا ذلك عقيدة أدبية ستؤتي ثمرها بعد حين والواقع اننا
نستأنس حين نجد أخبار مصر مفصلة في صحف الحجاز والشام
والعراق ، وان كنا نأسف على ما يقع من التهاون المخجل في تجديد
صلاتنا الأدبية ببلاد المغرب مثل طرابلس والجزائر وتونس ومراكش
وهي بلاد ما تزال حريصة على وداد مصر بالرغم من تقريط المصريين في
أحياء ذلك الوداد •

لحظات مع الضيوف الاعزاء

رأيت ان استقبل هؤلاء الضيوف فذهبت للتحية بنفسى فى فندق الكوتنتنتال وكانت لحظات طيبة وان كنت لم أتمكن الا من محادثة رجلين اثنين هما فؤاد باشا الخطيب والشيخ مصطفى الغلايينى ، أما فؤاد باشا فرجل واضح الفكر طيب القلب وهو من الشعراء المجيدين الذين تفوقوا فى وصف الحياة البدوية وله طائفة صالحة من الشعر الحكيم ، وله كذلك رواية شعرية عن فتح الأندلس مثلت فى كثير من الاقطار العربية وهو واسع الاطلاع عذب الحديث .

وأما الشيخ الغلايينى فرجل من شعراء النحاة يجمع بين القديم والجديد ، وله مؤلفات كثيرة فى النحو والصرف والبلاغة وقد رأيت أن أسأله عن رأيه فى كتاب النحو الواضح فأجاب بأنه كتاب جيد ، ولكنه يقسم أبواب النحو على سنين مختلفة ، مع أن الأفضل أن يكون الجزء الأول جامعا لأبواب النحو كلها فى ايجاز ويكون الجزء الثانى جامعا لها فى شئ من التفصيل ، ثم يجمعها الجزء الثالث فى اسهاب ، وانه هو نفسه يسير فى مؤلفاته المدرسية على هذه الطريقة فقلت : هذه كانت طريقة الأزهر القديم وهى طريقة كانت مضمونة النفع فى تعليم الطلاب .

خليفة شوقى

سألت فؤاد باشا الخطيب عن خلف شوقى فى مصر فأجبنه بأن ذلك يحتاج الى سنين لأن حياة شوقى كانت من أسباب خمبول الشعراء المعاصرين فان شوقى فعل ما فعل أبو تمام الذى أخمل ثلثمائة شاعر فى حياته ، فلننتظر حتى يستبق الشعراء فى ميادين المجد من جديد ثم ننظر لمن يكون السبق ، وهذا بالطبع لن يمر فى شهر أو شهرين ، على أن الخلافة فى الشعر أصبحت سنة لا تلاثم سنن العصر الحديث ، فليظل كل شاعر خليفة نفسه ان شاء ، الى أن يوجد بينهم

من يملك ما كان يملك شوقى من المال والفراغ والعبقريّة .. فان هذه
الثلاثة مجتمعة هي التي تمكن الشاعر من الأمانة أما الشعراء الصعاليك
والصعلوك كلمة مدح وهي تقابل ما نسميه اليوم باللص الشريف
هؤلاء الصعاليك الذين يجمعون بين الفقر والشرف ليس لهم أن يتساموا
إلى أمانة الشعر لأن غنى القلوب أضعف سلطانا من فقر الجيوب ،
وكيف ، تنتظر أن يصير الشاعر أميرا في أمته وهو ليس بأمير في بيته ؟
ان أكثر شعرائنا وأدبائنا يكدحون ليعيشوا ، فهم بالطبع أعجز من
أن ينهضوا بتكاليف المجد المجلوب .

ولامارة الشاعر تكاليف أهمها ترضية النقاد وكبح أقلام المتحاملين
منهم ببعض الهدايا والولائم على نحو ما كان يفعل شوقى رحمه الله
وهذه أثقال تقصم ظهور كثير من شعرائنا الفقراء الذين يفتنون أطيب
أوقاتهم للسعى في طلب الرزق ، فليتغنوا ان شاءوا بما تغنى به حافظ
ابراهيم في نيالى سطيح :

ليس الخمول بـعـار على امرىء ذى جلال
فليـلة القـدر تخفى وتلك خير الليالى

فكاهات الحفلة

لم تمض حفلة الأوبرا بدون أن نظفر منها بكثير من ألوان
التهكاهات .. فلنذكر من ذلك شيئا قليلا :

١ - طلب منى عند دخول المسرح أن أترك عصاي في مكتب
الأمانات بتركته في أسفل لأنها عصا شعرية قدمت الى هدية من أحد
عشاق اللوار .

وكنت أحب أن أرفعها في ختام كل قصيدة اذ كانت بذكرياتها
أجمل ما يجبا به الشعراء ، ثم اتفق أن اصطدمت بالأستاذ سعد اللبان

على المسرح اصطداما عنيفا فالتست عصا فلم أجدها ، فتذكرت في الحال أن حجز العصا في مكتب الأمانات لم يكن الا دسيسة وزارية .

٢ - خطب الأستاذ وهيب بك دوس فأطال حتى أمل بعض الحاضرين وكان بجانبى أديب لا يعرفه فسأل عن اسمه فقلت : هو الأستاذ وهيب دوس المحامى فقال الاديب : يعذر فى اطالته لانه حماية؛ يريد أنه شقيق الوزير توفيق باشا دوس .

٣ - كان الأستاذ السكندري يعرب اسم شوقى فينونه رفعا ونصبا وجرا فيقول مثلا : ولكن شوقيا ، فأظهرت ضجرى من اعراب الأعلام فقال الأستاذ برادة أراد أن يعربه فنكره .

٤ - . كانت هناك لحظة استراحة تصافح فيها الاصـدقاء من الحاضرين فسمعت الأستاذ أحمد والى الجندى يقول للأستاذ محمد الهياوى : العاقبة عندك يا أستاذ ان شاء الله تموت وتحتفل الحكومة بذكراك .

فقال الهياوى : أقبل هذا مع السرور على شرط أن لا يطيل الخطباء الى حد الاملال .

٥ - لوحظ أن معالى حلمى باشا عيسى جذب أحد الخطباء من نوبه برفق ليختصر فقال أحد الحاضرين « شده من خطبته » ولا تشده من ذيله .

٦ - كان مقررا أن تنتهى حفلة الأوبرا فى الساعة الثامنة ولكنها طالت جدا وكان الحاضرون يفكرون فى طريق الخلاص ، فقال أحدهم « ينبغى أن نوزع على الخطباء موعد العشاء فى الكونتنتال » .

٧ - كانت خطبة الدكتور منصور فهمى مختصرة جدا فحمد له الناس ذلك الذوق فلما أطال بعده الخطباء وأملوا اقترح بعضهم أن

بهتف الحاضرون « ليحيى الدكتور منصور ليفهم الخطباء أن البلاغة
هى الأيجاز •

٨. - سمعت أحد الحاضرين يقول : لو أن وزير المعارف كان
ينتظر هذا التطويل لأجل هذه الحفلة الى سهرات رمضان !
وفى هذا كفاية فذلك موضوع لو أطلناه طال •

قهوة بسكر

من عادات أهل الريف أن لا يقدموا غير القهوة فى المآتم وقد يمتنع
المعزون عن تناول القهوة بتاتا ، اذا كان الميت شابا ولكنهم يقدمون
القهوة الحلوة اذا كان الميت شيخا هرما ترك بعده أولادا نجباء •

وقد قرأت فى الصحف أن الأستاذ عبد العزيز البشرى دعا وفود
الأقطار العربية الى حفلة عشاء فى داره يغنى فيها الموسيقى صالح
عبد الحى فنذكرت أنه أراد أن يقدم لهم « قهوة بسكر (زيادة) » •
ومعنى هذا أنه غض النظر عن فكرة التعزية فهل نستطيع أن
نقترح أن يقيم الأستاذ محمد عبد الوهاب بدوره حفلة لأولئك
الضيوف •

أنا أقدم هذه الملاحظة أيضا للتاريخ • وليس فيها ما يعتذر منه،
فانها تذكر بمن قال :

إذا مت فادفنى الى جنب كرمه
يروى عظامى بعث موتى عروقها
ولا تدفنى فى القسالة فأنى
أخاف اذا مت أنى لا أذوقها

وتذكر أيضا بما أوصى به عمر الخيام أصدقاءه أن يصبوا على
قبره دنان الصهباء !

أين الجنس اللطيف

روعت التقاليد في هذه الحفلة لشوقي ذام يحضرها أحد من الجنس اللطيف لأن معالي رئيس الحفلة لا يرى ذلك ، وسمح فقط لقريبات الشاعر أن يحضرن في مقصورة مسدولة الستائر .

وفي ظني أن شوقي كان يتمنى أن يكون الاحتفال بذكره جامعا لأسراب الجنس اللطيف حتى لا يحرم روحه من نعمات « ليلي » « وكليوباترة » « وأميرة الأندلس » .

محمد عبد الوهاب

من غرائب المصادفات ان اسم محمد عبد الوهاب لم يرد على لسان احد من الخطباء والشعراء الذين اجتمعوا لتأبين شوقي ، مع ان صلة شوقي بذلك الموسيقى كانت نعمة على الأدب والفن ، فبفضل شوقي غنمنا محمد عبد الوهاب وبفضل عبد الوهاب غنمنا بقية الكأس من حياة شوقي .

التربية والتعليم

اغفل منظمو الحفلة وشعراؤنا عن جانب مهم من شعر شوقي وهو الجانب الخاص بالتربية والتعليم ، وقد علمت ان الاستاذ سعد اللبان اغفل هذا الباب عامدا ليتمكن من كتابة الفصل الذي قدمته لمجلة (١) التربية الحديثة وهو فصل يذكر للاستاذ اللبان .

أدب صحفية

لاحظت أن الأستاذ أنطون الجميل نشر خطبته في ذيل الأهرام ونشر الخطب الأخرى في الصدر وذلك باب من دقة الذوق ولاحظت كذلك أنه نشر القصائد التي سبقته الى نشرها جريدة البلاغ فعرفت

(١) لم نجد بهذا المقال في مجلة التربية الحديثة ، ولكننا وجدناه في البلاغ وهو منشور في هذا الكتاب تحت عنوان « التربية والتعليم في شعر شوقي » .

أنه يرى الأدب أغلى وأنفس من أن يبذله التكرار فليقبل منا خالص
الثناء •

اغلاط.

جاء نى خطبة الأستاذ أحمد زكى باشا أن شوقى امتاز بـبيرة
عطية هى الشرح الذى وصفه خاتمة المحدثين الشيخ سليم البشرى
لقصيدة نهج البردة وهذا خطأ والصواب أن الشرح للشيخ عبد العزيز
البشرى وكتب اسم الشيخ سليم رعاية لمركزه وكان يومئذ شيخ
الأزهر الشريف •

وجاء فى خطبته أيضا أن البردة عورضت بمئات ومئات من
القصائد ومعنى « المئات » والمئات انها عورضت على الأقل بنحو
خمسمائة قصيدة ، وذلك غلو غير مقبول ولعل سيادة زكى باشا يتفضل
فيذكر لنا خمسين قصيدة لا خمسمائة مما عورض به البوصيرى ،
لأننى مشغول فى هذه الأيام بدراسة المدائح النبوية ، اذ كانت
تشغل فصلا مهما من كتابى عن أثر التصوف فى الادب والاخلاق
وأنا أنتظر جواب الباشا المفضل •

الحقد السياسى

جاء فى خطبة الأمير مصطفى الشهابى لوم عنيف على نظم شوقى
فى وصف البوسفور والمعانى التركية وضرب مثلا بسا نظم فكتور
هيجو ، والخطأ واضح فى النظرية والاستشهاد فمن حق الشاعر
أن يصف ما يطرب له ولو كان فى بلاد الأعداء فكيف يعاب على
شوقى أنه أشاد بالبوسفور والمعانى التركية ؟

أيجوز التغنى بسلاعب لندرة وباريس وبرلين ولا يجوز التغنى
بحدائق الاستانة ؟

هذا عجيب !

أخوك في الدين

أرسل معالي وزير المعارف الى كبير شعراء تركيا ينعى شوقي
فأجابه الشاعر بخطاب نفيس جاء في ختامه :

« وتقبل تحية أخيك في الدين » *

اذن لا يزال في تركيا ناس يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر *

شوقي أمام التاريخ

شخصيته وحكمته المطبوعة (*)

اتفق لى أن كتبت فصولا مطولة عن شعر شوقي فى سنة ١٩٢٥ وهى وصول منزهة عن الغرض يجدها القارئ فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » وكانت فرصة طيبة عرفت فيها أخلاق النقاد المعاصرين . ويعز على أن أصرح بأن جمهرة النقاد كانت من أصحاب الصحف الأسبوعية ، وكان شوقي عودهم التطلع الى ما أحدثته الفأخرة وجيبه الثقيل ؛ وكانوا كلما احتاجوا الى « بره ومعروفه » طافوا حول شعره يتلمسون ما فيه من نقائص وعيوب ، وكان الرجل يغار على شعره غيرة الكريم على عرضه ، فكان يخرس ألسنتهم ، ويقصف أقلامهم ، بالهدايا والهبات . وقد ظن أولئك المساكين أنى أكتب عن شعر شوقي لنفس الغرض الذى يسوقهم ويحفزهم الى الكتابة عن شعره ، فكانوا يتقدمون الى ناصحين ، وكان نصيحهم يتلخص على اختلاف ألوانه فى هذه الكلمة الطريفة : « ان شوقي لا يحترم من ينصفه ! »

والاحترام الذى يفهمونه هو السخاء والكرم والجود ، وهذا النوع من الاختراء يبدو لعينى بغضا ممقوتا لا يتطلع اليه الا سفلة الناس . وليت شعري كيف يحتاج الرجل الى هبات الأغنياء ورغيف

(*) أبوللو - ديسمبر سنة ١٩٢٢ .

واحد يكفيه يوما وليلة ، وليس بطن الانسان الا وعاء حقيرا لا يستحق أن تذل في سبيل ملئه النفوس ؛ ولكن هذا هو الذي وقع لنقاد ذلك العصر مع الأسف الموجه ، وقد استطاع أولئك المرتزفون أن يشوهوا النقد الأدبي أبشع تشويه ، وأن يقلبوا الحقائق الأدبية قلبا كريها ، وأن يروضوا الجمهور على الاعتقاد بأن الرجل لا يقول كلمة الحق الا وأخوذا بغرض دفين •

وقد عرفت بالتجربة أن شوقي كان كما وصفه أولئك الواصفون لا يحترم من ينصفه ، وتجلت لي حقيقة ذلك في سنة ١٩٢٨ يوم قدم طاغور مصر وأقام له في داره حفلة استقبال • كنت يومئذ مدرسا بالجامعة المصرية وكنت صديقه وكان الدكتور طه حسين من خصومه الألداء ، فدعا الدكتور طه لاستقبال طاغور في منزله ولم يدعني ، لأن الدكتور طه كان موظفا في الدرجة الثانية وكنت موظفا في الدرجة السادسة ، وفرق ما بين هاتين الدرجتين كان من الأمور التي يفهمها جيدا أمير الشعراء الذي عودته الحياة الرسمية أن يحترم الرئاسيات ؛ ثم وقع يومئذ ما هو أبشع من ذلك : فقد كان دعا المسيو ساروليا ثم علم أن الجمهور هاج على ذلك الأستاذ الكلمة نذت في محاضراته بالجامعة المصرية ، فكتب اليه شوقي ينبئه بأنه « سحب الدعوة » وانه يرجوه أن يريح نفسه من الحضور لدار الكرم والعبود « كرمة ابن هاني » على أيامها وأيامه تحية وسلام !

وكانت هذه أيضا فرصة طيبة عرفت فيها أخلاقي : فان تلك الهفوة لم تنقص تقديري لشوقي ، شوقي الشاعر • أما شوقي الصديق فقد ثرت عليه ثورة عنيفة • وعدت لا أقابله حين ألقاه مصادفة الا بنفس الزاهد العيوف • وقد اتفق أن تلاقينا عفوا في بهو الكونتنتال في ربيع سنة ١٩٢٩ • وكنت مع الدكتور منصور فهمي ، فسألني شوقي

عن انصرافى عنه ، فأجبت بكلمات فيها جفاء ، فالتفت الى الدكتور منصور وقال : ان شوقى بك والد الجميع . وأنشد :

نسيل على جوانبه كأننا نسيل اذا نسيل على آيينا
نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرما ولينا

ثم توالى الأيام ، وكانت تزيد فى يقيننا بأن شوقى الشاعر شخصية منفصلة تمام الانفصال عن شوقى الذى يعرفه الناس كأنسان اجتماعى يخطئ ويصيب بين الحق والواجب ، وكان أن رأته لآخر مرة فى مسرح حديقة الأزبكية يوم اجتمعنا لمعاونة الأديب محمود أبو الوفا ، وأسرت اليه أحبيه ، وأقبل أبو الوفا يسلم عليه . وكدت أصرخ فى وجهه : قبل يد الشاعر أيها الجاحد فقد شرف قدرك بشعره ؛ وكانت عاطفة طبيعية : فقد كان شوقى فى ذلك اليوم وهو محطهم مهدود يبدو لعيني فى وقار الصديقين . ولما علمت أنه سيقوم حفلة شاي فى داره لأعضاء (جمعية أبولو) خطر ببالى أن أسعى لحضور تلك الحفلة ، خشية أن تكون آخر مرة يرى الناس فيها أمير الشعراء . ولكنى رفضت أن أذهب بدون دعوة ، ثم كان ما مر بالبال صحيحا ، وكانت آخر مرة يستقبل فيها شوقى رجال الأدب فى داره ، فباحسرتا على ما ضيعت من تلك اللحظات الطيبات !

لم أسىء يوما الى شوقى الشاعر ، والحمد لله . وان كنت بعث حظى من شوقى الصديق ، وقد عانيت فى سبيل اعجابى بشعره نكبات عديدة ، فإن ناسا كانوا يودون لو هدموه ، ومن أولئك الناس رجال أحترمهم وأرى فيهم مخايل العبقرية ، ولكنهم أولعوا بالنيل من ذلك الرجل ، وسلكوا الى هدمه شتى الشعاب . وكان الرجل عظيم الشعارية حقا وكان أصلب من أن تنال منه معاول الهادمين ، فعادوا يتسحجون بأعتاب الخلق والوطنية . وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان . والأخلاق والوطنية عكاز يتوكأ عليه كل مغرض حقود .

وستظل الأخلاق والوطنية دعامة يستند إليها ضعفاء النفوس والعقول
ما دام أهل الشرق يحسنون الاستماع إلى أدعياء الوطنية والأخلاق!
الخلق لله ، والوطنية لله ، كما أن الدين لله ، فليترك لشوقي
أخلاقه ووطنيته ، ولننظر فيما أبدع من آيات الشعر البليغ ولنخص
بالذكر شعر الحكمة الرائعة .

الحكمة في شعر شوقي

أول ظاهرة واضحة في شعر شوقي هي التماس الشاعر لغرائب
الحكمة في جميع القصائد والمقطوعات ، وقد آثرت أن أقف هذا
المقال التقديرى على تلك الظاهرة البارزة في شعره وهي ليست ملحوظة
في شعر الكهولة وحده ، وإنما ترجع إلى ميل في نفس الشاعر منذ
صباه . ومن الجميل أن يكون الشاعر حكيما ، ولكن الأجل أن ترد
الحكمة عفوا بلا تكلف ولا افتعال . وقد وقع لشوقي أن عبق أسلوب
القصص أحيانا كثيرة في سبيل الحكمة ، وغالب سياق القصائد رغبة
في تدوين الكلام الحكيم . من ذلك قصيدته الهمزية التي أنشأها
منذ نحو ثلاثين عاما لتلقى في المؤتمر الشرقى الدولى الذى انعقد
في مدينة جنيف سنة ١٨٩٤ ، وهي قصيدة مطواة وصف فيها مصر
وحكوماتها وأهلها منذ العهد القديم ، وجرى القصص فيها مسلسلا
لم يعقه الا التنقل الى الحكمة التي كانت تطرد أحيانا الى نحو خمسة
أبيات مع أنه كان يكفى أن تقع في شطري بيت لتكون لفظة لا ينقطع
بها سياق الحديث . مثال هذا كلامه عما لحق مصر من الذل بعد عهد
فرعون ، فقد وصل به هذه الأبيات :

ان ملكت النفوس فاين رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
بسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودون وان لن يؤيد الضعفاء
والليالى جوائر مثلما جا روا وللهر مثلهم أهواء

ثم عاد الى القصص فنظم ثلاثة عشر بيتا عن رمسيس
وسيزوسنريس الذى وصفه بالتواضع وكره الكبرياء ، ودعاه هذا
الى القاء الحكمة فقال :

يولد السيد المتوج غضا طهرته فى مهدها النعساء
لم يغيرد يوم ميلاده بؤ س ولا ناله وليدا شقاء
فاذا ما المملقون تولوا ه تولى طباعه الخيلاء
وسرى فى فؤاده زخرف الفو ل يراه مستعذبا وهو داء
فاذ أبيض الهديل غراب واذا أبلج الصباح مساء

وقد تطرد الحكمة عند شوقى لغرض مقصود فتأتى رائعة : مثال
هذا قصيدته فى مشروع ملنر ، وهى قصيدة كان يجب بترها من
انديوان نولا حرمة التاريخ ، ومشروع ملنر كان فتنة من أخطر الفتن ،
وكان ناس دعوا له واستدروا شوقى الى الدعوة له ، فكتبت ألومه
فى جريدة «المحروسة» ، فلما تلاقينا اعتذر بأنه قال القصيدة مأخوذا
بالإحاح بعض الناس ، والقصيدة دعوة الى الرضا بالضعف ، ولكنها
من أظرف ما ينوم به الضعفاء ، ولم أجد فى حياتى كلمة باطل صيغت
فى مثل هذا الاسلوب الطريف :

قد صارت الحال الى جدها واتبه الغافل من لعبه
الليث والعالم من شرقه فى هيبة الليث الى غربه
قضى بأن نبى على نابه ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجد على عينه وندخل العصر الى جنبه
ونصل النازل فى سلمه ونقطع الداخل فى حربه
ونصرف النيل الى رأيه يقسمه بالعدل فى شره
يبيح أو يحمى على قدرة حق القرى والناس فى عذبه
أمر عليكم أو لكم فى غد ما ساء أو ما سر من غبه
لا تستقلوه فما دهركم بحاتم الجود ولا كعبه

نسمع بالحق ولم نطالع
ينال باللين الفتى بعض ما
فان أنستم فليكن أنسكم
وفى احتشام الأسد دون القذى
قد أسقط الطفرة فى ملكه
يا رب قيد لا تحبونه
ومطلب فى الظن مستبعد
والئاس لا يجمل من مؤمن

على قنا الحق ولا قضبه
يعجز بالشدة من غصبه
فى الصبر للدهر وفى عتبه
اذا هى اضطرت الى شربه
من ليس بالعاجز عن قلبه
زمانكم لم يتقيد به
كالصبح للناس فى قربه
ما دام هذا الغيب فى حجبه

أليس يرى القارىء أن هذا باطل صور فى أبرع أسلوب ؟ ومع
هذا فالشاعر حكيم فى طبعه حتى حين يتألق فى تصوير الأباطيل ، فاننا
مهما رميناه بالدعوة الى الضعف واللين لا نستطيع أن ننكر أنه أحكم
الناس حين قال :

يارب قيد لا تحبونه زمانكم لم يتقيد به

فالزمان قد يفك القيود حين يرى فيها مغالبة لطبيعة الحياة وحقوق
الاحياء كما بدأ يفعل فى معاهدة فرساي .

وكان يطيب لشوقى أحيانا أن يبدأ قصيدة بالحكمة ثم يطيل
كأننا كانت الحكمة غرضه المقصود ، وأكثر ما كان يقع ذلك فى قصائد
الرثاء . ومن أوضح الشواهد فى هذا ما ابتداء به قصيدته فى
كارنارفون :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
أسد لعمرى من يموت بظفره
ان نام عنك فكل طب نافع
داء النفوس وكل داء قباه
النفس حرب الموت الا أنها

كل امرىء رهن بطنى كتابه
عند اللقاء كمن يموت بناه
أو لم ينم فالطب من أذنا به
هم نسين مجيئه بذهابه
أتت الحياة وشغلها من بابه

تسع الحياة على طويل بلائها وتضيق عنه على قصير عذابه
هو منزل السارى وراحة رائح كثر النهار عليه فى اتعابه
وشقاء هذى الروح من آلامها ودواء هذا الجسم من أوصابه !

تلك ثمانية أبيات فى الحكمة يجد بعدها القارىء أحد عشر بيتا
حاول الشاعر صبغها بصبغة الكلام الحكيم ، وهذه المقدمة الطويلة
تبدو لنا مستثقلة بعض الشيء لأننا نلمح فيها آثار الافتعال ، ولكننا
نقف خاشعين حين نصل الى قوله فى وصف ذلك العالم المجهول الذى
يسمى عالم البقاء :

يا صاحب الأخرى بلغت محلة هى من أخى الدنيا مناخ ركابه
نزل أفاق بجانيه من الهوى من لا يفيق وجد من تلعبه
نام العدو لديه عن أحقاد وسلا الصديق به هوى أحبابه
الراحة الكبرى سلاك أديسه والساوة الطولى قوام ترابه

والقارىء أن يتأمل البيت الأخير فهو من أجود ما قيل فى وصف
مابعد الموت من قرار وسكون •

وليشوقى قصائد دعت اليها ظروف وقتية ، ضمنها كذلك حكما
وقتية ، فقصيدته فى العمال منظومة مفتعلة تحدث فيها عن الانتخابات
البرلمانية لأن ظروفها اقتضت ذلك ، واسمع كيف يقول :

أيها الجمع لقد صر ت من المجلس قبا
فكن الحر اختيارا وكن الحر انتخابا
ان للقوم عينسا ليس تألوك ارتقسا
فتوقع أن يقولوا : من عن العمال نابا ؟
ليس بالأمير جديرا كل من ألقى خطبا
أو سخا بالمال أو قد م جاها واتسبا
أو رأى أميسة فاختر الب جهل اختلا

والقوم الذين يعنيه شوقي هم الانجليز ، والعمال مدعوون ان يراقبوا الانجليز حين ينتخبون النواب ، والمطلوب أن ينتخبوا الدكتور محجوب ثابت ولكن هذه المنظومة لم تخل مع ذلك من أبيات حكيمة سبقت اليها فطرة الشاعر الحكيم حين أخذ يقول :

ان لى نصحا اليكم ان أذنتم وعتابا
فى زمان غبى صح فيه أو تغابى
اين اتم من جدد خلدوا هذا الترابا
قلدوه الأثر المعجز والفن العجابا
وكسوه أبد الدهر من الفخر ثيابا
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد اغتصابا ؛
ان للمتقن عند الله والناس ثوابا
أتقنوا يحبيكم الله ويرفعكم جنابا
أرضيتم أن ترى مصر من الفن خرابا ؟
بعد ما كانت سماء للصناعات وغايا ؟
وبساطة هذا الشعر من سمات جماله وخصوصا اذا لاحظنا أنه
يخاطب العمال ، وخطابه يفرض اليسر واللين فى العرض والأداء .
وليس من الغلو فى شىء ان نصرح أننا معجبون أفن الاعجاب
بقوله فى هذه القصيدة يوصى بالادخار اتقاء لحوادث الأيام :

انما العاقل من يجعل للدهر حسابا
فاذكروا يوم مشيب فيه تكون الشبابا
ان المسنين لهم ما حين تملو وعذابا
فاجعلوا من مالكم للشيب والضعف نصابا
واذكروا فى الصحة الدا ، اذا ما السقم نابا
وقد تبدو هذه الأبيات عند من لا يتأمل فيما تشير اليه من

أعقاب الشيخوخة ذات الويل والعذاب ، ولنذكر دائما أنه يخاطب العمال
الذين تغلب عليهم الغفلة عن مصائر من يهرمون وهم معدمون •

ولا ينبغي أن تفوتنا هذه الفرصة فنهمل التنويه بهذه الظاهرة
الغريبة في حكمة شوقي : فإن الرجل فيما يظهر من شعره ومن أخلاقه
الحيوية كان مأخوذا بالحرص على طيبات العيش ، وكان مشغوفاً
بمعاودة التفكير في الأخلاق المعاشية ، والأخلاق المعاشية هذه كلمة
نراها أنسب ما يصور به حرص شوقي على أسباب الحياة • وانظر قوله
في النحل :

مخلوقة ضعيفة	من خالق مصوره
يا أما قل ملكها	وما أجل خطره !
قف سائل النحل به	بأي عقل دبره
يجبك بالأخلاق وهي	كالعقول جوهره
تغنى قوى الأخلاق ما	تغنى القوى المفكره
ويرفع الله بها	من شاء حتى الحشره !

وليتأمل القارئ في قوله « من خلق مصوره » ووصفه الأخلاق
بأنها جوهرة كالعقول ، يريد أنها هبة دقيقة خفية لا يعلم أسرارها غير
علام الغيوب ، وهذا معنى لا يدرك الا بدقة التأمل ، فإن الخلق
الصالح خالق العيش والحياة من الأسرار الخفية ، فكم ناس يوفقون
في حياتهم المعاشية ، وليست هناك أسباب ظاهرة لما رزقوا من توفيق ،
غير أن النخبر بأحوال العيش يعرف أن هناك دقائق نفسية وخلقية
يتيسر بها العيش والرزق وان كان أصحابها في ظاهر الأمر من العابثين
الماجنين • ولينظر القارئ أيضا قوله :

أليس في مملكة النحل لقوم تبصره؟
ملك بناه أهله بهمه ومجاده
أو التمت فيه بطا ل اليدين لم تـره
تقتل أو تنفى الكسا لى فيه غير منذره!

وهذه صورة صحيحة لحياة النحل ، وفيها عبرة لمن يرون اختلال
الجماعات الانسانية ثم لا يعرفون أن أسباب ذلك الاختلال ترجع الى
مهادة اهل البطالة والفراغ •

لنتغل بعد هذا الى الحكمة الفطرية فى شعر شوقى ، ونريد بها
الحكمة التى تقع فى ثنايا القصيد من غير تكلف ولا افتعال • وشواهد
ذلك كثيرة ، ومنها قوله يخاطب مهنتا بالعيد •

أمثلك يمنع الأوطان خيرا وأنت خلقت من خير طباعا ؛
شجاعا كنت فى يوم عصيب توفيهما المحبة والدفاعا
جنحت الى السلام فكان حاسا وقدا زين الحلم الشجاعا
ومن صعب الحياة بغير عقل تورط فى حوادثها اندفاعا

فإن البيت الأخير وقع موقعا طبيعيا لم يشنه تصنع الحكمة ولا
اختلاق أسباب القول الحكيم •

وقصيدة نهج البردة تفيض بشواهد الحكمة الفطرية ، ولانقرأ
عند الأبيات •

رمى القنساء بعينى جؤذر أسدا ياساكن القاع أدرك ساكن الأجم؛
لما رنا حدثتى النفس قائلة ياويح جنبك بالسهم المصيب روى
جحدتها وكتست السهم فى كبدي جرح الأحنة عندي غير ذى ألم
رزقت أسمح مافى الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر فى الشيع

يا لائى فى هواه والهوى قدر لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك اذنا غير واعية ورب منتصت والقلب فى صمم!

والأبيات الأربعة الأخيرة مضخة بعير الحكمة ، وأرقها عندي
وأوجزها قوله :

«والهوى قدر » • وقد حدثت الدكتور طه حسين عنها مرة
فابتسم وقال : « وعد مكتوب على ومقدر على الجبين ! »
ولنقرأ قوله فى وصف الدنيا •

يا نفس دنياك تخفى كل مبكية وان بدا لك منها حسن مبتسم
فضى بتقواك فاما كلما ضحكت كما يفض أذى الرقشاء بالثرم
مخطوبة منذ كان الناس خاطبة من أول الدهر لم ترمل ولم تنم!
يفنى الزمان ويبقى من اساءتها جرح بآدم يبكى منه فى الأدم
لا تحفلى بجناها أو جنايتها الموت بالزهر مثل الموت بالفحم!

وقوله فى فخار الأصل بالفرع :

قد أخطأ النجم ما نالت أبوته من سؤدد باذخ فى مظهر سنم
نموا اليه فزادوا فى العلا شرفا ورب أصل لفرع فى الفخار نى

وقوله فى شمائل الرسول :

محبة لرسول الله أشربها قعائد الدير والرهبان فى القمم
ان الشمائل ان رقت يكاد بها يغرى الجماد ويغرى كل ذى نس

وقوله فى صاحب البردة :

مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملئ صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضه من ذا يعارض صوب العارض العرم
وانما أنا بعض الغابطين ، ومن يغبط وليك لا يذمم ولا يلسم

وقوله في يتم النبي :

ذكرت باليتم في القرآن تكرمة وقيمة اللؤلؤ المكنون في اليتيم !

وقوله في المفاضلة بين محمد وعيسى :

أخوك عيسى دعا ميتا فقام له

وأنت أحييت أجيالا من الرمم

والموت جهل فان أوتيت معجزة

فأبعث من الجهل أو فأبعث من الرجم

وقوله في حرب من لم يغن في تقويمهم السلم :

لما أتى لك عفوا كل ذي حسب

تكفل السيف بالجهال والعسم

والشر ان تلقه بالخير ضقت به

ذرا وان تلقه بالشر ينحسم !

وقوله في فضل الحرب :

دعوتهم لجهاد فيه سؤددهم

والحرب أس نظام الكون والأمم

لولا لم نر للدولات في زمن

ما طال من عمد أوقر من دعم

تلك الشواهد ترى كل آونة

في الأعصر الغرلا في الأعصر الدهم

بالامس مالت عروش واعتلت سرر

لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

والحكمة هي قوله : «والحرب أس نظام الكون والأمم» ، وما بعد

هذا الشطر جرى مجرى الشرح والتقرير ، وقوله في فضل العدل على

القوة :

واترك رعمسيس : ان الملك مظهره

فى نهضة العدل لا فى نهضة الهرم

ويطول القول لو مضينا نستقصى ما اتفق لشوقي من روائع
الحكمة الفطرية وانها لتقع له سائفة مستطابة كالورد النير * وانظر
قوله يخاطب من شيدوا قبر نابليون ،

حصنوا ما شئتم موتاكمو هل وراء الموت من حصن حصين
وقوله فى ذكرى دنشواى *

شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا

هيئات للشمل الشتيت نظام !

وقوله فى صلة مصر بالسودان :

فمصر الرياض ، وسودانها عيرن الرياض وخلصاتها
وما هو ماء ولكنه وريد الحياة وشرانها
وقد جرى الشاعر فى هذه السبيل حين ألف رواياته المسرحية ،
فليتصفحها القارئ ليرى صحة ما نقول *

وبعد عرض هذه النماذج فى صور الحكمة ومواقعها فى شعر
شوقي يحسن بنا أن نقرر أن ذلك الرجل استقى تلك الحكم من تجاربه
أكثر مما استقاها من مطالعته : فقد عاش زمنا عيشة محرجة مضجرة
لا يعرفها الا من ابتلى بمثلها أو بما يقاربها وما ظن القارئ بمن يعاشر
الملوك ويذوق مافى كؤوس السياسة من علقم وصاب ؟ لهذا نراه صادقا
غير متكلف حين يقول :

أخا الدنيا ، ارى دنياك أفعى	تبدل كل آونة اهبا
وان الرقط أيقظ هاجعات	وأترع فى ظلال السم نابا
ومن عجب تشيب عاشقها	وتفنيه وما برحت كعابا
فمن يغتر بالدنيا فاني	لبست بها فأبليت الثيابا
لها ضحك القيان الى غبي	ولى ضحك الليب اذا تغابى
جنيت بروضها وردا وشوكا	وذقت بكأسها شهدا وصابا

التربية والتعليم فى شعر شوقى (١)

تمهيد :

لم يكن شوقى معلما فى مدرسة أولية ، أو مدرسا فى مدرسة ثانوية ، أو أستاذا فى مدرسة عالية وما أحسبه شغل نفسه بالتعليم شغلا جدبا • وفى هذا مايكفى لأن يعرف القارىء أن آراء ذلك الشاعر فى التربية والتعليم لم تكن من الآراء - المصبوغة بصفة البحث المنظم ، بل يمكن القول بأنها خلت من صبغة القصد ، أى أن الشاعر لم يرد بها أن يكون مرييا أو معلما ، وإنما اتفق له أن يتحدث فى شئون تعليمية دعتة اليها عاطفته كأب له أبناء يتعلمون ، ومواطن يرى فى غدوه ورواحه صبية وشبابا يذهبون الى المدارس ، صديق يرى بعض ما يقاسيه أصدقائه من رجال التعليم •

يضاف الى هذا أن الرجل كان يتطلع الى مستقبل الأمة فى حياتها التهذيبية فكان يسوقه ذلك الى الحديث عن الأزهر والجامعة المصرية • وكان له فى أكثر المواقف قصائد ومقطوعات ينحو فيها منحى المربى الحكيم ، وإن لم يقصد الى تحديد شئ فى المذاهب والآراء

(*) جريدة البلاغ - بتاريخ ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ •

التعليمية : فكان شعره فى هذا الباب من عفو الفطرة وقد تجود الفطرة
أحيانا بما تعجز عنه عقول الباحثين •

خطاب المطرية الى سعد باشا

هى قصيدة نظمها شوقى منذ ربع قرن ، وقدمها الى وزير المعارف
وكان يومئذ سعد باشا زغلول وفى هذه القصيدة تتكلم المطرية عن
رغبتها القوية فى انشاء مدرسة تذكر بمدريستها القديمة التى تعلم فيها
بعض فلاسفة اليونان • وهذه القصيدة مجهولة لا يعرفها الا القليل من
أنصار شوقى ، لأنها من شعره القديم الذى خلا أكثره من آيات النضج
والقوة ، ولكنها فى نظرى غرة من الوجهة التعليمية فلننظر كيف تترفق
المطرية فى خطاب الوزير سعد زغلول :

يا ناشر العلم بهذى البلاد	وفقت • نشر العلم مثل الجهاد
بأنى صروح المجد أنت الذى	تبنى بيوت العلم فى كل ناد
بالعلم ساد الناس فى عصرهم	واخترقوا السبع الطباق الشداد
أىطلب المجد ويبنى العلال	قوم لسوق العلم فيهم كساد
نقاد اعمالك مغل لها	إذا علا الدر غلا الانتقاد
ما أصعب الفعل لمن رامه	وأسهل القول على من أراد
سمعا لشكواى فان لم تجد	منك قبولا فالشكاوى تعاد
عدلا على ما كان من فضلکم	فالفضل ان وزع بالعدل زاد
أسمع أحيانا وحينما أرى	مدرسة فى كل حى تشاد
قدمت قبلى مدنا أو قرى	كنت أنا السيف وكن النجاد
انا التى كنت سريرا لمن	ساد (كادوارد) زمانا وشاد
قد وحد الخالق فى هيكلك	من قبل سقراط ومن قبل عاد
وهذب الهند دياناتهم	بكل خاف من رموزى وباد
ومن تلاميذى موسى الذى	أوحى من بعد اليه فهاد
وأرضع الحكمة عيسى الهدى	أيام تربى مهده والوساد

مدرستي كانت حياض النهى
مشايخ اليونان يأتونها
كنا نسسميهم بصيانه
ذلك أمسى مابه ريسة
أصبحت كالفردوس فى ظلها
لولا حلى زيتونى النضر ما
قرارة العرفان دار الرشاد
يلقون فى العلم اليها القياد
وصببتي بالشيب أهل السداد
ويومى (القية) ذات العماد
من مصر المخنكا لظلى امتداد
أقسم بالزيتون رب العباد

وليتأمل القارىء سحر الترفق فى الأبيات الآتية وقد مثل فيها
خوف الآباء على أطفالهم من عادية قطار السكة الحديدية :

بنى يا سعد كزغب القطا
ان فاتك النسل فأكرم بهم
أخشى عليهم من أذى رائج
صفيره يسلبنى راحتى
يعقوب من ذئب بكى مشفقا
فانظر رعاك الله فى حاجهم
قد بسطوا الكف على أنهم
ان طلب (القسط) فما منهمو
لا نقص الله لهم من عداد
ورب نسل بالندى يستفاد
يجمعهم فى الفجر والعصر غاد
ويمنع الجفن لذيد الرقاد
فكيف أنياب الحديد الحداد
فنظرة منك تنيل المراد
فى كرم الراح كصوب العماد
الا جواد عن أيه الجواد

الجامعة المصرية

عرض شوقى للجامعة المصرية فى شعره عدة مرات تحدث عنها فى
رثائه للمرحوم قاسم أمين فقال :

لله جامعة نهضت بأمرها
أمنية العقلاء قد ظفروا بها
لو يعلمون عظيم ما ترجى له
العلم يبنى الملك حق بنائه
هى فى المشارق مصدر الأنوار
بعد اختلاف حوادث وطوارى
خرج الشحيح لها من الدينار
وبه تنال جلائل الاخطار

ولقد يشاد عليه من شم العلا ما لا يشاد على القنا الخطار
وهى أبيات جيدة لم يعبها الا اغفال الشاعر لمهمة الجامعات
وان كان أجمل ذلك فى قوله :

لو يعلمون عظيم ما ترجى له خرج الشحيح لها من الدينار
ولشوقى قصيدة سينية القيت يوم وضع الحبر الأساسى للجامعة
فى بولاق الدكرور فى ربيع سنة ١٩١٤ جرى أكثرها فى مدح الخديو
انسابق ومدح صاحبة السمو المغفور لها الأمير فاطمة اسماعيل
التى يرجع اليها الفضل فى تكوين الجامعة المصرية ولم يخص شوقى
الجامعة ولا فكرة الدراسات العالية الا بهذه الأبيات :

يا بانى المجد وابن المولعين به انشر ضياء انهدى فى طى أرماس
وألقى فى أرض منف أس جامعة من نورها تهتدى الدنيا بنبراس
وانفض عن الشرق يأسا كاد يقتله فلا حياة لأقوام مع الياس
ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك المريض بلا طب ولا آس
ولشوقى قصيدة أخيرة فى الجامعة ألقى فى ٢٧ فبراير سنة
١٩٣٢ وفى هذه القصيدة مس شوقى بعض الجامعات بتلميح لطيف
ولننظر كيف يقول :

ما هذه الغرف الزواهر كالضحى الشامخات كأنها الاعلام
من كل مرفوع العمود منور كالصبح منصدع به الاظلام
تتحطم الامية الكبرى على عرصاته وتمزق الأوهام
هذا البناء الفاطمى مناره وقواعد لحضارة ودعم
مهد تهيأ للوليد وايمكه سيرن فيها بلبل وحممام
شرفاته نور السبيل وركنه للبقرية منزل ومقام
وملاعب تجرى الحظوظ مع الصبا فى ظلهن وتوهب الاقسام
يمشى بها الفتيان هذا ماله نفس تسوده وذاك عصام

والقصيدة طويلة تنقل فيها الشاعر من غرض الى غرض الى
أن قال :

قامت ربوع العلم فى الوادى فهل للعبقرية والنبوغ قيسام
فهما الحياة وكل دور ثقافة أو دور تعليم هى الاجسام
ما العلم ما لم يصنعه حقيقة للطلالين ولا البيان كلام

وفى الأبيات الأولى نجد شوقى قد وصف مهمة الجامعات أدق
وصف حين قال :

تتحطم الأمية الكبرى على عرصاته وتمزق الأوهام

والأمية الكبرى تعبير جديد وصف به شوقى حياة أنصاف المتعلمين
أو أنصاف الجهال ، وفى القطعة الثانية بين أن دور الثقافة والتعليم
ليست إلا أجساما أما الروح ففى العبقرية والنبوغ وبدونهما لا يكون
للعلم حقيقة ولا للبيان جمال :

ولا فجب أن نقوت على القارىء الاستمتاع بتلك الصورة
الشعرية التى وصف بها شوقى يوم الفراغ من بناء الجامعة المصرية
اذ شبهه باليوم الذى استراح فيه بناء الأهرام حين تم البناء :

يا مهرجان العلم حولك فرحة وعليك من آمال مصر زحام
ما أشبهتك مواسم الوادى ولا أعياده فى الدهر وهى عظام
الا نهارا فى بشاشة صبحه قعد البناء وقامت الاهرام
وأطال « خوفو » من مواكب عزه فاهتزت الربوات والآكام

الازهر الشريف

عرض شوقى للازهر فى شعره غير مرة واشهر ما قاله فيه رائيته
التى نظمها سنة ١٩٢٤ وينبغى أن نذكر أن شوقى كان يضرر أصداق

آيات الولاء للثقافة الأزهرية لانه مدين أثقل الدين لمن اتصل بهم من
نوابغ الأزهرين . وقد ذكر الدكتور محمد هيكمل فى رسالته المطولة
انتى رثى بها شوقى فى جريدة السياسة أنه سأل الشاعر ان يدلّه على
أثر عربى يشغله عن الآداب الأوربية فدلّه شوقى على كتاب (الوسيلة)
للشيخ حسين المرصفى فلما اطلع الدكتور هيكمل على الكتاب عجب
ودهش من أن يرى شوقى فى قراءة مثل ذلك الكتاب ما يصرف الذهن
عن روائع الآداب الأوربية ولو تذكر الدكتور هيكمل أن شوقى كان
أزهري الثقافة لما عجب ولما دهش من أن يشير بمطالعة مثل هذا الكتاب
لأن هناك كتباً أدبية لغوية وفقهية تعد من أئمن الذخائر عند من
يدركون كيف يتصاول جابرة العقول ، ولكن تلك الكتب مغلقة أشد
الإغلاق فى وجوه من حرموا من الثقافة الأزهرية ، تلك الثقافة القوية
التي قامت أصولها على شحذ الذهن وتثقيف العقل من الألف الى الياء
أى من أول يوم يدخل فيه الطالب الأزهر الى أن يجلس مجلس
الاستاذ .

تكلم شوقى عن الأزهر فأثنى على أئمة ثم التفت فنهى القارىء
عن متابعة من ينكرون كل قديم فقال بعد تمهيد وجيز :

واخشع مليا واقض حق أئمة	طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة	واعز سلطانا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم	حرم الامان وكان ظلهم الذرا
من كل بحر فى الشريعة زاخر	ويريكه الخلق العظيم غضنفر
لا تحذ حذو عصاة مفتونة	يجدون كل قديم شىء منكرا
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا	من مات من آبائهم أو عمرا
من كل ماض فى القديم وهدمه	واذا تقدم للبناء قصرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة	والعلم نذرا والبيان مشرثرا

ثم انتقل الشاعر فخطب الأزهر خطابا رقيقا كأنه أنفاس الزهر
عند طلوع الصباح .. وسجل فضله في تشييفه اذ قال :

عين من الفرقان فاض نـمـيرها وحيا من الفصحى جرى وتحذرا
ما ضرني أن ليس أفقك مطلعي وعلى كواكبه تعلمت السرى

وفى هذه القصيدة عرض الشاعر لمسألة من أدق مسائل التربية
والتعليم ذلك بأن الأزهر هو المعهد المصرى الوحيد الذى يفتح أبوابه
للعلميان والمقارء أن يتأمل طويلا فان الأعمى أحق الناس بالعطف وقد
يكون أهلا لنبوغ عظيم يستره الجهل ويطمسه الاغفال *

وهذا الجانب من التربية الأزهرية جدير بالاعجاب فكم من
عميان اطلعهم الازهر وهم اهدى من المبصرين *

وتأملوا رفق شوقى اذ يقول فى خطاب جلالة الملك فؤاد :

نظرا واحسانا الى عميانه وكن المسيح مداويا ومجبرا
والله ما ندرى : لعل كفيفهم يوما يكون ابا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد غبنا وجل المشتري والمشتري
ان فاتهم من نور وجهك فأت لم يعدموا لوجوه برك منظرا
لمسوا يدك كمن يشاهد مزنة ويد الضير وراءها عين ترى

انتحار الطلبة

ولم يقف شعر شوقى فى التربية والتعليم عند الكلام على دور
العلم ومعاهد التشقيف بل اهتم بشؤون الطلبة وتحديث عن أزماتهم
العقلية والوجدانية ولنصرف النظر عما وضعه لهم من الأغاني المدرسية
والاناشيد القومية فان ذلك يحتاج الى بحث خاص ولنكتف بالاشارة
الى رائيته البديعة فى انتحار الطلبة ولعل القراء يكفوننا مؤونة التنبيه
على مواطن الحسن فى تلك القصيدة الرائعة التى يندر مثلها فى الأدب

الحديث فإن المقام يضيق عن ذلك وحسبنا أن نعرض عليهم منها هذه
الشذرات •

ناشئ في الورد من أيامه	حسبه الله أبا الورد عشر
سد السهم الى صدر الصبا	ورماه في حواشيه القصر
بيد لا تعرف الشر ولا	صنحت الا لتلهو بالاكبر
بسطت للسم والجبل وما	بسطت للكأس يوما والسوتر
غفر الله له ، ما ضره	لو قضى من لذة العيش الوطر!
لم يتمتع من صبا أيامه	ولياليه أصيل وسحر
يتمنى الشيخ منه ساعة	بحجاب السمع أو نور البصر
ليس في الجنة ما يشبهه	خفة في الظل أو طيب قصر
فصبا الخلد كثير دائم	وصبا الدنيا عزيز مختصر

وبعد أبيات طيبة مشتتة عرض الشاعر لأسباب اعجاز الطالب
فقال :

لامه الناس وما أظلمهم	وقليل من تفاضى وعذر
ولقد أبلاك عذرا حسنا	مرتدى الاكفان ملقى في الحفر
قال فاس صرعة من قدر	وقديما ظلم الناس القدر
ويقول الطب بل من جنة	ورأيت العقل في الناس ندر
ويقولون جفاء راعيه	من أب أغلظ قلبا من حجر
وامتحان صعبته وطأة	شدها في العلم أستاذ نكر
لا أرى الا نظاما فاسدا	فكك العلم وأودى بالأسر
من ضحاياه وما أكثرها	ذلك الكاره في غض العسر
ما رأى في العيش شيئا سره	وأخف العيش ما ساء وسر
نزل العيش فلم ينزل سوى	شعبة الهم ويبداء الفكر
ونهار ليس فيه غبطة	وليال ليس فيهن سمر
ودروس لم يذلل قطفها	عالم ان نطق الدرس سحر

وانقصيدة طويلة وهى على طولها شهية فليعد اليها من شاء فى
الجزء الأول من الشوقيات ..

واجب المعلم :

ولشوقى قصيدة مشهورة فى واجب المعلم يحفظها التلاميذ لأن
أساتذة اللغة العربية يصرهم جدا أن يعمل تلاميذهم بقول
شوقى

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
وليس يهمنا أن نعيد ما حفظه الطلبة من حق المعلم — وانما يهمنا
أن نذكر رجال التربية بقول شوقى فى واجب المعلمين ..

أعلمى الوادى وساسة نشسته	والطابعين شبابه المأمولا
والحاملين اذا دعوا ليعلموا	عبء الأمانة فادحها مسئولا
كانت لنا قدم اليه خفيفة	ورمت بدنلوب فكان القيلا
حتى رأينا مصر تخطو أصبعا	فى العلم ان مشيت الممالك ميلا
تلك الكفور وحشوها أمية	من عهد خوفو لم تر القنديلا
نجد الذين بنى (المسلة) جدهم	لا يحسنون لآبرة تشكيلا
ربوا على الانصاف فتیان الحمى	تجدوهم كهف الحقوق كهولا
واذا المعلم لم يكن عدلا مشى	روح العدالة فى الشباب ضئلا
واذا المعلم ساء لحظ بصيرة	جاءت على يده البصائر حولا
واذا أتى الارشاد من سيب الهوى	ومن الغرور فسمه التضليلا

من البيت الى المدرسة الى الحياة

هذا العنوان أصلح من العنوان الذى اختاره شوقى لقصيدته

انبائية التي سماها « مصاير الأيام » وهي قصيدة نفيسة جدا افتتحها
بهذه الايات :

ألا هذا صحبة المكتب	وأجيب بأيامه أحب
ويا هذا صبية يمرحوا	ن عنان الحياة عليهم صبي
كأنهم بسمات الحيسا	ة وانفاس ريحانها الطيب
يراح ويفدى بهم كالقطيب	ع على مشرق الشمس والمغرب
فـراخ بأيك فمن ناهض	يروض الجناح ومن أزغب
مقاعدهم من جناح الزما	ن وما علموا خطر المركب
عصافير عند تهجي الدروس	مهارا غراييد في الملعب
لهم جرس مطرب في السرا	ح وليس اذا جدد بالطرب

وكنا نود تحليل هذه القصيدة ، ولكن ضاق الوقت والمجال
في هذا الحديث •

سركات شوقى (*)

قضى صديقنا الأستاذ طاهر الطناحى ثلاث سنين وهو مشغول
بجمع سركات شوقى ، فليسمح لى حضرته بتوجيه نظره الى سرقة
جديدة من سركات شوقى ، وهى جديدة من حيث الاستكشاف ولكنها
من حيث وقوعها قديمة العهد ، واليه البيان :

كان الناس يعجبون من براعة شوقى فى بيان حكمة الجهاد ،
جهاد الرسول ، اذ قال يصادول من وصفوا الرسول بحب الدماء :
قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفوا كل ذى حسب
تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعاً وان تلقه بالشر ينحسم
وهى أبيات على جانب عظيم من جودة المعنى وقوة الرصف ،

(*) من كتاب الاسمار والاحاديث صفحة ٢٩٢ .

وكان يظن أن شوقي هو مبدع هذا المعنى ، وأنه أول من أفصح عن
حكمة الجهاد ، ولكن سرقة انفضحت يوم أقيم موسم الشعر في
الأسبوع المنصرم ، فقد تبين أنه انتهب هذا المعنى من قول الشاعر
محمد الأسمر الذي قال :

ودعا الى الحسنى فلما أعرضوا
واستكبروا شرع الرماح فأسمعنا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا
مستلثما لاقى الطغاة فروعا
والحق ليس بمعتد لكنسه
ان دافعه يد الضلال تدفعنا
ومن البرية معشر لا ينتهى
عن غيه حتى يخاف ويفزعنا

والأسمر شاعر مجيد ، ولشعره أفنان يقطف الناس من ثمارها
ما يشتهون . وكان شوقي رحمه الله مغرما بأخذ معانى الشعراء ،
فاغارته على معانى الأسمر تدخل فيما أثر عنه من الطغيان . ومهمة
النقد الأدبى هى رد الحقوق الى أصحابها وكشف سرقات الشعراء
بعضهم من بعض ، فلا يتهمنا أحد بالفض من شوقي والعدوان عليه وهو
ميت ، فان الحق لا يبالى الأحياء ولا الأموات .

قد يقول معترض : ولكن أبيات شوقي جزء من نهج البردة ،
وهى قصيدة نظمها شوقي فى سنة ١٣٢٧ هـ ونحن اليوم فى سنة
١٣٥٥ هـ أى أنه نظمها منذ نحو ثمانية وعشرين عاما ، فكيف يصح
اتهامه بالسرقة من الأسمر ؟

ونجيب بأن حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد
الأسمر رجل عجوز جدا ، بالرغم من تصاييه ، وقصيدته التى ألقاها

فى موسم الشعر نظمها منذ أكثر من ثلث قرن وألقاها فى معهد
دمياط • ونشرها فى مجلة « الأمانة » واطلع عليها شوقى فانتهب
منها ما شاء •

ولكن لابد مع هذا من انصاف شوقى الذى لا يملك الدفاع عن
نفسه بعد أن أسكته الموت ، وانصافه سهل : فقد نص القدماء على
أن السرقة لا تعاب دائما ، وانما تعاب حين يسوء الأخذ ، أى حين يكون
المعنى المسروق ورد فى صورة أقل جمالا من الأصل ، وتقبل السرقة
حين يلطف الأخذ ، أى حين يصور المعنى المسروق بصورة أبرع من
الأصل ، وهذا ما وقع لشوقى : فان أبياته أجمل من أبيات الأسمر ،
وهى كذلك أروع وأرشق ، وحسب الأسمر من الفوز أنه كان السابق
ولم يكن المسبوق !

أكتب هذا وأنا أعرف أن أنصار شوقى ستضيق صدورهم بما
أقول ، ولكن لا بأس فقد احتملنا كثيرا من المكاره فى سبيل الحق ،
وعند الله لا عند الناس حسن الجزاء (١) •

٢٦ يونيه سنة ١٩٣٦

(١) لم يقطن الأستاذ سلامة موسى الى جوهر الدعابة فى هذه الكلمة فنقلها الى
« المجلة الجديدة » شاهدا على سرقات شوقى !

لمحات من حياة شوقي (١)

سيداتي سادتي :

تفضلت محطة الاذاعة فدعنتي للاشتراك في احياء ذكرى أمير

الشعراء •

وقد نظرت فرأيت الكلام على شوقي كثر جدا ، وأنا نفسي

كتبت في نقد شعره كثيرا ، وأخشى أن أقع في الحديث المعاد •

فلم يبق الا أن أقدم اليكم بعض الصور من حياة ذلك الشاعر

العظيم ••

كانت شهرة شوقي قد بلغت مبلغا عظيما قبل الحرب العالمية (١) ،

ولكن الجمهور كان هواه مع منافسه الخطير حافظ ابراهيم ، لأن

حافظا كان شاعر الوطنية ، وكان من السابقين الى محاربة الاحتلال ،

وكان شوقي كذلك شاعرا وطنيا ، ولكن مركزه الرسمي في معية سمو

الخديو عباس كان يحول بينه وبين الشجاعة التي امتاز بها حافظ في

محاربة الاحتلال •

ثم وقع حادث لم يكن في الحسبان ، وهو عزل سمو الخديو

(*) محاضرة القيت في محطة الاذاعة المصرية في أكتوبر سنة ١٩٣٨ •

(٢) هذه المحاضرة على صفحات كتاب الأسمار والأحاديث ١٥٦ •

عباس عن عرش مصر بسبب انضمامه الى تركيا في الحرب العالمية
الماضية .

وفى تلك اللحظة الرهيبة تقدم حافظ ابراهيم فهناً السلطان
حسين بالعرش مع جماعة من الشعراء ، ودعاه الى الثقة بالانجليز
فقال :

ووال الانجليز فهم رجال من الآداب قد نهلوا وعلوا
وحينئذ تلفت الجمهور ينظر الى ما يصنع شوقي ، وكان تخلف
عن تهنة السلطان حسين . وما هي الا أيام حتى نشر شوقي لاميته
المشهورة التي عطفت الجمهور عليه :

الملك فيكم آل اسماعيل لا زال ملككم يظل النيل
وكانت هذه القصيدة شؤماً على الشاعر : فقد وقعت فيها أبيات
كانت مثارا للتفسير والتأويل ، وهي هذه الأبيات :

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم

قاله خير موثلاً وكفيلاً

جرت الأمور مع القضاء لغاية

وأقرها من يملك التحصيل

أخذت عنانا منه غير عناها

سبحانه متصرفاً ومديلاً

هل كان ذاك العهد الا موقفاً

للسلطتين والليلاذ وبيلا

يعتز كل ذليل أقوام به

وعزيزكم يلقي القياد ذليلاً

دفعت بنا فيه الحوادث وانقضت

الا نتائج بعدها وذيوها

وانقض ملعبه وشاهده على

أن الرواية لم تتم فصلاً

وقد سارت هذه القصيدة في ذلك الحين مسير الأمثال ،
ولا سيما هذا البيت :

دؤيا على يا حسين تحققت ما أصدق الأحلام والتأويلا
وكان الناس يعدون ذلك من التورية •

وقد انزعج الانجليز من كثرة القيل والقال ، فأمرُوا بنفى شوقي
من البلاد ، وكان ذلك النفي فاتحة لعهد جديد من شاعرية شوقي ،
وابتداً بقطعته النثرية في وصف قناة السويس ، وهي قطعة نادرة
النظائر والأشباه •

وكان شوقي يخاف أن ينسأه أهل مصر فهو الذي قال ان مصر
بلد •

كل شيء فيه ينسى بعد حين •

فأخذ يرسل قصائده بلا انقطاع الى مجلة عكاظ ، وكان لهذه
المجلة تأثير شديد في توجيه الأدب الحديث ، ولكن الجمهور نسيها
بسرعة لأن صاحبها كان أفسد ما بينه وبين أكثر الأدباء من صلات •

ثم اتفق لشوقي أن ينظم النونية المشهورة ، وهي قصيدة رق
فيها حنينه الى مصر والنيل :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نأسى لواديك أم نشجى لوادينا
ما ذا تقص علينا غير أن يدا
قصت جناحك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا
أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا
سهما وسل علينا البين سكيننا

إذا دعا الشوق لم نبرح بنصدع
من الجناحين عى لا يلينا

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا
أن المصائب يجمعن المصايينا
لم تأل ماءك تحنا ولا ظمأ
ولا ادكارا ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ذيل الى فنن
وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطليهم
فمن لروحك بالنطس المداوينا

وفى هذه القصيدة مجد مصر والنيل أعظم تمجيد اذ يقول :

لم يجر للدهر اعذار ولا عرس
الا بأيامنا أو فى ليالينا
ولا حوى السعد أطفى فى أعتته
منا جياتا ولا أرخى مياديننا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرا
ولم يهن يند التشتيت غالينا
وهذه الأرض من سهل ومن جبل
قبل القياصر دناها فراعينا
ولم يضع حجرا بأن على حجر
فى الأرض الا على آثار بائنا
كان أهرام مصر حائط نهضت
به يد الدهر لا بنيان بائنا

وختمها بالشوق الى أمه فى حلوان فقال :
كنز بـحلوان عند الله نطلبه
خير الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
لم يأتـه الشوق إلا من نواحيننا
إذا حملنا لمصر أو له شـجنا
لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

وفى أواخر سنة ١٩١٩ فيما أتذكر رجع الشاعر من منفاه ،
وتلـهفت لرؤيته ، فرأيتـه أول مرة فى منزل المرحوم عبد اللطيف
الصوفانى بك بالحلمية الجديدة .

رأيتـه رجلا خاليا من الأبهة والوجاهة فى ملبسه وهندامه ، رجلا
قليل الكلام كثير الصمت ، لا يدل مظهره على شىء ، وإن طبقت
شهرته الآفاق .

وقد عرفونى يومئذ اليه ، فأنشده قصائد كثيرة من شعره
البليغ ، وكان يأنس الى من يزوون أشعاره ويعترفون بعظمته
الشعرية .

ثم وقع بعد ذلك أن نظم قصيدة فى الدعوة الى قبول مشروع
ملـنر سنة ١٩٢٠ وقد قرأت تلك القصيدة وأنا فى غيابة الاعتقال ،
فثار غضبى عليه ، وصمت على ايذائه حين أجد السبيل الى تنسم
هواء الحرية .

ولما خرجت من الاعتقال فى خريف سنة ١٩٢٠ كانت أول ما
كتبـت مقالة فى نقد شوقى بمناسبة قصيدته فى مشروع ملـنر ونشرتها
فى جريدة المحروسة ، فغضب الشاعر ، وأضاف اسمى الى خصومه
الآلـداء .

ولكن المقادير أرادت غير ما أردت وأراد ..

واليكم أسوق الحديث :

كان شوقي بعد رجوعه من منفاه لا ينشر قصائده الجياد الا فى جريدة الأهرام ، وكانت جريدة الأهرام تسميه «أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع» .

وقد احتالت جريدة السياسة للتفرد بنشر تلك القصائد انجساد فأعلنت أنها تقدم خمسين جنيها الى الجمعية الخيرية الاسلامية فى كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي .

ورأى شوقي أمام هذه الحيلة البارة أن لا مفر من أن يختص جريدة السياسة بأشعاره ، فقد كانت هذه الحيلة كافية للظفر بمودته . لأنها وثيقة نفيسة تشهد بعظمته الشعرية .

انتقلت قصائد شوقي من الأهرام الى السياسة ..

فانتقلت جريدة الأهرام كما انتقل ، ولم تعد تسميه «أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع» حين تجيء مناسبة لذكر اسمه ، وانما صارت تسميه صاحب العزة أحمد شوقي بك .

وقد تنبعت الى هذه الظاهرة مع سديق قديم هو الدكتور سعيد عيده ، وكان يومئذ طالبا بمدرسة الطب ، فكتبنا نلوم جريدة الأهرام بكلمات نشرناها فى جريدة الصباح ..

وقد قرأ شوقي ما كتبت وما كتب صديقى سعيد فطرب ورانا من النوايح ؛

وأرسل ابنه حسين الى صاحب الصباح يدعونا جميعا للغداء بكرمة ابن هانىء فى المطرية ..

ولم يشأ أن يجشمنا مشقة الانتقال فأعطانا موعدا بأحد أندية

القاهرة ، وجاء بسيارته الفخمة فنقلنا الى المطرية مكرمين معززين ،
ومعنا العبدىق أحمد علام الذى صار فيما بعد مجنون ليلى فى رواية
شوقى ..

قد أنسى كل شىء ، ولكنى لن أنسى كيف رأيت شوقى فى ذلك
اليوم •

كان الرجل جاوز الخمسين ، ومع ذلك بقيت له ابتسامة عذبة
حلوة تفتن وتشوق ، وبقيت فى وجهه ملامح من الصباحة تظهر فى
تورين تشرقان فى خديه ، وانطلق فحدثنا عن خصوماته القديمة مع
الزعيم سعد زغلول ، وأنشد أبياتا من قصيدته التى نظمها فى
السخرية من عرابى يوم عاد من منفاه ، وعاتبنى على المقال الذى
نشرته فى الهجوم عليه بجريدة المحروسة ، وأوضح الأسباب التى
دعت لنظم قصيدته فى مشروع ملتر قائلا انها استجابة لالحاح
المكباتى والنحاس •

وكان ذلك اليوم بداية صداقة حقيقية بينى وبين شوقى ..

وزادت الألفة فكنا نلتقى كل يوم بمكتبه فى شارع جلال •

ثم شرع فى طبع ديوانه سنة ١٩٢٥ فتلطف واقتراح أن أكتب
مقدمة لذلك الديوان ، وقد قبلت بسرور وارتياح •

ورجعت الى نفسى فرأيت أن كتابة المقدمات توجب التغاضى عن
الهفوات ، فأرسلت الى شوقى خطابا أعتذر فيه عن كتابة مقدمة
ديوانه ، وعللت الاعتذار بأنى وقفت قلمى على النقد الأدبى ، وقد
أهجم عليه فى يوم من الأيام ، وذلك لا يأتلف مع الثناء عليه فى
مقدمة الشوقيات •

وفى مساء اليوم الذى كتبت فيه ذلك الخطاب لقيت الأستاذ
الدكتور طه حسين بمنزله ، وكان يومئذ يسكن فى مصر الجديدة ،

فأخبرته بما وقع بينى وبين شوقى ، وكان الدكتور طه فى ذلك العهد من خصوم شوقى ، فتأسف وقال : ليتك حدثتنى بذلك قبل أن تكتب اعتذارك ، فإن كتابة مقدمة لديوان شوقى شرف عظيم ، ولو أنه طلب منى ذلك وأنا من خصومه لسايرت الى القبول لأن شوقى فى رأى أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبى .

وكان اعتذارى عن كتابة مقدمة للشوقيات بداية قطعية بينى وبين شوقى ، مع أننى أنصفتة فى كتاب « الموازنة بين الشعراء » انصافاً لم يوفق اليه أحد من النقاد الذين أعجبوا بشعره أشد الإعجاب .

وتعليل غضبه سهل : فقد كان شوقى لا يصدق أن شعره كلام كسائر الكلام فيه المقبول والمردود .

ولم تصرفنى هذه القطيعة عن الايمان بعظمة شوقى .

وزاد فى عطفى عليه أننى رأيته رأى العين يحفر قبره بيديه .

رأيتة يسرف اسرافاً شديداً فى نظم الشعر ، والشعر يأخذ وقوده من الأعصاب والحواس ، رأيتة ينظم طوائف من الروايات المسرحية فى زمن قليل ، فعرفت أن الرجل يقدم صدره لسهام الموت .

وآخر مرة رأيت فيها شوقى كانت بمسرح حديقة الأزبكية فى ربيع سنة ١٩٣٢ ، رأيتة نحىلاً هزلاً تتموج عيناه ، وتضطرب يداه .

وقد هممت يومئذ بتقبيل يميناه ، ثم تذكرت ما بينى وبينه فانقيض صدرى وانصرفت .

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

وعصف الدهر بشاعر النيل حافظ ابراهيم فبكاه شوقى بكاء
من ينتظر الموت •

وكذلك كان صيف سنة ١٩٣٢ عهد شؤم ، فقد انطأ في حياة
شاعرين عظيمين رفعا مصر مكانا عليا •

سيداتي سادتي

عاش شوقى للشعر ومات بالشعر ، ففي الساعة التي كان وجود
فيها بروحه كانت الأنسة ملك تطرب الجمهور بتغريدة شوقى :

يا حلوة الوعد ما أنساك ميعادي

وفي صباح اليوم الذي جهز فيه نعشه كان المنشد ينشد قصيدته
في مصع مشروع القرش ، فهتف هاتف : يحيا شوقى !

وصفق الجمهور ، وأغرب في الهتاف •

ولكن هاتفا آخر رفع صوته وقال : يرحم الله شوقى !

وتلفت الجمهور وهو مذعور فعرف أن المقادير انتزعت من بين
يديه كنزه الثمين •

سيداتي سادتي

تلكم كلمة وجيزة عن أمير الشعراء ، وهي ذكريات حزينة ، ومن
ذا الذي لا يحزن ولا يبتسح حين يتصور ما تصنع الدنيا بالشعراء ؟

وهو رحمه الله قد صور حاله مع دنياه ، دنيا الجمال والحب ،
بالأنشودة الخالدة التي يغنيها تلميذه وصفيه محمد عبد الوهاب :

بلبل حيران بين الفصون

في سبيل الجمال والحب مصرعك ، أيها البلبل الذي قتلته
أشواك الأزاهير !

وفي ذمة الله شاعر مصر والمروبة والاسلام والشرق ؛
في ذمة الله من يقول :

وطني لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى اليه في الخلد نفسي
وهنفا بالفؤاد من سلسيل
ظمأ للسواد من عين شمس

قصائد الشعراء في تأبين سعد بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة

في مثل هذه الأيام من سنة ١٩٢٧ هجرت مصر
ب وفاة الزعيم سعد زغلول ، والتفتت الأمة
العربية الى هذه الفجيعة الدامية ، فنظمت
القصائد الجياد في الحزن لوفاة ذلك الزعيم
العظيم ، نظمها شعراء فضلاء ..

قصيدة شوقي (١)

نشرت في صدر الأهرام مع تمهيد نظنه من قلم المرحوم صادق
عنبر *

جو القصيدة

لم أكن في مصر يوم مات سعد ، وإنما كنت في باريس فلا أعرف
أين كان شوقي يوم مات سعد ، فهل كان بمصر ؟
في القصيدة ما يشهد بذلك ، كأن يقول :

قلت والنفس بسعد مائل فيه آمال بلاد ومنها
وفيها مع ذلك أبيات تشهد بأنه كان يصطاف في البلاد السورية ،
كأن يقول :

سائلوا « زحلة » عن أعراسها	هل مشى الناعي عليها فمحاها
عطل المصطاف من سماره	وجلا عن ضفة الوادي دماها
فتح الأبواب ليلا دبرها	والى الناقوس قامت بيعتساها
صدع البرق الدجى تنشره	أرض سوريا وتطويه سماها
يحمل الأنباء تسرى موهنا	كعوادي الشكل في حر سراها
عرض الشك لها فاضطربت	تطأ الآذان همسا والشفافاها
قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم	كل نفس في وريديها رداها

(١) مجلة الرسالة - العدد ٤٢٥ - بتاريخ ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤١ .

فهذه الأبيات صريحة في أن الشاعر كان في سوريا حين مات
سعد ، فكيف جاز له أن يخاطب النعش ولم يكن من المشيعين ؟
إنما صنع ذلك ليتسق له هذا الجو الجميل :

يا عدو القيد لم يلمح له	شبحا في خظة إلا أباه
لا يضق ذرعك بالقيد الذي	حز في سوق الأوالى وبراه
يارفاتا مثل ريحان الضحى	كللت عدن به هام رباها
وبقايا هيكلك من كرم	وحياة أترع الأرض حياها
ودع العدل بها أعلامه	وبكت أنظمة الشورى صواها
حضنت نفسك والتفت به	راية كنت من الذل فداها
ضمت الصدر الذي قد ضمها	وتلقى السهم عنها فوقها
عجبي فيها ومن قائدها	كيف يحمى الأعزل الشيخ حماها

وهنا يظهر روح القصيدة . فالشاعر يتحدث عن القيد وعدد
القيد ، ويذكر الراية التي احتضنت نعش سعد ، بعبارة لطيفة تعد من
أدق العبارات ، إذ جعل الراية تحس نار الفجيرة ، وتشعر بفقد القائد
الذي كان يحمى حماها وإن جردته الأقدار من السلاح .

عيون القصيدة

وفي هذه القصيدة أبيات روائع منها قول الشاعر في فجيرة مصر
بدفن سعد :

ما درت مصر بدفن صبحت	أم على البعث أفاقت من كراها
صرخت تحسبها بنت الشرى	طلبت من مخلب الموت أباء

وقوله في جزع مصر لفقد الخطيب الذي أسكرها بسحر بيانه
حيناً من الزمان :

طافت الكأس بساقى أمة	من رحيق الوطنيات سقاها
عطلت آذانها من وتر	ساحر رن مليا فشجها

أرغن هام به وجدانها
كل يوم خطبة روحية
دلته مصر ولو أن بها
وقوله في مصاير الأحياء :

زورق في الدمع يطفو أبدا
تهلع الشكلى على آثاره
عرف الضفة الا ما تلاها
فاذا خف بها يوما شفاها

وقوله في فضل سعد على الثورة وجعلها خير ما ترك من الذرية :

ولد الثورة سعد حرة
ما تمنى غيرها نسلا ومن
رقد الثائر الا ثورة
قد تولاه صبيا فكوت
أعلمتم بعد موسى من يد
وطئت نادبة صارخة
بحياتي ماجد حر نماها
يلد الزهراء يزهد في سواها
في سبيل الحق لم تخمد جذاه
راحتيه وفتيا فرعاه
قذفت في وجه فرعون عصاه
شاه وجه الرق ياقوم وشاهها

وقوله في أخلاق سعد

أين من عيني نفسي حرة
روعة النادى اذا جدت فان
يظفر العذر بأقصى سخطها
ولها صبر على حسادها
نست أنسى صفحة ضاحكة
وحديثا كروايات الهوى
وقناة سعدة لو وهبت
كنت بالأمس بعيني أراها
مزحت لم يذهب المزح بها
وينال الود غايات رضاها
يشبه الصفح وحلم عن عداها
تأخذ النفس وتجري في هواها
جد للصب حنين فرواها
للسماك الأعزل اختال وتاها

تلك عيون هذه الشوقية وما زاد فهو معان يكررها شوقى في
أكثر مراتيه وان كانت تجل عن الابتدال .

أحمد شوقي أمير الشعراء (١)

حضرت الاحتفال بوضع حجر الأساس للجامعة المصرية فى نشوة الربيع فى سنة ١٩١٤ وكنت بجانب الخديوى عباس ويده «المسطين» ليضع الحجر الأساسى ، وهى أول وآخر مرة رأيت فيها الخديوى عباس وأذكر أنه كان ضخم الرأس وأصبح الوجه ومثين البيان •

فى تلك الحفلة ألقى قصيدة من شعر شوقي ، ألقاها زكى عكاشة وكان رخم الصوت وكان شوقي حاضرا ولكننى لم أجد من يرشدنى الى مكانه لأسلم عليه •

ثم شبت نار الحرب العالمية الأولى والخديوى عباس فى تركيا فمنعه الانجليز من الرجوع الى مصر ، وأعلنوا أنه مخلوع ، وأقاموا مكانه السلطان حسين كامل رحمه الله • أقيم الاحتفال فى ميدان عابدين ولم أستطع شهود ذلك الاحتفال ولكننى أتذكر أن جرائد ذلك الوقت قالت انه وجه الى المحتفلين به خطبة وجيزة •

(١) جريدة البلاغ - ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٧ •

(٢) يقول زكى مبارك : من مقالة أهديتها الى الأستاذ محمد عبد القادر حمزة لغرض

لا يخفى على قراء البلاغ •

جاءت فيها الحكمة المصرية « على قد حصيرتك مد رجليك » وكان
يوحى بالاعتدال • وفى اليوم التالى نشرت جريدة الأهرام ثلاث
قصائد فى تهنئة السلطان حسين قصيدة أحمد شوقى وقصيدة حافظ
ابراهيم وقصيدة أحمد نسيم •

فى ذلك الوقت كنت طالبا بالأزهر الشريف وكنت من تلاميذ
الشيخ محمد حسنين العدوى والد الأستاذ حسنين محمد مخلوف •

كان الشيخ يقيم بمنزل فسيح فى حارة « أم الفلام » وكنت
أقيم بغرفة فى منزل قريب من ذلك المنزل وكنت حين أرى باب الشيخ
مفتوحا أدخل فأسلم عليه ، لأن الشيخ لمحنى مرة وأنا سائر بدون
التفات فنادانى وقال : أعرب هذا البيب يا شيخ زكى :

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكمو على اذن حرام
فابتسمت وقلت : المشكلة هى ان الفعل « مر » تعدى بنفسه
وكان من الذوق أن يتعدى بالياء ، وسألاحظ هذا المعنى فأعرج على
هذه الدار حين أمر عند الطريق •

مررت على الدار ومعى جريدة الأهرام لأقرأ تلك القصائد على
الأستاذ مخلوف وهو آية من آيات الذكاء ، وهو الذى صار مفتى
الديار المصرية لهذا العصر خافا للرجل العظيم الشيخ عبد المجيد سليم •

قال الأستاذ : ما رأيك يا شيخ زكى فى هذه القصائد ؟

فقلت : قصيدة نسيم قصيدة صغيرة وقصيدة حافظ فيها سقطه
وطنية ، فقد أوصى السلطان حسين فقال :

ووال الانجليز فهم رجال من الآداب قد نهلوا وعلوا

أما قصيدة شوقى فهى القصيدة •

فقال الشيخ حسنين مخلوف : ان الانجليز سينفون شوقى لهذه القصيدة ، ففيها حض على الثورة وفيها تعريض بالسلطان حسين •

وقد تحقق رأى الأستاذ فنفى الانجليز شوقى بعد أسبوعين •

لقد عرف شوقى كيف يختار منقاه ، وهو أسبانيا الجنوبية ، وهى الأندلس أقام فيها المسلمون ثمانية قرون وقد استوحى الاطلاع فقال ما قال •

وحين أعلنت الهدنة فى سنة ١٩١٨ رجع شوقى الى الوطن ليقول :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا

وفى سنة ١٩١٩ كنت رئيس تحرير جريدة الأفكار وكان يشرف عليها المغفور له عبد اللطيف الصوفانى الوكيل الثانى للحزب الوطنى ، أما الوكيل الأول فهو على فهمى كامل الذى مات وهو يؤبن محمد فريد •

وكنت أزور الصوفانى فى كل مساء لادرس معه ما يجب أن أكتب فى الصباح ، فقد كان أصيل رأى وكان آية فى صدق الوطنية ، وكان منزله مأهولا بالزائرين •

قال لى الشيخ عبد ربه مفتاح وكان رفيقى فى الثورة ، هل تعرف هذا الرجل الجالس هناك ؟

فقلت : لعله مسكين من المساكين •

فقال : هذا هو أحمد شوقى أمير الشعراء مضيت للتسليم على الشاعر وقلت : فى جيبى ثلاثة جنيهات وأنا اعطيها لك لتشتري بدلة تعفيك من هذه البدلة المبهدة ، وان كنت حضرت لاستجداء

الصوفاني بك فانا أغنى من هذا الصوفاني ، وانا شاعر مثلك ،
والشعراء كالفقراء يعطف بعضهم على بعض •

ضحك شوقي ضحكة قوية وقال : هذه أول مرة أضحك فيها
بقلبي ، وأحب أن أتشرف بمعرفة الأستاذ : فقلت أنا الشيخ زكي
مبارك ملك الشعراء ، وأنت أمير في مملكتي ومن واجبي أن أعطف
عليك •

قال شوقي أنشدني بيتا من شعرك يا أستاذ فأنشدت :
أنت ورد فهب محبك شوكا أنرى الورد عاش من غير شوك
فقال هذا شعر ، ثم أنشدته هذا البيت :

لقد صددنا كما صددتم فهل ندمتم كما ندمنا
فقال هذا شعر بديع ثم أنشدته هذا البيت :

أين قلبي وأين آثار قلبي من خفوق يعتاده ووجيب
فقال : هذا معنى كنت أحوم عليه ، ولم أصل اليه وأنا أحب أن
تدوم الصلة بيني وبينك يا أستاذ •

كان شوقي يسكت الناقدین المتحاملين بالأموال ، وقد كان
من أكابر الأغنياء وكان يجزل العطاء على من يثنون عليه وقد استغرب
حين رأى أرفض عطاياه وقال : لقد أحيانى الله فعشت حتى رأيت
ناقدا يقول كلمة الحق لوجه الحق •

فقلت وأنا أيضا عشت حتى رأيت وجه أمير الشعراء فله الحمد
وعليه الثناء •

كانت جريدة الأهرام تنشر قصائد شوقي فى صدرها وتقول
قال أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع أحمد شوقي ، وغارت جريدة

السياسة فأعلنت أنها تقدم الى الجمعية الخيرية الاسلامية خمسين جنيها
ثمنا لكل قصيدة ينشرها فيها أمير الشعراء أحمد شوقي •

وبهذا انتقل شوقي من جريدة الأهرام الى جريدة السياسة •

وجاءت فرصة لقصيدة من قصائد شوقي فقالت جريدة الأهرام :
لقى أحد الناس قصيدة نظمها الشاعر أحمد بك شوقي •

كنت أطبع كتاب ، البدائع ، في مطبعة الصباح فرأيت أن أكتب
في المجلة اعتراضا على ما صنعت جريدة الأهرام وشاركني في
الاعتراض الدكتور سعيد عبده وكان طالبا زمنا في مدرسة الطب •

قرأ شوقي مقالتي ومقالة الدكتور سعيد عبده فقال للأستاذ
القشاشي بالتليفون انه يجب أن يرانا عند اللبان بشارع الالفى عند
الظهيرة •

حضرنا قبل الميعاد فأحضر اللبان صحنين من اللبن الزبادى
وبجانب كل صحن طبق من السكر المدشوش قال الدكتور سعيد : أنا
لا أعرف هذا ، فقلت : يظهر انه يجب ان تخلط الزبادى بهذا السكر
المدشوش وخلطت السكر بالزبادى وأكلت حتى شبعت •

وبعد لحظات جاء شاعرنا شوقي فطلب صحننا من الزبادى بجانبه
سكر مدشوش ، فوضع السكر على اللبن وأكل ، فندم سعيد على ان
لم يسمع كلامى ، ثم حضر مصطفى القشاشى وأحمد علام فمضينا فى
سيارة شوقي الى كرمة ابن هانى وكانت بالمطرية وفى الطريق دار
الحديث من شجن الى شجون وأتذكر أنه كان عاتبا على سعد زغلول
وانه كان معجبا بعبد اللطيف المكباتى ، وأتذكر أيضا انه كان معجبا
بالدكتور طه حسين • وقد غضب عليه فيما بعد •

كانت كرمة ابن هانى بمعنى الكلمة وابن هانى هو أبو نواس

وكان شوقى من المعجبين بأشعار أبى نواس ، وقد عارضه بقصيدة من قصائده الجياد •

انطلق شوقى يتحدث ، ولم يكن من عادته أن يطيل الحديث ، تحدث فى شؤون كثيرة ضاعت من ذاكرتى مع الاسف وكان من لحظة الى لحظة يقوم لمناجاة « سيس » وهو اللقب الذى خلعه على ابنه حسين •

ثم حضرت المائدة وهى أعاجيب من الألوان وقد دهشت حين رأيت شوقى يأكل الحمام بالشوكة والسكين ولا يبقى منه شيئاً ، وقد استأذنته فى أن آكل الحمام بيدي فسمح ، لأنى لم أكن أعرف أن الحمام يؤكل بالشوكة والسكين •

وفى العصرية مضى بنا شوقى بسيارته الى القاهرة ، واستوقف السائق لحظة ليقول :

سذه أملاكى بين المطرية والقاهرة ، فقلت انها أملاكى أنا وان اعترضت فسأرفع عليك قضية •

فقال شوقى : انها هبة منى اليك ، فقلت : أنت تهب مالا تملك يا أمير الشعراء ؟

كان شوقى يقول : أنا أحبك يا دكتور مبارك ، أحبك الى حد العشق وأشتهى أن أراك كل يوم ، فما عرفت فى حياتى رجلاً أصدق منك ، فهل تبخل بأن أراك كل يوم ؟

فقلت أنت أستاذى يا شوقى باشا ، وكانت عنده رتبة أعظم من رتبة الباشوية •

وقال شوقى : أنا أنتظرك فى الساعة الحادية عشرة فى الصباح

بمكتب الدائرة ٨ شارع جلال وفي الساعة الحادية عشرة بالضبط
يحضر شوقي وقد أعد له خادمه فنجانا من الشاي يثور عليه البخار
وأقراصا من « الكرواسان » يهديها الى زائريه بغير حساب ثم يقرأ
الخطابات الواردة عليه بسرعة ويمضى معي الى حيث يشاء .

نمضى من هنا ونمضى من هناك ، ونجتاز جميع الدروب الى
ان نصل الى جسر قصر النيل .

هنالك يقف شوقي فيبكي بكاء الأطفال ويغمغم « من أى عهد
فى القرى تتدفق » .

وهى أعظم قصيدة قالها شاعر فى وصف النيل ثم تتخاذل قواه
فيرجو ان أحمله الى المكتب وهو فى ذهول ما بعده ذهول وكان شوقي
نجيفا الى حد الهزال ، صجبت شوقي مدة تزيد على سنتين عرفت
الشاعر معرفة حقيقية ، وكان تحفة فى سلامة الذوق ومثانة الأخلاق ،
طلب منى رحمه الله أن أكتب مقدمة الشوقيات فاعتذرت بأن المقدمات
يراعى فيها التلطف ، وأنا أكره ان اتقيد برأى قد انكره فيما بعد حين
أجد قصيدة ضعيفة توجب الهجوم عليه فقال شوقي بالفرنسية جملة
سناها « وأنا لا أفرض أى شئ » وفى المساء لقيت الدكتور طه
حسين وكان جارى بمصر الجديدة وقصصت عليه ما دار بينى وبين
شوقي فتجههم وجهه وقال : يظهر ان رأى فيك لن يتغير يا دكتور زكى ،
وهو انك رجل عبيط ، أنا خاصمت شوقي وخاصمنى وهو يغدق
الأموال على كتاب مأجورين يشتمونى فى الجرائد والمجلات ، ولو انه
اقترح ان أكتب مقدمة الديوان لرأيت هذا من التشريف لأن شوقي
فى رأى هو أعظم شعراء اللغة العربية بعد المتنبى .

فقلت : أنا أرى أنه أشعر من المتنبى فقال الدكتور طه : ما دام هذا

رأيتك فما الذي منع من أن تكتب المقدمة فقلت : لا أحتفظ بحقي في
نقدم حين يخطيء •

فقال الدكتور طه : ان شوقي لا يخطيء فقلت اسمع يا سيدى
الدكتور هذا البيت وهو من قصيدة قالها شوقي بعد العودة من منفاه:
وكل مسافر سيؤوب يوما اذا رزق السلامة والايابا

فقال الدكتور طه : هذا بيت جميل فقلت : ان سيدى الدكتور
من ذرية الرسول عليه الصلاة والسلام وفيه قال الله فى كتابه العزيز،
« وما عنمناه الشعر وما ينبغى له » ، فالمفروض يا سيدى الدكتور ان
المسافر سيؤوب اذا رزق السلامة والايابا ، فليس فى البيت معنى
جديد • فضحك الدكتور طه ودعا زوجته وقال لها بالفرنسية خلاصة
الحديث فابتسمت وقالت جزاؤه فنجان من الشاى وأنا أدعوه للمشاركة
فى طعام العشاء فقلت : أنا اتعديت والطعام بالليل يؤذى أمعائى •

فى سنة ١٩٢٧ اقيمت حفلة تكريمية لشوقي حضرها وفود من
شعراء الأقطار العربية ، كان موسما من ألطف المواسم ، والاشتراك
فيه جنيه مصرى ، فدفعت الجنيه عن طيب خاطر اكراما للأمير الشعراء •
كانت الحفلة فى دار الأوبرا الملكية وفيها ألقى حافظ ابراهيم قصيدة
جاء فيها :

أمير القوافى قد أتيت مبايعا وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
فوثب شوقي وقبل حافظا على خديه ، وكان غريبا أن يعترف
حافظ بشاعرية شوقي فقد كان حافظ أذكى من شوقي بمراحل
طوال ، وأشعر منه بلا جدال ، وسيقول التاريخ بما أقول بعد زمن أو
أزمان •

كانت الحفلة الختامية بكرمة ابن هانى الجديدة وهى على شاطئ
النيل فى أشباه الحفلات الرسمية ، وتخيرات مكاني فاخترت مكانا ليس

فيه خمر ، وكان المكان هو الحجرة التي يجلس فيها المغفور له الشيخ
عبد العزيز جاویش أعظم من كتب في ذم الخمر ، ولكنني أسمع
همسا في آذن الشيخ جاویش من الشيخ محمد عبد المطلب وهو يقول :
هذا زكي مبارك تلميذ طه حسين ، فوقفت وقلت للشيخ جاویش أنا
اخترت هذا المكان من أجلك ، لأشرب معك الماء القراح ، لكن الشيخ
عبد المطلب يغتابني عندك ، لاني دفعت شره عن الدكتور طه حسين
بمقالات نشرتها في جريدة المقطم والأهرام ، وهي مقالات أملاها قلبي
على قلبي ، وسأمضي لأسكر مع السكارى ، فليس ليني آدم في هذا
العصر أخلاق .

قال الشيخ جاویش وهو يسترضيني : ان الشيخ طه كان محررا
في جريدة الهداية الاسلامية وهي مجلتي ، وأعظم مقالة نشرها عندي
هي « النهي عن التزاوج من الأجنيات » فكيف يتزوج من اجنبية ؟
فقلت : ان الزمن تغير يا فضيلة الأستاذ .

فقال الشيخ جاویش وهو غضبان ان الاتراك لا يتزوجون بناتنا
لأننا فلاحون ، والمغاربة لا يتزوجون بناتنا لأننا مصريون ، وكان يجب
ان تلاحظ انني أبغض المسيو طه حسين .

فقلت : أنا أيضا أبغض هذا المسيو ، فبينى وبينه خلاف ،
وستسمع أنباءه بعد حين .

فضغط الشيخ جاویش على يدي وقال : سيجعل الله كرسى
الأستاذية بكلية الآداب اليك وستكون أنت عميد كلية الآداب وليس
على الله بعزیز ان يجعلك مدير الجامعة المصرية .

فقلت : هذه بشارات لطيفة ، ولكن الشيخ عبد المطلب جرحني ،
وسأسكر مع السكارى لاستريح من هذا التجريح ، فأشدد الشيخ
جاویش :

إذا استشعيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ماشفاكا

فقلت : لن أشرب الخمر اكراما لك ولكننى أحب أن أخرج من هذا المكان •

نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ •

خرجت الى حجرة ثانية فوجدت حمد باشا الباسل وعلى باشا الشمسى جالسين وأمامهما زجاجات فيها ماء أصفر ، فتوهنت انه الويسكى ، وقد دعانى الشمسى باشا الى الجلوس ولكنى اعتذرت • وكان الباسل باشا والشمسى باشا صديقين حميمين ، فقد رأيتهما بعد رجوعى من باريس فى سنة ١٩٣١ ينادمان فى مشرب بافاريا ، وكان مكانه بشارع فؤاد فى المكان الذى تقوم فيه اليوم عمارة ضخمة نحتها قهوة الشمس ، وهى قهوة سخيصة لأنها لا تقدم للزبائن غير القهوة المرة ، أو لأنها كانت ملتقاة مع الدكتور منصور فهمى باشا حين يطيب له أن يأخذ رأى فى بعض الأمور ، كنت أستحيى من شرب الخمر فى حضرة الدكتور منصور ، كان هو يشرب الخمر وأنا الماء وقد عزم مرة ومرتين أن أشرب معه فرفضت بحجة انه لا يجوز للتلميذ أن ينادم الأستاذ • ولست تلميذ الدكتور منصور ، وانما أنا ولده الروحى ، ولا أعرف كيف كانت تصوير حياتى لو لم أعرف هذا الأستاذ النبيل •

وأنا مدين للدكتور منصور فهمى بديون ثقال ، فهو الأستاذ الذى ربانى كان حفظه الله يملأ الأسئلة التى ستواجهنى فى امتحانات الليسانس ويطلب منى ان أعدها اعدادا قويا فأتعب فى تحضير الاجابات تعباً لا يخطر فى البال وذلك أسلوب فى التعليم نقلته عن الدكتور منصور فهمى •

أترك هذا وأذكر أنى رأيت فى الحفلة جماعه من تلاميذى بالجامعة المصرية وأمام كل تلميذ زجاجة من الويسكى فتقرزت مما رأيت ، وامتنعت عن الشراب وكان يجب أن يعنى الموسيقىار محمد عبد الوهاب فحضر شوقى لسمع ، حضر وهو نشوان ، وكان فى

الحفلة المغنى صالح عبد الحى وقد شرب حتى سكر فكان يصيح :
غنى يا محمد غنى ، غنى يا ولد يا حلو يا جميل ؟ ؟ ؟

جناية زوجية

كان سعد زغلول هو رئيس الشرف للحفلة التى أقيمت لشوقى
ثم تظهر جريدة البلاغ وفيها مقالة افتتاحية بقلم الأستاذ عباس
محمود العقاد وبها زعم أن الأمة التى تحتفل بشوقى لا تعرف معنى
الكرامة ، فدعا سعد اليه وقال : كان يجب يا أستاذ ان تلاحظ ان
الحفلة تحت رياستى فقال العقاد أنت لا تفهم الشعر يا باشا ، فقال
سعد : أنا لا أعرف الشعر ، وانما أعرف الذوق وأحب أن تكون هذه
آخر مرة تزور فيها بيت سعد زغلول .

ودعا سعد باشا الأستاذ عيد القادر حمزة لزيارته ليقول : فى
صدر جريدة البلاغ تنشر مقالة فى شتم أمير الشعراء أحمد شوقى ؟
فقال الأستاذ عبد القادر حمزة :

الشعر للشعراء وأنا أبيع لكل كاتب أن يكتب ما شاء .

سعد باشا فى تحرير البلاغ

كان سعد زغلول يعرف أن الرجل عبد القادر حمزة فقير ، الا من
الشرف فكان يشاركنا فى تحرير جريدة البلاغ ، كل ما نشره البلاغ
تحت حرف (س ١٠) فهو من انشاء سعد زغلول ، وهى مقالات
محفوظة بجموعات البلاغ ، وذلك مما يجهل أبناء هذا الجيل ،
وما أكثر ما يجهل أبناء هذا الجيل .

الكاتب الجبار

زعم الأستاذ العقاد بعد موت سعد باشا ان سعدا كان يسميه
الكاتب « الجبار » وكنت أستغرب من هذا وأقول : كان يجب أن يذاع

هذا اوصف وسعد حى ، أما التقول على سعد بعد الموت فهو ضرب من الخيال ورأى فى العقاد ليس بالرأى الطيب ، فقد كنا زميلين فى تحرير جريدة البلاغ وزميلين فى تحرير مجلة الرسالة ، وما قرأت مقالة أرضتني فهل كان سعد من الجهل بحيث يخلع عليه لقب الكاتب الجبار ؟

ثم تظهر الحقيقة المؤذية ، والقول الحق اizard فى اizard •

ظهرت الحقيقة حين أصدرت مجلة الثقافة عددا خاصا عن سعد زغلول ، وكان الأستاذ محمد كامل سليم سكرتير سعد ، وكان يدون مذكرات يومية عن حياة سعد ، فدعته مجلة الثقافة لتقديم كلمات فى تلك المذكرات قال الأستاذ كامل سليم فى مذكراته ان سعدا كان يسمى الأستاذ عبد القادر حمزة (الكاتب الجبار) وانه سأل سعد باشا عن سبب تسميته بهذا اللقب فقال : عبد القادر كاتب مفحم وكتابه لا تقوم على الزخرف وانما تقوم على المنطق •

عبد القادر وشوقي

كنت أرسل الى البلاغ مقالات من باريس ، فأرسلت ثلاث مقالات فى نقد الجزء الثانى من الشوقيات وكان الدكتور زكى حسن قدمه الى لأطلع عليه فلم يعجبني باب النسيب ، فكتبت تلك المقالات • ولكن خطابا يصل بالبريد الجوى بخط الأستاذ عبد القادر حمزة وفيه يقول :

ان شوقى مريض ونقد شعره من كاتب فى مثل منزلتك الأدبية يؤذيه ، وحين يعافيه الله من المرض سأنشر هذه المقالات بنصها الاصيل وحين مات شوقى رثاه عبد القادر بمقالة افتتاحية فى البلاغ قال فيها : ان شوقى فتح لمصر ممالك لا تستطيع فتحها بالجيوش والأساطيل ، كان عبد القادر يحترم شوقى وكان ينشر قصائده فى البلاغ بحروف كبيرة ومشكولة ، ولم يصنع هذا الصنيع مع غيره من الشعراء •

سألت شوقي مرة عن رأيه في عبد القادر فقال : هذا كاتبنا الأول .

بين شوقي وحافظ

كان التنافس شديدا بين شوقي وحافظ ، وكان شوقي يغار من حافظ بصورة بغیضة ، ولم يسمح بأن يقول فيه كلمة جميلة .

كان حافظ رئيسي يوم كنت موظفا بالقسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، وكان يختصني بالعطف ويسمعي ما ينظم من الشعر ، وفي كل قصيدة يقول هذه آخر قصيدة يا مبارك فلتكن أعظم قصيدة وعليك أن تصحح ما فيها من الاغلاط ، حاولت أن أصحح فلم أستطع ، فقد كانت طاقة حافظ الشعرية طاقة قوية وكنت بالنسبة اليه طفلا لم يشب عن الطوق .

وكان عندي من الشيطنة ما يبيح التندر بحافظ فأقول : اخبرني أحد أصدقائي انه رأى شوقي يدخن السجائر في الطريق ، فيزعج حافظ ويقول : ان هذا المجنون ينظم شعرا ، وتلك داهية الدواهي فتعالى معي . . » ويدخل فيأخذ اذنا من مدير الدار وهو المغفور له الدكتور صادق أبو هيف الذي نقد مشروع ملتر بأبحاث جيدة أوجبت أن يتلقى من سعد زغلول خطاب ثناء « نسير الى النيوبار فيطلب حافظ « شيشه » ، ويكركر فيها بأسلوب فظيع ، ثم يقول : أنا أعرف انك من أصدقاء شوقي ، ولا أعرف كيف تصادق هذا المخبول ، ان الناس منذ خمسين سنة يقولون حافظ وشوقي كما يقولون بيض وسديط ، فكيف يريد شوقي أن ينفصل مني ؟ فأقول : أنا لا أعرف النائم ، ولن أبلغ شوقي بهذا الكلام .

الموت يميت الاحقاد

كان شوقي يصطاف بالاسكندرية وكان يختار الجلوس بالقهوة

التجارية نستوحى الامواج فقرأ فى جريدة البلاغ ان حافظا مات
فغمام وجهه وانشأ أعظم قصيدة قالها فى الرثاء :

يا منصف الموتى من الأحياء	قد كنت أوشى أن تقول رثائي
قدر وكل منية بقضاء	لكن سبقت وكل طول سلامة
والكاذبون المرجفون فدائي	وودت لو انى فداك من الردى
الموغرو الموتى على الأحياء	الناطقون عن الضعيفة والهوى
بكرائم الانقراض والاشلاء	من كل هدام ويبنى مجسده
من ذا يحطم رفرف الجوزاء	ما حطموك وانما بك حطموا
فى الشرق واسمك أرفع الأساء	انظر فأنت كأمس شأنك باذخ
ووليه فى السلم والهجاء	يا مانح السودان شرخ شبابك
نبع البيان وراء نبع الماء	لما نزلت على خنأله ثوى
قلما كصدر الصعدة السمراء	قلدته السيف الحسام وزدته

وهذه قصيدة نظمها شوقى وهى فى الجزء الثالث من
الشوقيات فليرجع اليها من يريد الاستقصاء ، فأنا لا أريد ابكاء قراء
البلاغ بدموع أحمد شوقى على غريمه حافظ ابراهيم •

شيخنا شوقى

كنت ألفت مع الدكتور زكى أبو شادى جمعية شعرية سمينها
جمعية أبوللو ، واخترنا أن يكون الرئيس أحمد شوقى أمير الشعراء
وكانت دار الجمعية بمنزل الدكتور أبو شادى بالمطرية ، وكان شوقى
يحضر لحظات ثم ينصرف ، وكان الدكتور أبو شادى يرجوه أن
يسمع القصائد التى يجوز نشرها فى المجلة فيقول : الدكتور زكى
مبارك فيه الكفاية ، فأقبل يده كما كنت أقبل يد أبى •

وكان شوقى فى آخر أيامه يقضى فى كل مساء لحظة أو لحظتين

بجريدة الجهاد ، لأن الأستاذ توفيق دياب سمي جريدته بلفظة من ألفاظ شوقي ، ان الحياة عقيدة وجهاد . خرج شوقي من دار الجريدة وهو مكروب فتعشى فى مطعم الكورسال ومضى الى بيته ليموت ، فى اللحظة التى مات فيها شوقي كانت الأنسة ملك تغنى : يا حلوة الوعد مانساك ميعادى ، وهى قصيدة أهداها شوقي الى ملك بخطه الجميل ، وفى صباح الجمعة كان يجب أن أحضر حفلة الافتتاح بمشروع القرش فى العباسية لأرى وجه الدكتور على باشا ابراهيم ، ولألقى قصيدة شوقي بصوتى ولكن ملحق جريدة الجهاد يصل إلينا على غير ميعاد وفيه ان شوقي مات مضيت بسرعة الى البيت فوجدت الدكتور أبو شادى فى انتظارى وعليه ثياب سود .

قلت : عظم الله أجرك يا دكتور زكى ، فقال : وعظم الله أجرك يا دكتور زكى ، مضيئا ننتظر وصول النعش بميدان الاسماعيلية فى الساعة الرابعة من ذلك اليوم المشئوم ، اراد الحانوتية أن يحملوا النعش فرفضنا ان يحملوه وتقدمت أنا والدكتور أبو شادى فحملنا النعش وكان أخف من ريش النعام ، لم يكن المشيعون يزيدون عن أربعة عشر شخصا . . ثم جاءت سيارة تنقل جثمان الشاعر الى مثواه الأخير فأخذنا سيارة ومضيئا معه الى القبر وألقيت عليه آخر نظرة .

كيف كان يعيش شوقي

كان رحمه الله مدمنا على التدخين وكان يضع السيجارة فى ميسم من الكهرمان ، وما رأيته بدون سيجارة وكان يشرب الشاي من وقت الى وقت وكان مغرما بأكل البيض كان يأكله نيئا عند نظم الشعر ، وبه أوصانى ولكن الله ابتلانى بالمصران الاعمور فمنعنى هذا الغذاء النبى لأن صفار البيض يرقد فى المصران ، ولم يكن شوقي يستحم بالماء كما يستحم الناس والحيوان وانما يستحم بالكولونيا ، وكانت خادمتة هى زوجته وتقدر مواعيده الغالية ، ولم يكن شوقي

يفطر فى البيت وانما يمضى مع الشروق فيفطر فى مطعم صولت بشارع
بولاق واسمه اليوم شارع فؤاد وكان فى مكان يجاور القهوة المسماة
بالأمريكين ومما يغيب عن بعض العرب أن الأمريكين ليس معناها
الأمريكيون وانما معناها الشرب على الطريقة الأمريكية وهى أن يشرب
الشاربون وهم واقفون ، ولهذا ميزة عظيمة وهى اعفاء الشاربين من
دفع البقشيش وهو فى بعض الاحايين ثقیل ، وكنت أشرب بهذه
الطريقة فى مشارب باريس ، حين رأيت امرأة مجنونة تمسك
بختاقي وتقول : الى البار الامريكى يا جان ، الى البار يا جان ، وقد
تخلصت منها بصعوبة وهربت وأنا بحمد الله من عقلاء المجانين .

وكان شوقى يحب أبناءه حبا شديدا ، وكانت أول مواليدہ اسمها
أمنية وكان يضع صورتها فى مكتبه وقد رأى طفلة فى سنها وجمالها
وهو فى الباخرة فقال :

هذه نور السفينة هذه أخت أمينة
وكان رحمه الله يعطى أمينة كل ما فى جيبه ويقول :

وكم قد خلت من أيك الجيوب وليست جيوبك بالخالية

وهى قصيدة لم تسجل فى الشوقيات وبعد أمينة جاء على
نقال :

صار شوقى أبا على فى الزمان الترنلى

وهى من القصائد التى أغفلها صاحب الشوقيات وكان مفتونا
بشرب الويسكى ولم يكن يشربه الا بعد منتصف الليل فى البيت :

رمضان ولى هاتها يا ساقى مشتاقه تسعى الى مشتاق

ولم يكن يعرف ما رمضان أو شعبان فجميع الأشهر شوال .

انطون الجميل

هو الأديب الفاضل بحق وصدق انطون الجميل باشا رئيس
تحرير جريدة الأهرام وهو من أكابر المؤمنين بعقريّة شوقي وقد أكرمه
في الحياة وبعد الممات .

ألقي محاضرة في الاسكندرية بالفرنسية عن شوقي زعم فيها
ان الشعر العربي انقرض بعد شوقي فمضيت الى بيتي ونظمت قصيدة
بين الحب والحرب وهي قصيدة أعظم من جميع قصائد شوقي ، موحيا
وهو في دار الخلود .

زكى مبارك

فهرس

صفحة	
٥	المقدمة
٣١	مقدمة الشوقيات
٣٣	الشوقيات (الجزء الأول)
٤٧	الشوقيات (الجزء الثانى)
٧١	نقد باب النسيب
٧٤	الغزل فى شعر شوقى
٩٣	أحمد شوقى والموارنة بينه وبين بعض الشعراء
٩٨	— الحصرى وشوقى
١١٠	— البحترى وشوقى
١٥٥	— البوصيرى وشوقى
١٦٣	— بين البوصيرى وشوقى والبارودى
١٧٤	— قصيدة البارودى
١٨٥	— النخلص والاقتضاب فى شعر البوصيرى وشوقى والبارودى
١٩٤	المعجزات
٢٠٢	وصف القرآن
٢١٢	— بين شوقى وابن زيدون
٢٣٥	الموازنة بين عبقرية وعبقريّة
٢٤٠	أحمد شوقى وزكى مبارك
٢٤٧	شوقى فى كلمة صدق فى توديع أمير الشعراء
٢٥٤	أسبوع شوقى
٢٦٣	شوقى أمام التاريخ ، شخصيته وحكمته المطبوعة
٢٧٦	التربية والتعليم فى شعر شوقى
٢٨٦	سركات شوقى
٢٨٩	ملاحظات من حياة شوقى
٢٩٩	قصائد الشعراء فى تأبين سعد بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة